

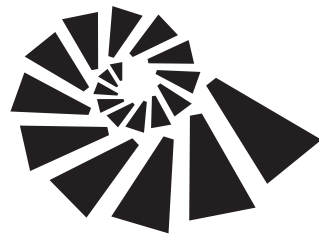


الحداد  
يليق  
بالسيدة  
بعداد



بُرهان شاي

الحداد  
يليق  
بالسيدة  
بعداد



منشورات مقبرة الكتب

الحداد يليق بالسيدة بغداد

بُرهان شاوي

رواية

الطبعة الأولى 2022

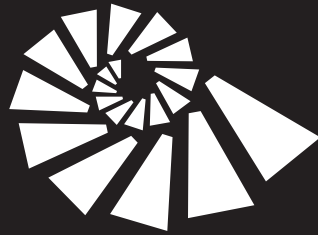
حقوق الطبع محفوظة لمنشورات مقبرة الكتب

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي

الناشر.

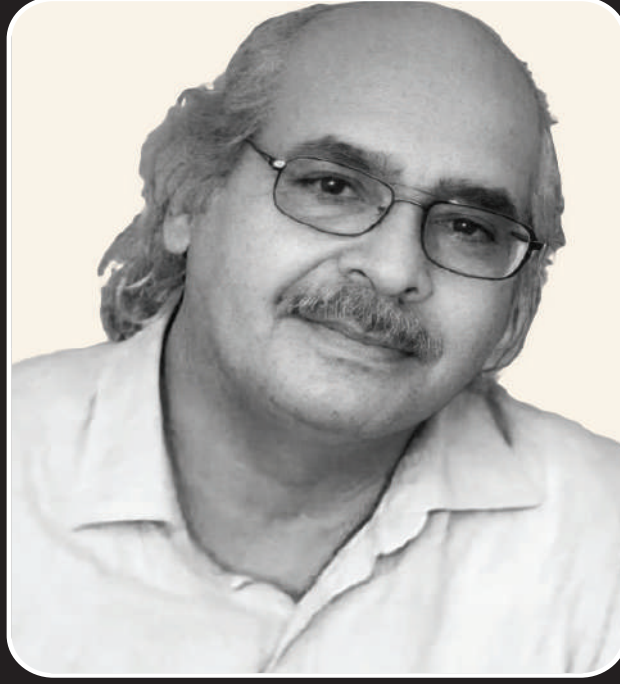
Cemetery.of.books@gmail.com

التصميم : ماهر عدنان



منشورات مقبرة الكتب





## بُرهان شاوي

شاعر وروائي..

صدر له 40 كتاباً.

من بينها: 13 رواية: الجحيم المقدس ، مشرحة بغداد ، استراحة مفيستو ، متاهة آدم ، متاهة حواء ، متاهة قابيل ، متاهة الأشباح ، متاهة إبليس ، متاهة الأرواح المنسية ، متاهة العميان ، متاهة الأنبياء ، متاهة العدم العظيم ، كما صدرت له الرواية الأولى من سلسلته الجديد: فندق باب السماء – ج1 – مملكة الموتى الأحياء.

في الشعر صدرت له سبع مجموعات: مراثي الطوطم ، رماد المجوسي ، ضوء أسود ، تراب الشمس ، رماد القمر ، شموع للسيدة السومرية ، وخطوات الروح. كما صدرت له المجموعة الشعرية الكاملة. ترجم عن الروسية أشعاراً ونصوص نثرية مختارة لكل من: أوسيب ماندلشتام ، يوسف برودسكي ، أنا أخماتوفا ، وفلاديمير فيسوتسكي.

ولديه الكثير من الكتب الأكاديمية والفكري منها: وهم الحرية ، عن الإبداع وسلوك المبدع ، جماليات اللغة السينمائية ، سحر السينما ، لغة الفن التشكيلي ، تمارين لياقة الممثل الجسدية ، مدخل إلى السينما الكوردية ، نظريات التأثير الإعلامي ، الدعاية والاتصال الجماهيري عبر التاريخ – المجلد الأول: حضارات الشرق القديم ، المدخل إلى الاتصال الجماهيري.



ظلام ظلام ظلام،  
جميعهم يمضون فى الظلام،  
فى الفضاء الخالى ما بين النجوم،  
الفراغ فى الفراغ.

\*\*\*

وقلت لروحى اسكنى ودعى الظلام يحل عليك  
والذى سوف يكون ظلام الله،  
كما فى مسرح عندما تخفت الاضواء بحفيف  
أجنحة جوفاء،  
وحركة الظلام على الظلام.

ت. إس. إليوت  
(الرباعيات الأربع)





(1)

## النفق المظلم تحت مدينة بغداد

في ذلك الفجر البغدادي الغامض زحفتُ الجثث الهاربة من «مشرحة بغداد» على المدينة. أخذتُ الجثثُ تملأُ الشوارعَ والأزقة والساحات..، وتزحف، في حشود، على الجسور والمنعطفات. حشودٌ من الجثث المستقيمة القامة، تتحرك ماشية كالأحياء، لكنها تنظر نظرات تائهة، وبلهاء، وكأنها تنظر في الفراغ. حركتها بطيئة، وآثار عمليات التشريح وندوبه وخياطته كانت واضحة على وجوهها وأجسادها.

جثث تزحف بخطى بطيئة ورتيبة، وكأنها في موكبٍ جنائزي، لكنها كانت تمشي وكأنها تعرف إلى أين تتجه، فجميع الجثث الماشية، والتي خرجتُ من كل منعطف وشارع وزقاق، تلتقي عند باب المعظم لتشكل جيشًا من الجثث يتجه نحو شارع الرشيد مجتازه إياه نحو ساحة التحرير.

كان فجرًا بغداديًا غامضًا، فجرًا لم يتبين فيه الخيط الأبيض عن الأسود. لا ضوء النهار يزحف

لينير الكون الأرضي ولا عتمة الليل ترحل، وكأن  
الزمن قد توقف والشمس أجّلت ظهورها،  
فالظلام لا يرغب في المغادرة، والضوء الحلبيبي  
الأبيض يتردّد في الزحف على سماء البلاد.  
هكذا تجمّد الزمن، فلا هو يبشر بقدوم  
النهار ولا الليل قد غادر، لكن الزمن لن يتوقف  
في بغداد.

\*\*\*

في باب المعظم كان حارس المشرحة آدم  
والصبي آدم الصغير، الذي بقيّ وحده بعد أن  
هربت جدته مع بقية الجثث من المشرحة، يقفان  
كالغرياء في هذا العالم الغامض.  
هل أنت متأكد من إنني ميت أيها الصغير  
آدم؟

ارتبك الصبي- الجثة، آدم الصغير، وقال  
بعفوية وببراءة:

لا أدري.. سمعتهم يقولون عنك ذلك..!

صمت آدم الحارس للحظات وقال:

وكيف نتأكد من ذلك؟

لا أعرف كيف..!

انتبه آدم الحارس كيف أن الفجر قد بدأ  
يجرف شيئاً من ضفة الليل، وأن هناك انكشاف

للضوء الأبيض بدأ يلوّن فضاء بغداد المعتم،  
فبدتْ بناية المشرحة كبيت للأشباح. وصارتْ  
حركة الحشود البطيئة والمريبة أكثر وضوحًا.

وعلى الرغم من أن الحارس آدم كان يمشي  
إلى جانب جثة الصبي آدم الصغير، إلا إنه كان  
غارقاً في تأملاته، وكان يسأل نفسه: «لماذا  
تهرب الجثث من المشرحة..؟ أتخاف من أن  
تتوغل في رحلة الموت..؟ أتخاف مما سيأتي  
بعد الدفن في القبور؟ وكيف ستعيش هذه  
الجثث..؟ هل تتحرك بالروح أو بدونها..؟ وكيف  
له أن يتأكد من نفسه.. هل هو حي أو ميت..؟».

كانت تباشير الفجر قد بدأتْ ملامحها  
واضحة في السماء، ومع انبلاج الخيط الأبيض  
عن الخيط الأسود، رأى الحارس آدم كيف أن  
الحياة الميتة بدأتْ تدبّ في بغداد..

كانتْ الشوارع والأزقة لا تكف عن رقد المدينة  
بالجثث الحية الهاربة. وكان هو قد شاهد الكثير  
منها في قاعة الثلاجات، بل إنه عرف بعضها  
حين مرت من أمامه، وكان متأكدًا من موتها، كان  
متأكدًا من أن أغلب المشين ليسوا سوى جثثٍ  
تتحرك، لكنه لم يكن متأكدًا من شيء واحد، هل  
هو جثة أيضًا..؟ حي أو ميت..؟

أخذ بيد الصبي آدم الصغير قائلاً له:  
- عليّ أن أعرف هل أنا ميت أم حي؟ لكن  
كيف لي أن أعرف ذلك؟  
نظرت جثة الصبي آدم الصغير إلى آدم  
الحارس نظرة مليئة بالطيبة والحزن والشفقة،  
وقالت وكأنها تخاطب طفلاً بعمرها:  
لا أعرف كيف ستتأكد من ذلك يا آدم..؟! أنا  
لا أستطيع أن أجيبك هل أنت حي أم ميت؟  
من يستطيع أن يجيبني إذن؟  
لا أحد..

كيف لا أحد؟ لا بد أن يأتي أحد ليقول لي  
الحقيقة؟

نظرت جثة الصبي إليه بحزن وقالت:  
أية حقيقة يا آدم؟ لا أحد سيأتي ليقول لك  
الحقيقة.

كانا يقفان على الرصيف الجانبي حين مرت  
حشود الجثث من أمامهما. انتبه آدم الحارس إلى  
بعض الجثث السائرة ضمن الحشود، وكانت قريبة  
منهما، عرفها، فسبق له أن رآها في ثلاث حفاضات  
الجثث، لكن تلك الجثث لم تعره اهتماماً وكأنه غير  
موجود، فنظراتها التائه لا تراه.

ما أثار استغراب آدم الحارس إن الحياة كانت

طبيعية، فقد انتبه إلى جثة تجلس على كرسي،  
وأمامه حامل خشبي يعرض عليه الصحف التي  
وصلت قبل قليل من المطابع. وقرأ منشيات  
عريضة متشابهة كلها ذات مضمون واحد:  
«هروب مئات الجثث من «مشرحة بغداد».

«زومبي بغداد: سنتصدى للمخربين والعملاء  
الذين اسيقظوا من قبورهم..»  
«وباء غريب يجتاح البلاد.. جثث تستيقظ من  
موتها وتريد تخريب البلاد...».

لم يفهم آدم الحارس ما يجري، وحين التفت  
إلى حشود الجثث التي تتجه عبر شارع المدينة  
الرئيسي، أدرك بأن ثمة شيء غير عادي يجري  
في المدينة، ولكنه كان في حيرة سؤال موته.  
انتبه إلى آدم الصبي وهو يهز كفه وكأنه يريد  
إثارة انتباهه. حيث نظر إلى الصبي - الجثة رأى  
علامات الخوف مرتسمة على وجهه، وانتبه إلى  
إنه يشر إلى جهة ساحة الميدان المقابلة للمكان  
الذي يقف عنده.

هاله ما رأى وشعر بصدمة مرعبة، فقد كانت  
هناك قطعان من الجرذان الكبيرة الحجم تزحف  
ببطء كقطيع من الغنم. جرذان كبيرة الحجم،  
تكشف عن نواجذها القاطعة متبخثرة بالشعيرات

التي تشكل شاربها. جردان بشرية، لأن القطيع كان يسير مثل بقية حشود الجثث.

كانت الجردان الكبيرة تزحف نحو وسط ساحة الميدان، ثم انعطفت باتجاه الشارع الرئيس. فجأة توقف طابور الجثث السائرة ليفسح للجردان الكبيرة الحجم المجال كي تنتظم ضمن الطابور وتسير مع حشد الجثث، حيث يتقدمها طابور الجثث ويتأخر عنها من الخلف طابور الجثث أيضاً.

من هؤلاء يا آدم؟ لماذا هذه الجردان كبيرة الحجم وكأنها خرفان تمشي؟ سأل الصبي آدم الصغير بصوت مليء بالخوف.

لا أعرف؟ أنا أيضاً أرى، لأول مرة، جردان بهذا الحجم، لكنها كما يبدو ليست جردان..! ربما هم بشر جردان..! أجاب آدم الحارس.

لا.. هي جردان.. أنا أعرف الجردان.. رأيت منها بين سقوف بيت جدتي. هي أكبر من الفأر بقليل لكن ليست كهذه التي وكأن واحدها خروف يمشي..!

صحيح.. لذلك أقول لك هي ليست جردان.. هي بشر.. بشر خرجوا من تحت مجاري المدينة في هيئة جردان.. جردان كبيرة مخيفة..!

أنا أخاف منها.. قال الصبي.  
لا تخف.. نحن يجب أن نتجنبها فيمكن أن  
تهجم علينا..! ثم أنها كما يبدو تمشي بانتظام  
وكأنها متدربة على ذلك.  
تشبث الصبي آدم الحارس بكف آدم الحارس  
بقوة.

أخذ آدم الحارس والصبي آدم يمشيان بموازة  
الحشد الذي يسير في وسط الشارع وفي الاتجاه  
نفسه. واستغرب ضخامة هذا العدد من الجثث  
التي انتظمت لتمشي في اتجاه واحد، وسأل  
نفسه: «إلى أين يتجه حشد الجثث الهاربة في  
هذا الفجر الغامض؟ أمن المعقول إن كل هذه  
الجثث كانت في المشرحة حيث كنت أحرسهم؟  
أم هي من الجثث التي كانت في الطابق الأعلى  
والتي لم أعرف عددها؟ فمنذ أن غادرت المشرحة  
وأنا أرى جموع الجثث تأتي من كل شارع  
ومنعطف! أترى إن الحياة والموت صارا شيئاً  
واحداً في بغداد، بل وانتصر الموت، فكل الناس  
هي جثث تمشي لا أكثر؟ ثم من أين جاءت هذه  
الجرذان الكبيرة الحجم كقطيع من الغنم؟ ولماذا  
بدت وكأنها تفهم واجبها حيث انتظمت في  
طابور الجثث؟ أهي جثث متحولة أم هي جرذان



تفهم معنى خروج كل هذه الجثث في هذا الفجر لتتجه في الشارع الرئيسي نحو هدف مجهول؟ ولماذا كل هذا الخوف والتبجيل لهذه الجرذان بحيث توقف الحشد عن المسير الأبله ليفسح لها المجال بأن تنتظم في الطابور؟.

كانت حيرته تزداد كلما توغل في الشارع ماشياً وهو يمسك بيد جثة الصبي آدم الصغير، لكنه حين وصل منطقة الحيدرخانة توقف مستغرباً حينما قرأ لوحة كبيرة على الجهة المقابلة مكتوب عليها: «فندق باب السماء». لم يفهم وجود مثل هذا الفندق، فهو يغادر المشرحة صباح كل جمعة ليزور شارع الكتب الذي هو في مقابل منطقة الحيدرخانة، لكنه لم يرَ هذا الفندق سابقاً.

فجأة حصلت فوضى وحركة غير منتظمة. فما إن وصلت الجثث الهاربة من المشرحة إلى شارع المتتبي الذي يتفرع عن الشارع العام، حتى هربت العديد من الجرذان وخرجت عن الصف واتجهت بتهور نحو شارع الكتب الشهير وأخذت تقتحم المكتبات التي كانت مغلقة في ذلك الوقت. لكن تلك الجرذان الكبيرة الحجم كالماشية كانت تقضم الأقفال، وتقضم بوابات

الألمنيوم ثم تدخل لتقضم الكتب.  
آدم الحارس يحب هذا الشارع إذ كان يأتيه كل  
جمعة، لكنه الآن يخاف الدخول إليه، فهذه  
الجرذان شرسة ويمكنها أن تنقض عليه وعلى  
الصبي آدم الصغير، وتلتهمهما ولا تبقي منهما  
شيئاً.

توقف الحشد عن السير وكأنه ينتظر الجرذان  
التي غادرت المسيرة. ولم يستغرق الأمر كثيراً،  
فما أن رأت بقية الجرذان ما قامت به تلك  
الجرذان التي اقتحمت الشارع حتى هاجت  
وتوجهت كلها في فوضى عارمة، فصعدت بعض  
الجرذان إلى الطابق الأول لتلك المباني.  
لم يمض وقت كثير حتى أخذت الجرذان  
ترجع إلى مكانها لتتنظم مرة أخرى في المسيرة  
المنظمة. و

خلال دقائق لم يبق كتاب في المكتبات إلا  
وقد تم قضم أوراقه، بل إن الجرذان الضخمة  
كالنعاج قضمت الحديد والألمنيوم والزجاج الذي  
كان يشكل أبواب تلك المكتبات..!.  
وواصل الحشد مسيرته.

حين وصلت مسيرة الجثث إلى الساحة التي  
يتوسطها تمثال لشاعر معروف بمعارضته

للأنظمة الحاكمة في النصف الأول من القرن الماضي، توقفت. مشى القسم الأول الذي يسبق حشد الجرذان مواصلاً السير في الشارع الرئيس، بينما توقفت الجرذان في الساحة وتوزعت في حركة منتظمة، إذ رأت على الجسر القريب الذي على جهة اليمين مجموعة من الجثث الشابة التي تغطي وجوهها بكمامات، لكنها تتحرك بنشاط وتتمرد في مواجهة حشود من الجثث المدججة بالأسلحة والمُقنعة.

فجأة، وبلا توقع من آدم الحارس والصبي الجثة آدم الصغير، هجمت الجرذان على الجثث المتمردة والتي تتجمع عند بداية الجسر.

من رعبه هرب آدم الحارس وهو يمسك بيد الصبي آدم. ولم يكن أمامه سوى أن يهرب راجعاً إلى الورا، ومنعطفًا في شارع المتبني الذي كانت العديد من الكتب، مقضومة ومنهوشة وممزقة، تغطي أرضيته على امتداده وصولاً إلى سوق السراي والقشلة.

ظلا يمشيان. انتبه آدم الحارس إلى عويل ونحيب وبكاء ومتداخل وأنين يملأ الشارع، لكنه لم يَرَ أحداً، إذ كان الشارع فارغاً.

من يبكي هنا؟

سأل الصبي الجثة وهو خائف؟  
لا أدري..ربما هم الكتاب والشعراء والمُفكرين  
الذي تم قضمهم ونهشهم..أقصد قضم ونهش  
كتبهم..!

استغرب الصبي آدم الصغير سأل:  
لكني لا أرى أحداً..  
فقال له آدم الحارس:  
طبعاً أنت لا تراهم أيها الصغير. لا أقصدهم  
بأجسادهم موجودين وإنما هم موجودون من خلال  
أفكارهم وقصائدهم ورواياتهم..  
لكني لا أراهم.. ولا أرى أفكارهم وقصائدهم  
ورواياتهم..! هل هي التي تنن وتبكي وتولول..؟!  
لا أدري كيف أفهمك.. دعنا نمضي الآن..!  
وواصل السير في شارع المتبني لكن آدم  
الحارس توقف فجأة حين وجد مخرجاً جانبياً  
يقود إلى ساحة صغيرة تتوزع فيها المكتبات  
فدخلها وهو يسحب الصبي آدم من يده.  
وقف حائراً، إذ بدا له إن الجرذان المتوحشة  
الكبيرة الحجم كالخرفان لم تقتحم هذا المكان،  
حتى الصبي آدم الصغير انتبه لذلك فقال:  
هنا لا توجد كُتب ممزقة تبكي وتتوح..!  
نظر آدم الحارس إليه مؤيداً ما قاله ثم عقب:

نعم صحيح.. يبدو أنهم لم ينتبهوا إلى هذا  
المنعطف الجانبي.

\*\*\*

هل سمعتم..؟ أسمع وقع خطى وحديًا بين  
شخصين؟

قالت الفتاة العشرينية الشاحبة لمن معها في  
ذلك النفق المعتم الذي يبدأ من مكتبة منزوية لم  
تصل الجرذان إليها بعد يقع في زاوية مخفية  
من الباحة الجانبية التي يقف آدم الحارس و آدم  
الصغير في وسطها. فجاء الجواب من صوت  
رجالي سائلًا:

هل هم من الجرذان المتوحشة؟ أو من حشد  
الجثث الهاربة المطيعة..؟ أم من زومبي بغداد؟  
فأجابت الفتاة العشرينية:

لا أعرف.. إنهم بعيدون عن النفق.. لم أستطع  
أن أتحقق منهم، ولم أتبين ما قالوا.

\*\*\*

وبينما كان آدم الحارس والصبي آدم الصغير  
واقفين في وسط تلك الباحة سمعا ضجيجًا  
وجلبة تأتي من وسط الشارع، وحين التفت آدم  
الحارس إلى مدخل الباحة المطلة على الشارع  
رأى بعضا من قطعان الجرذان الكبيرة تجري

نحو نهاية الشارع، فأسرع هو بالاختباء.  
لحظتها انتبه إلى زاوية معتمة محصورة في  
جانب الجدار وإلى القرب من مكتبة مغلقة،  
فظنها مكب نفايات، لكن خوفه من الجرذان  
الوحشية المفترسة، وأثناء جريه إلى تلك الزاوية  
سمع أصوات بشرية تأتي من جهة الشارع: «هيا  
بنا نحاصرهم من جهة سوق السراي، وننقض  
عليهم، ونفترسهم».

شعر بالرعب حين أدرك إن هذه الجرذان  
الهائلة الحجم تتحدث كالبشر. هرع مسرعًا وهو  
يجر الصبي معه نحو تلك الزاوية ليتوارى عن  
أنظار الجرذان الوحشية إذا ما دخلت إلى هذه  
الباحة.

حين صار عند مدخل تلك الزاوية شبه  
المعتمة فوجئ، فالمكان ليس مجرد زاوية مهملة  
قد تستخدم كمكب للنفايات، وإنما هي مدخل  
لنفق لا يعرف إلى أين يقود، كما شعر بالصدمة  
المخيفة حينما انتبه لوجود فتاة عشرةينة تجلس  
القرفصاء عند مدخل ذلك النفق.

لم يكن بالإمكان للناظر إلى تلك الزاوية  
المهملة رؤية الفتاة للناظر إلا لمن يكون عند  
مدخل تلك الزاوية بالتحديد. انتبه إلى أنها

كانت مرعوبة أيضًا، ومن خلال الهمس الذي تنهى إلى سمعه عرف أنها ليست وحدها في ذلك النفق المظلم.

في تلك اللحظة سمع ضجيجًا خلفه في الباحة، وارتعب حين رأى أحد الجرذان يتشمم قفل إحدى المكتبات المطلة واجهاتها على الباحة، وبدأ يقضم القفل الضخم الذي يسد سياجها الحديدي الذي يحفظ مدخلها.

في تلك اللحظة اندفع آدم الحارس مع الصبي آدم الصغير إلى داخل النفق، حتى كاد أن يسقط على الفتاة الجالسة في بدايته.

لم يكن آدم الحارس يرى شيئًا فقد كان الظلام دامسًا:

من أنت؟

سمع صوت فتاة فعرف أنه صوت الفتاة الجالسة في المدخل والتي تماهى وجودها في أعماق الظلام الآن.

أنا آدم الحارس.. حارس مشرحة بغداد..! سُمعت همهمة فيها استغراب وتساؤل وخوف لكائنات غير مرئية، لكنه عرف أنهم مجموعة من المختبئين في هذه الزاوية النفق.

مشرحة بغداد؟ وهذا الصبي..؟

جاء الصوت الأنثوي سائلاً .  
إنه صبي تركته جدته وهربت من المشرحة ..  
الجميع هربوا ولم يبق سوانا .. أنا وهو ..!  
ولماذا أنت هنا؟ سألته الفتاة .  
صمت آدم الحارس للحظات وكان متردداً في  
أن يجيب بوضوح، لكنه أحس بضرورة أن يجيب  
بالتفصيل:

لا أعرف. كل الذين هربوا من المشرحة  
رأيتهم يزحفون في الشوارع باتجاه ساحة التحرير  
في حشود منتظمة، كما رأيت حشداً من الجرذان  
الشرسة الهائلة الحجم كقطيع من الخرفان،  
ورأيتهما تهجم على شارع المتبني وتقضم الأقفال  
الحديدية وتخرق أبواب الصفيح وأسيجة الحديد  
التي تسور أبواب تلك المكتاب وتقضم الكتب  
وتتهشها. هربنا منها، كما رأيتهم يهجمون على  
بعض الشباب المتمردين على الجسر القريب ..  
فهربنا ورجعنا إلى شارع المتبني، وها أنا أرى  
أحد تلك الجرذان الهائلة الحجم هنا في الباحة،  
لكنه لم يرنا .. فلجأت إليكم ..! . من أنتم ..؟!

أدخل أولاً، كي لا يراك الجرذ الهائل فيهمجم  
علينا كلنا ويمزقنا ..! قالت له الفتاة العشرينية .  
ودخل آدم الحارس مع الصبي آدم إلى عمق



النفق وغاب معهم في العتمة.  
كان الظلام كثيفاً. والروائح كريهة، فالجيفة  
تزكم الهواء، لكن لا أحد من المختفين داخل  
النفق تحسس منها. بل كان الهواء كله في بغداد  
فاسداً من جيفة الجثث الهاربة. بيد إن الجثث  
الحية لا تشم الجيفة ولا تتحسس منها، فهي  
جزء من رائحتها.

من أنتم؟ هل أنتم هاريون من المشرحة  
أيضاً؟ سأل آدم الحارس.

لم يجبه أحد. أرتاب قليلاً. وأحس بكف  
الصبي وهي ترتجف تضغط على كفه في العتمة.  
فأعاد السؤال بصوت فيه توجس واضح:

من أنتم؟ أنتم هاريون أيضاً من المشرحة؟  
وإذا كنتم كذلك فلماذا تختبئون هنا في هذا  
النفق المظلم؟ ولستم مع حشود الجثث الهاربة  
من مشرحة بغداد والسائرة نحو ساحة التحرير..!  
امتدت لحظات صمت وتوتر، ثم جاء صوت  
الأنثى قائلاً:

لا.. نحن لم نهرب من المشرحة.. إنما نحن  
موتى بلا قبور.. رفضنا الموت.. لم يعد الموت  
ممكناً.. نريد وطناً لنا.

لم يفهم آدم الحارس شيئاً مما قالتها، فسأل

وهو لا يعرف أين تجلس هي لأن الظلام يعم كل شيء:

يعني أنتم مثل هؤلاء الزاحفين في الشوارع..؟  
سأل آدم الحارس.

لا.. هؤلاء زومبي بغداد.. بينما نحن موتى بلا  
قبور.. أعلننا ثورة الموتى..! جاء صوت الفتاة.  
وهؤلاء الشباب الذين رأيتهم فوق الجسر؟ من  
هم؟ هل تعرفونهم؟

هؤلاء الشباب أيضا موتى بلا قبور..؟  
ولكن ما معنى موتى بلا قبور؟

كان آدم يسأل في تلك العتمة والصوت الأنثوي  
يجيبه، لكنه لم يكن متأكدًا بالكامل من وجود  
آخرين، فلا أحد منهم تحدث معه أو علق بكلمة  
وأنا ثمة أنفاس ظن أنها لأشخاص غارقين في  
الظلام. فجأة جاء صوت ذكوري، صحح له  
ظنونه، إذ سمع الصوت يأتيه:

يعني نحن قُتلنا ورميت جثتنا في المزابل  
على أطراف المدينة، أو أُلقيت في الأنهار أو  
تركت تتعفن في الزنانات. أو حشرنا في حفر  
جماعية لا يمكن أن تسمى قبورًا في كل الأحوال..!  
ومتى قُتلتم..؟

وهل هذا يفرق في بلاد الظلمات هذه التي

تسمى العراق؟ القتل المجاني دائم ومستمر.. إنه قانون هذه البلاد وقدرها المشؤوم.. بعضنا قُتل في زمن النظام السابق وبعضنا من ضحايا الزمن ما بعد الاحتلال..!

صمت آدم الحارس للحظات ثم سأل:  
ألم تكونوا يوماً ما في المشرحة؟ مشرحة بغداد..!

فأجابه الصوت الأنثوي:  
لا.. هذه الحشود التي تراها تزحف في الشوارع هي التي هربت من المشرحة..!  
أنا كنت حارسها.. أنا آدم حارس مشرحة بغداد..

إذن أنت جثة هاربة أيضاً..؟ قال الصوت الأنثوي.

لا.. أنا حارس المشرحة.. كل الجثث هربت من المشرحة ولم يبق سواي وهذا الصبي آدم الصغير.. فغادرنا المشرحة.. أنا لست جثة هاربة..! أجاب بنبرة احتجاج هامس.

لا يمكن للأحياء أن يعيشوا بين الجثث إلا إذا كانوا جثثاً أيضاً. جاء الصوت الذكوري.

شخصياً لا أعرف إن كنت ميتاً أم حي، فها أنا أتحدث معكم.. لكن كيف تتحدثون معي إذا كنتم

موتى ..؟.. قال آدم الحارس .  
ومن قال لك بأن الموتى لا يتحدثون؟ جاء  
صوت ذكوري بدا أبعد من الصوتين اللذين كانا  
يحدثانه .

أهذا يعني إنني جثة أيضًا؟ سأل بنبرة خائفة .  
عليك أن تعرف ذلك بنفسك؟ جاء رد الصوت  
الأنثوي .

وهذا الصبي هل هو جثة أيضًا؟ رأيناه معك  
حين جئت إلى النفق...! سأل الصوت الذكوري  
القريب .

هو جثة.. حية.. قتل في انفجار سيارة  
ملغومة. وكان حينها مع جدته التي هربت من  
المشرحة لتواصل انتقامها...!. قال آدم الحارس .  
في تلك اللحظة سُمعت ضجة في الباحة  
القريبة. والتفت آدم الحارس إلى جهة الضجيج  
فرأى بضعة من الجرذان الكبيرة وهي تتشمم  
المكان. فاندفع من شدة خوفه إلى الداخل،  
فوجد نفسه يرتطم بموجة كثيفة وقوية وغير  
مرئية في العتمة، موجة تشبه أمواج البحر  
العاتية .

اندفعوا كلهم، خوفًا، إلى أعماق النفق. وسُمع  
صوت أشبه بسقوط في نهر أو في لجة عميقة .

ومن شدة اندفاع آدم الحارس خوفًا وجد نفسه، وهو يمسك بيد الصبي، يهوي أيضًا في تلك اللجة المظلمة.

كان اللجة هي مجرى للمياه الغريبة، مجهولة المصدر. مياه مظلمة. تجري في نفق مظلم. كان الظلام شديدًا.

فلتت يد الصبي آدم الصغير من يد آدم الحارس، لذا أخذ كالمجنون يبحث بذراعيه فيما حوله. كان الظلام كثيفًا ودامسًا، كل شيء مظلم وأسود، اللجة سوداء ومظلمة، والنفق مظلم وبلا ملامح.

وفي لجة تلك المياه المظلمة طخت يده جسدًا، فعرف أنه الصبي، فمسك بذراعه ورفعته إلى الأعلى كي يتنفس، ثم بسرعة حمله على ظهره. انتبه أن الصبي كان يستنشق الهواء الفاسد بعمق.

وأخذ يسير في تلك اللجة المظلمة بصعوبة. كان صوت صوت وقع أقدام الآخرين في تلك اللجة يصله، كما سمع مناداتهم بعضهم لبعض بأن يتماسكو أو يتأكدوا من سلامة أجسادهم الميتة.

كانوا يسرون في تلك اللجة المظلمة الغامضة

أو ذلك الجدول الأسود، أو تلك الساقية المظلمة، فهم لا يرون شيئاً ولا يعرفون شيئاً مما يجري، وكيف أنهم سقطوا في منخفض غامض وكأن هناك ساقية أو نهراً أو مجرىً مائياً أسوداً. فالظلام يعم كل شيء. لكنهم لم يروا شيئاً، لذا ليس بمقدورهم أن يعرفوا ما جرى، وأين هم، وما هي طبيعة هذه المياة التي يخوضونها...؟!.

كان آدم الحارس يسير. وهو يحمل الصبي على ظهره. لم يكن يشعر إن كانت المسافة طويلة أم قصيرة ولا كم مضى من الوقت وهو يمشي في ذلك النفق المظلم، فالإحساس بالزمن معدوم.

وفجأة، وجد نفسه يسير على أرض صلبة، جافة، واختفت المياه. لم يكن يشعر إن كان قد تجاوز المياه وخرج من لجّتها، وإنما اختفى كل شيء في رمشة عين، ووجد نفسه يسير على أرض صلبة، حتى ظن أنه يحلم.. لا، فهو منذ شهور لا يحلم. الموتى لا يحلمون.

اختفت الأحلام، فهو في يقظة دائمة. وسأل نفسه: «هل لأنني ميت حي فقد صرت لا أحلم؟ هل لأنني ميت لذا فأنا لا أنام..؟ الموتى لا ينامون.. والموتى لا يحلمون!

لكن من قال: «إنني ميت؟».

ظل يسير ويسير، وكأن النفق لا نهاية له، لكن فجأة، بدا له من بعيد ثمة ضوء شاحب يغطي مساحة من النفق. انتبه إلى أن الأشخاص الذين معه كانوا ثلاثة، فتاة ورجل فتى وآخر مسن نوعاً ما، فهو يراهم من الخلف وهم يمشون أمامه، لكن وعلى غير توقع منه اختفوا من أمام عينيه، وكأنهم دخلوا بعداً زمنياً آخر، وتذكر أنه شاهد الكثير من الأفلام العلمية التي تتحدث عن دخول أبطال تلك الأفلام إلى بعد آخر للزمان.

فجأة أنزل الصبي آدم الصغير من على ظهره. ومسك بيده واتجه إلى حيث بقعة الضوء الشاحب. لم يكن يتبين أي شيئاً من معالم المكان المظلم. هو يدري بأنه في نفق مظلم لكنه نفق غامض، فقد سقط في لجة من المياه المظلمة لكن اختفى كل شيء ولم يكن مبتلاً.. وكان معه مجموعة من الجثث الهاربة التي قالت عن نفسها إنها موتى بلا قبور، وهؤلاء اختفوا في بعد آخر من الزمان والوجود.

حين وصل إلى تلك البقعة المضاءة تلفت يميناً ويساراً، إلى الأمام وإلى الخلف، فلم يتبين شيئاً، فكل شيء غارق في الظلام. ظلام دامس

كثيف، لذا لم يعرف أين هو، سوى أنه كان في شارع المتبني وانعطف إلى باحة جانبية واختفى في النفق، ووجد نفسه في اللا مكان.

أين نحن يا آدم؟

سأل الصبي آدم الصغير. وقبل أن يجيب آدم الحارس جاء صوت مفاجئ من العتمة:

نحن في النفق المظلم.. في اللامكان.

كان صوت الفتاة العشرينية التي كانت تجلس في العتمة. فوجئ آدم الحارس بوجودها لأنه رأى كيف اختفى الثلاثة أمام عينيه وهم يخترقون جدار البعد الآخر للزمكان.

ماذا تقصدين باللا مكان؟. سأل آدم الحارس.  
أقصد إنه مكان لا مكان، أي مكان لا خصوصية فيه كمكان، فنحن هنا مثلاً في نفق مظلم غامض لا بداية له ولا نهاية، ولا نعرف هل هو فوق أم تحت؟ فهو أشبه بالمقابر الجماعية لا خصوصية للموتى فيها، لا قبور خاصة بهم..! مثلما كنا نحن الثلاثة..! لا قبر خاص بنا.. أهدنا كان في قبر جماعي وآخر ألقى في مكب نفايات خارج المدينة وأنا كنت مقتولة وملقاة في ما يشبه الكهف..! لا قبور لنا.. كنا في اللا مكان.. وها نحن الآن في اللا مكان..!



لم يفهم الصبي آدم الصغير ما قالتها المرأة  
عن معنى اللامكان، لكن آدم الحارس قال سائلاً:  
ظننتكِ حين تحدثِ عن اللامكان كنتِ  
تقصدين اللا وجود..! أي غياب الأبعاد الرياضية  
كالطول والعرض والارتفاع والعمق..! اللامكان  
الذي سبق مكاننا الوجودي الفيزيائي، سبق  
الوجود وكل هذه السماوات والمجرات..!  
ابتسمت الفتاة، لكن ابتسامتها بدت شاحبة  
وغير واضحة في تلك العتمة اللامعة، وقالت:  
غريب أمركِ أيتها الجثة الناطقة..! أنت جثة  
لكنكِ تتفلسف..?  
أنا لستُ جثة.. أنا آدم الحارس.. حارس  
مشرحة بغداد..?  
ردت الفتاة مؤكدة:  
بلى يا آدم الحارس.. أنت جثة مثلنا، وإلا لما  
استطعت أن تكون معنا..!  
فجأة قال الصبي آدم الصغير:  
أنا قلت له إنه ميت.. لأن جدتي وبقية النساء  
قلن إنه ميت، لكنه لا يعلم بأنه ميت أم حي،  
وينتظر من يقول له الحقيقة..!  
إنكِ ميت حي، مثلنا يا آدم..! جاء صوت  
ذكوري أجش لرجل لم تتضح ملامحه لأنه في

العتمة الكثيفة.

صمت آدم الحارس للحظات، وقبل أن يقول شيئاً قال أحدهم:

الرائحة.. الرائحة.. هذا ما يميز صفة الميت عن الحي..! قال صوت الرجل الآخر.  
لم أفهم..؟! قال آدم الحارس مستغرباً.  
انبرت المرأة لتوضح له:

لكل شيء رائحة.. للموت رائحة وللحياة رائحة، للحب رائحة وللكرهية رائحة، للتسامح رائحة وللتعصب رائحة، نعم.. العطر رائحة والجيفة رائحة. والآن علينا أن نمضي.  
إلى أين..؟ سأل آدم الحارس.

إلى اللا أين..!

صمت آدم الحارس للحظات ثم قال:  
وهل اللا أين هو مكان؟

لم يأتته أي جواب من الأشخاص الثلاثة الغارقين في الظلام. انتظر للحظات منتظراً الجواب على سؤاله، لكن لم يأتته أي جواب. شك في أن لا أحد موجود، فقال للصبي:

يا آدم الصغير.. هل سمعتني أتحدث مع أحد؟

نعم.. قال الصبي مؤكداً.

وهل سمعت أجوبتهم؟  
لا..كنت تكلم نفسك.. حتى إني خفت منك..!  
هل أنت متأكد من أنه لا أحد كلمني وقال  
شيئاً عن الرائحة..!  
أبدًا.

وحين دخلنا النفق، هل رأيت أشخاص في  
بداية النفق.. هل رأيت فتاة ورجلين؟  
لا..كنا وحدنا..

ألم يسألني أحد..؟ ألم تسمعي أتحدث مع  
أناس كانوا خائفين ومخترفين في النفق؟  
لا.. لم يكن ثمة أحد.. لكنك كنت تتحدث  
وكأنك تحاور شخصاً ما..!

دعنا نمضي.. لنخرج من هذا النفق. لنذهب  
إلى بقعة الضوء البعيدة تلك.

مسك آدم الحارس بكف الصبي آدم الصغير  
وتوجهها بسرعة إلى بقعة الضوء الشاحبة التاي  
اختفت فجأة. واصلوا مشيهم مخترفين في  
الظلام.

مشيا طويلاً، حتى بدا لهم النفق بلا نهاية.  
ولم يعرف آدم الحارس أي شيء عن هذا المكان  
اللامكان.. فهو يعرف بغداد جيداً لكنه لا يعرف

أن هناك نفقًا يبدأ من شارع المتتبي ويمضي من دون نهاية إلى المجهول، بل لم يعرف بأن في بغداد أنفاق تحت الأرض...!

فجأة.. لمح ضوء ضعيفًا مرة أخرة، يبعد مسافة ليست بالقليلة عنهما. مشى نحو الضوء وهو ممسك بيد الصبي. لم يستطع أن يرى شيئًا في تلك الظلمة. لم يكن يرى ما أمامه أو يحيطه بل ولولا معرفته بأنه يمسك بكف آدم الصغير الذي غادر المشرحة معه لما أيقن بوجود الصبي معه، فهو في لجة الظلام والعماء الذي يعيد لذاكرته النص التوراتي عن الظلام الذي كان يسبق النور، أو الظلام الكوني والمادة المظلمة التي يتحدث عنه علماء الفضاء.

كان كلما يقترب بمعية الصبي نحو الضوء يكتشف أن تلك البقعة الضوئية تتلألأ. واستغرب وجود الضوء في ذلك النفق المظلم. وسأل نفسه: «من تراه جاء بهذا الضوء؟». وحين صار على مقربة من الضوء اكتشف أنه فانوس تركه أحدهم في كوة جانبية محضرة على جدار النفق. وكانت ذبالة فتيل الفانوس تكاد تتطفي، لكنها مع ذلك تمنح ما حولها ضوءً شاحبًا.

كان الفانوس الغامض في كوة جانبية واسعه

نوعاً ما تكفي لاحتواء أشخاص عدة. مسك آدم الحارس بالفانوس باليد الحرة. وقربه من وجه الصبي آدم الصغير. رفع الصبي آدم رأسه إليه، واكتشف آدم الحارس وجه الصبي الجامد ونظراته الباردة. لكنه تأكد من أنه موجود وليس وهمًا أيضًا.

لَمَّا هم بمواصلة السير في النفق سمع همهمة دبيب أقدام مقبلة من الجهة التي أمامه. وعيون كالفسفور تأتي من بعيد.

ارتعب ودخل مع الصبي إلى داخل الكوة الواسعة التي كانت تخفي خلفها ما يشبه المخزن. وضع الفانوس في مكانه السابق واختفى في المكان المظلم خلف جدار الكوة.

كانت وقع الأقدام والأصوات الغريبة تقترب من المكان الذي يختبئان فيه. كان يرى البقعة التي أمامه والتي يضيئها الفانوس من دون أن يراه من سيقف أمام الكوة.

فجأة سمع همهمة وصوتًا غير بشري أمام الكوة، وارتعب حين رأى شخصًا يقف أمام الكوة. كانت جثة حية، لكنها تختلف عن الجثث الهاربة من المشرحة. كانت وكأنها خارجة للتو من القبر أو من جاءت كهف فاسد الهواء. فملاحها تائهة،

وفمها مفتوح الشدقين، لكن فجأة، وبعد لحظات، أخذت الجثة تضرب رأسها بجدار الكوة.

ولم تمض سوى لحظات حتى جاءت جثث أخرى تشبهها بالضبط. وكانت الجثث تنظر محدقة في الكوة بنظرات تائهة. تحديق فيها بتركيز لكن بدت وكأنها لا ترى شيئاً.

تذكر آدم الحارس الأفلام الأميركية عن الزومبي التي شاهدها في أقراص مدمجة حينما كان حارساً في المشرحة.

ظل الزومبي للحظات أمام الكوة. وكانا هو والصبي يريان من خلال ضوء الفانوس الشاحب جموع الزومبي تمشي أمامهم في النفق.

فجأة مدّ أحد هؤلاء يده فأخذ الفانوس وحطمه ضارباً إياه بالجدار، فعمّ الظلام الكثيف مرة أخرى، ولم يتبين آدم الحارس من مكانه سوى عيونهم الفسورية المخيفة.

حبس آدم الحارس والصبي أنفاسهما وهما غارقان في عتمة المكان خلف الكوة إلى أن خفت الأصوات وابتعدت جموع الزومبي في أعماق النفق. واختفت نهائياً.

حينها خرج آدم الحارس مع الصبي واتجها في طريقهما خلال ظلام النفق.

(2)

## جثة وحيدة في مشرحة

سار آدم الحارس ومعه الصبي في النفق المظلم. كان لا يعرف أين هما، ولا ما يجري معهما، ولا إلى أين يمضي بهما النفق، لا ولم يعرف كم مضى عليه من الوقت وهو في هذا النفق، فهنا لا معنى للزمان ولا للمكان، لكنه كان يعرف شيئاً واحداً هو أنه في بغداد.

كانا يمضيان في النفق المظلم ولا يشعران إلا بهبوب غيوم مظلمة تجتاحهما. يشعران بضباب أسود يحيط بهما، فلم يكن آدم الحارس يرى شيئاً، بل كان يتوجه بنظره إلى الصبي الصغير فلا يراه، لكن الغيوم السود لا تستمر طويلاً إذ تتقشع وتتلاشى في الظلام أيضاً. ظلام في ظلام.

ظلام .. ظلام .. ظلام .. لا شيء غير الظلام.  
وكانا يمشيان في الظلام.

فجأة لمح أمامه في عمق النفق ضوءاً شاحباً، فعجّل الخطى نحوه وهو يسحب الصبي الصامت

من كفه. وحين وصلا إلى المنطقة المضاءة لمح بابًا حديدًا مقفلًا ولا أثر للرتاج عليه، فكأنه صُب كقطعة صلدة وكجدار حديدي. وثمة لافتة تتكون من قطعة خشبية صغيرة مكتوب عليها بخط عريض «مشرحة بغداد». ويعلو اللافتة مصباح شاحب الضوء بالكاد تتقد أسلاكه الداخليه. انتبه آدم الحارس إلى أن الكتابة قد تقشرت صبغتها، فلم يكن من السهل معرفة ما مكتوب لكنه أدرك الاسم فورًا.

استغرب آدم الحارس وجود «مشرحة بغداد» هنا في النفق، فهو حارس المشرحة، ومبناها كبير كقلعة مظلمة، وتقع في منطقة باب المعظم، فكيف يوجد هنا مكان غريب وغامض ذو باب حديدي لا رتاج له وكأنه جدار صلد، تعلوه لافتة تحمل اسم «مشرحة بغداد».

وقف عند الباب حائرًا. نظر إلى الصبي فوجده شاحبًا جدًّا، ومغمض العينين. حرّر كفه من كف الصبي، وتقدم من الباب فطرقة.

كانت طرقات كفه على الباب تدوي في صمت النفق المظلم البارد. حانت منه التفاتة إلى وجه الصبي آدم الصغير فارعه ما رأى، إذ كان الوجه ليس وجه صبي بريء وأنما وجه كهل مغمض



العينين ومتهدل الجفنين. فز قليلاً، لكن سرعان ما عاد الوجه الصبي المغمض العينين لما كان عليه.

استمر آدم الحارس بالطرق على الباب - الجدار الحديدي، وكاد يوقن بأن لا جدوى من الطرق، وإذ به يسمع صوتًا حزينًا خافتًا يجي خلف الجدار، صوت رجل:

- من هناك؟ من الطارق؟

فرّ آدم الحارس. لم يكفم يتوقع أن يرد عليه أحد.

- أنا.. أنا آدم الحارس؟

- آدم الحارس؟ أنت حارس لأي شيء؟

- أنا آدم حارس مشرحة بغداد..

- أية مشرحة؟ هل أنت تحرسني أنا؟

- لا.. لا... أنا حارس مشرحة بغداد..

- وأنا هنا في مشرحة بغداد..

- لا.. لا.. مشرحة بغداد ليست هنا.. إنها في

باب المعظم.. وهي مبنى كبير وليس غرفة في نفق..!

- لكني أيضًا في مشرحة بغداد..؟ ثم ألا

تدري أن الأوغاد حولوا البلاد إلى مشرحة

كبرى..! أنى اتجهت فثمة مشرحة..!..ظلام..

ظلام.. ظلام..كلنا نمشي في الظلام.  
أحтар آدم الحارس بماذا زكيف يجيبها، لكنه  
وجد نفسه يرد عليها:

- لا..هذا ليس صحيحًا.. أنا حارس مشرحة  
بغداد الوحيد..ولا توجد سوى مشرحة و احدة،  
وهي التي كنتُ أحرسها، وقد هربت كل جثتها  
التي تتجول الآن في بغداد، وكأن بغداد صارت  
مدينة الجثث الحية الهاربة..!

- وهي كذلك..ألا تعرف ذلك؟

- من أنت؟

- أنا آدم الكفيف ..

صمت آدم الحارس.. ووجد في هذه الجثة  
التي تتحدث من خلف الجدار الحديد أنيسًا في  
وحشة النفق المظلم، فجلس القرفصاء عند  
الباب. وسأل:

- هل أنت أعمى فعلاً؟

-لا..لكن روحي عمياء..لديّ عينان كالصقر،  
لكنني تعثرتُ في دروب الحياة، فلم أرَ مطبات  
السلوك البشري، ومصائد الأخلاق المزيفة،  
وفخاخ الكلام العاطفي الجميل، ومنحدرات  
الرغبة التي تقود إلى الهاوية، لذا صار وجودي  
في هذه المشرحة وكأنه مقام استحققه..! هل

أنت جثة حية مثلي؟

صمت آدم الحارس للحظات وقال:

- لا أدري.. الصبي آدم الصغير يقول لي إنني ميت، لكنني لا أعرف إن كنت ميتًا أم حيًا..! إنني في حيرة من أمري..!

- لا تحتار..كلنا موتى.. وإن ظننا بأننا أحياء..! أو نحن أحياء وإن متنا موتا..!

رد آدم الحارس بسرعة وكأنه يقاطعه:

- هذا غير صحيح..كلكم تكذبون عليّ.. أنا حي.. لست ميتًا..

فجاء الصوت حازمًا:

- الموتى لا يكذبون، لاسيما وهم في الظلام..! تتمم آدم الحارس بصوت مسموع:

- ظلام.. ظلام.. ظلام.. كلنا نمشي في الظلام..

- نعم.. جئنا من الظلام ونمضي إلى الظلام. ربما كان ظلامًا أبيض، لكن هنا في أنفاق بغداد هو ظلام معتم وحالك السواد..!

صمت آدم الحارس للحظات وكأنه في حالة جمود. انتبه إلى الصبي آدم الصغير وهو يهز كفه. نظر إليه فبدا خائفًا، لكنه تجاوز حالة الصبي وسأل الجثة التي خلف الباب الحديدي:

من أنت؟ أقصد كيف جئت إلى هنا؟ وهل أنت وحدك أم هناك غيرك في هذا المكان؟  
لم يأت الرد سريعاً، فطرق آدم الحارس الباب الحديد الذي كان يبدو كجدارٍ وسأل:  
لماذا لا تجبني؟ سألتك إن كنت وحدك في هذا المكان؟ وكيف جئت إلى هنا؟ وما هي حكايتك؟

استمر الصمتُ للحظاتٍ أخرى، ثم جاء الصوت حزيناً لكن واضحاً:  
أنا هنا وحدي في هذا المكان الضيق الذي يبدو كحجرة أو ثلاجة للموتى. صحيح إن المكان يحمل اسم «مشرحة بغداد» لكنني مت في بلاد مجاورة للعراق.

ماذا تقول..؟ كيف جئت إلى هنا إذن؟  
أنا عراقي. وقصتي غريبة نوعاً ما. إذا كان لديك الوقت سأرويها لك..

صمت آدم الحارس قليلاً. لم تكن لديه الرغبة الحقيقية لسماع قصة الجثة الغامضة، لكن في الوقت نفسه لم يكن لديه هدف محدد يسعى إليه سوى الخروج من هذا النفق المظلم، وبما إن المكان يضيئه مصباح شاحب الضوء جداً، لذا فضل البقاء قليلاً إلى أن تأخذه الرغبة في

مواصلة السير، لذا أجاب الجثة قائلاً:  
سأستمع لك..  
صمتَ الجثة خلف الباب الحديدي للحظات  
ثم واصلت:  
أن تسمعي خير لك من أن تراني..  
لماذا؟  
لأنك ستفزع عند رؤيتي فأنا جثة متفحمة..  
كيف هذا؟  
نعم.. أنا جثة محروقة..  
لكن من فعل بك ذلك؟ وكيف حدث؟  
زوجتي التي هي حبيبتي أحرقتني وأنا نائم  
في سريري..  
صُدم آدم الحارس عند سماع ذلك وانتابه  
الفضول لمعرفة حكاية هذه الجثة فقال لها:  
يبدو أن حكايتك غامضة ومثيرة. سأجلس هنا  
لأسمع حكايتك..!  
شكرًا لأنك تستمع لي، فلا أحد يهتم  
بحكايتي، والكل يحاول انقاذ نفسه من الشبهات،  
بل والحيرة كانت تتتابهم في كيفية إعادة جثتي  
إلى بغداد.

صمتَ آدم الحارس للحظات مستغربًا، وسأل:  
كلامك غامض وغير مترابط..كيف يعيدون

جثتك إلى بغداد؟ ألسنت الآن في هذا المكان  
الذي يحمل لافتة شبه متأكلة مكتوب عليها:  
«مشرحة بغداد»!..؟ أنت الآن في بغداد!..!

نعم.. هذا صحيح.. لكنني هنا ولست هنا!..!  
لقد متُّ في بلد مجاور..  
لكنك هنا الآن في بغداد..  
كن صبورًا واستمع لحكايتي!..!  
وأنا سأستمع لك!..!

قرفص آدم الحارس عند الباب ساحبًا الصبي  
من ذراعه، فقرفص إلى جانبه. وجاء الصوت من  
وراء الباب الحديدي يروي حكاية الجثة الغامضة:  
التقيتُ بها في اليوم الأول من بدء دراستي  
في الجامعة المستنصرية. رأيتها واقفة بالقرب  
من البوابة الرئيسية. ذهلت لجمالها المثير  
وأناققتها. ومن دون وعي أو إرادة وجدتُ نفسي  
أنشغل بها، وكأن مخدرًا تسرب إلى نفسي، ومن  
دون وعي مني، ولا إراديًا استوقفتها، وبتهور  
وسذاجة سألتها:

هل هذه هي الجامعة المستنصرية!..؟  
نظرتُ إليّ بدهشة واستغراب وكأنها تنظر  
إلى شخص أبله، وقالت:  
ألا تقرأ اللافتة الجدارية الهائلة وما مكتوب

عليها..؟ ألا تعرف إنها الجامعة المستنصرية؟  
ومن دون تردّد قلت لها بنبرة جادة:  
أعرف.. قرأت ذلك..  
ارتسمت ملامح الدهشة على وجهها أكثر مع  
ابتسامة طيبة وقالت:  
إذا كنت تعرف فلماذا تسأل إذن؟  
ومن دون تردّد قلت:  
لأنني أردت أن أتحدث معك، لا أكثر. لم أجد  
سؤالاً غير أن أسالك عن هذا السؤال الساذج..!  
ضحكتُ ضحكة قصيرة طيبة، وقالت:  
أنت غريب الأطوار.. مقبولة منك هذه  
الحجة.. هل أنت طالب جديد؟  
نعم.. وهذا أول يوم لي هنا.. ولا أعرف  
الأماكن جيداً..  
ولي أيضاً، هذا أول يوم أبدء عامي الدراسي  
فيه، لكن يبدو لي أنك لست من أهالي بغداد؟  
نعم.. أنا من بابل..  
تشرفنا.. أطيب الناس أهل بابل..  
وبتهور أكبر قدمتُ نفسي:  
الشرف لي.. أقدم لك نفسي.. آدم الكفيف..  
تشرفنا.. وأنا حواء.. حواء الهندي.. لكن  
غريب لقبك.. الكفيف !! بينما لديك عينان

جميلتان وواسعتان..!

هذا لقبى.زوعيناي تفتحتا وصارتا تبصران  
الآن بعد رؤيتك..!

ابتسمتَ بلطف وفرح، ولم تعلق، لكنها  
أخبرتني أنها تنتظر صديقتها، لكنها بعد دقائق  
قررتَ الدخول، فدخلنا سووية. وهكذا بدأت  
علاقتنا.

لم تكن علاقة وأنا عشق يمكن أن يروى  
كقصص العشق المعروفة في تاريخ الأدب. بمرور  
الوقت صار الجميع في كلية الآداب يعرفون  
قصتنا وعلاقتنا، وكان مثار الغرابة أن يجدوا كل  
منا منفردًا من دون وجود الآخر معه.

كل أصدقائي في مرحلتي الدراسية والمراحل  
الأخرى يعرفون أنها حبيبتي وكذا صديقاتها،  
حتى إن أي فتاة صارت لا تقترب مني ولا أي  
شاب يقترب منها، لأن الجميع يعرف بأنني لها  
وهي لي.

ومرّت السنوات. وانتهت فترة الدراسة  
الجامعية. ولأن عائلتي، وبالتحديد أخوتي، الأكبر  
مني عمرًا، كانوا من المتنفذين في الأحزاب  
الدينية، لذا من خلال علاقاتهم وجدوا لي  
وظيفة في إحدى الوزارات بالعاصمة بغداد.



علاقتنا استمرت، لكن اللقاءات خفت كثيراً، لاسيما وأن أهلها رفضوا أن تتوظف، فصارت جليسة البيت، وصارت تتحجج من أجل الخروج إلى الزوراء أو إلى أحد الأسواق التجارية الكبيرة المعروفة، والتي انتشرت في بغداد. هكذا كنا نلتقي، وهكذا أيضاً اتفقنا على أن أتقدم لها طالباً يدها للزواج.

لا أعرف لماذا رفض أهلها، بل أخذوا يبالغون في طلب المهر وتوفير السكن وتأثيث المنزل، ومتطلبات أخرى مبالغ فيها في نوعية الحلبي وكمية الذهب. وكانت هي تسعى من خلال الحديث مع أمها وأخواتها وأخوتها بأن يتدخلوا في الضغط على الأب لتخفيف شروطه المبالغ فيها.

ومع ذلك وقف أخوتي إلى جانبي بكل ما يملكون من سلطة ومال، وأرسلوا عبر علاقاتهم السياسية شخصيات سياسية ووجوه اجتماعية معروفة للضغط على والدها، وفعلاً نجحوا في ذلك، بشرط ألا تعمل زوجتي وتبقى ربة بيت. وما أسهل هذا الشرط بالنسبة لي فأنا انتمي لعائلة ميسورة الحال بل يمكن القول عائلة غنية، لاسيما بفضل أخوي المتنفذين في الأحزاب

الدينية، حيث تحولاً إلى كبار الأغنياء من أصحاب  
الملايين.

وتزوجنا.

صمتت الجثة خلف الجدار عن سرد حكايتها.  
طالت فترة الصمت. شك آدم الحارس بأنه لم  
يكن هناك من يتحدث أصلاً، وكل ما جرى من  
حوار مجرد تهويمات ورؤى نتيجة الأجواء  
الغامضة للمكان الذي هو فيه، فالتفت إلى  
الصبي وسأل:

قل لي يا آدم.. هل تسمع أحد يتكلم الآن؟

رفع الصبي وجهه الشاحب إليه وقال ببراءة:

لا.. لا أحد يتكلم.. لا أسمع شيئاً.

وهل كنت قبل ذلك تسمع من يتكلم..؟

نعم.. كان أحد يتكلم من خلف هذا الباب،

لكنه سكت الآن..!

اطمئن آدم الحارس بأنه فعلاً كان يتحدث مع  
المدعو آدم الكفيف، ويستمتع لحكايته التي وصلت  
إلى زواجه من حبيبته. ووجد نفسه لا إرادياً يمد  
ذراعاً ويطرق على الباب طرقات خفيفة وهو  
يقول:

لماذا صمتت؟ أكمل حكايتك..!

بعد لحظات واصلت الجثة خلف الباب سرد

حكايتها بصوت حزين:

تزوجنا. لا لم يكن زواجًا بالمفهوم العادي للزواج، وإنما كان امتزاجًا وتماهيًا وتداخلًا لروحين وجسدين. عشنا فردوسنا الأرضي. استمتعنا بروحينا وجسدنا ومشاعرنا. الحنان، والرقّة، والمتعة، والنشوة، والرضا، والتماسك، والاهتمام، الطيبة، الرفق والرحمة، التسامح، والتفهم، وكل ما يجعل علاقات الرجل بالمرأة حلمًا أرضيًا متحققًا في الواقع.

كنا مثل طيور الحب في قفص، بل القفص الذهبي هو تسمية حقيقية لعلاقتنا الزوجية. كانت علاقتنا مثالية، رومانسية، لا ترى مثلها سوى في القصص الخيالية أو الأفلام الهندية، بل كانت أيضًا منفتحة، وصريحة، وإباحية، مارسنا فيها كل ما يفيض به الجسد من متع، محللة أو محرمة، المهم كنا نستمتع بجسدنا، برغبة وشبق جامح..... لكن الحياة لا تمنحنا كل شيء، إذ لا بد من وجود نقص ما، فليست هناك سعادة دائمة ومطلقة، فبكل هذه الكم من السعادة، كانت هناك ثمة غصة في حياتنا السعيدة، إذ اتضح أن زوجتي عاقر...!

وطبعًا، لم نترك طبيبًا أو مستشفى أو مختبر

لم نزره. أنفقنا أموالاً طائلة، لكن من دون جدوى.. لكن هذا الأمر، بعد يأسنا من انجابنا لطفل من صلبنا، صار موضوعاً يُحرم الحديث فيه من قبلنا، لا نقرب منه أبداً.. أصدقائي في العمل صاروا ينادونني «أبو غايب» وجاراتنا ينادونها «أم غايب»، وقبلنا بهذه القسمة الضيزى. صمتت الجثة، وانتظر آدم الحارس أن يواصل حكايته، لكن صمته طال، فسأله:

وماذا حدث بعد ذلك؟ لماذا سكتت؟

بعد لحظات أخرى من الصمت واصلت الجثة: صحيح أنا وحدي في هذه الغرفة الحديدية الجدران التي تذكرني بصناديق ثلاجات الجثث، لكنها أوسع من ثلاجات حفظ الجثث بكثير. ومع أنني وحدي هنا، مشرحة خاصة بي، لكني سمعت أصوات تأتي من خلف الجدران الخلفية والجانبية، وهذا ما يؤكد بأنني لست وحدي هنا، لكن كيف؟ غرفتي هذه لا منفذ لها سوى الباب الذي تجلس أنت عنده، ربما أنا سجين؟ لا أعرف، فليس من المعقول إن يكون هذا المكان مشرحة خاصة بجثة واحدة، لاسيما وليس هناك قاعة للتشريح، ولا جثث أخرى؟ ولم أرَ طبيياً مشرّحاً ولا مساعداً له، ولا قاعة لثلاجات الجثث، أنا هنا في غرفة

حديدية، وليس هنالك سوى جسدي المتفحم،  
وذكرياتي عن هول الجريمة..!

صمت آدم الحارس للحظة ثم سأل:

أليس هناك حارس للمشرحة؟

أدرك آدم الحارس، حين انتهاء جملته، بأن  
سؤاله كان ساذجًا، فالجثة تقول بأنها وحدها،  
في غرفة حديدية تشبه الزنزانة، وأنه لم يرَ  
أحدًا قط، بينما هو يسأله عن حارس المشرحة؟

ردت الجثة باستغراب:

أقول لك لم أرَ أحدًا، فتسألني عن حارس

للمشرحة؟

فقال آدم الحارس بتردد:

عفوا.. لا أستطيع أن أتخيل مشرحة من دون

حارس للجثث..!

فقالت الجثة بنبرة فيها ضجر مكتوم:

كما قلت لك.. لم أرَ أحدًا، لكنني أفقت على

نفسي وأنا في هذه الغرفة الحديدية وحدي،

وقبل لحظات سمعتُ أصوات تطرق الجدران من

جوانب غرفتي، كما سمعت إيقاع خطوات

أشخاص في ممر، وكأن خلف جدران غرفتي، أو

لأقل خلف ثلاجتي، ثمة ممرات وغرف، وعالم

كامل، إذ يبدو أن هذه المشرحة كبيرة، وفيها

حجرات أخرى.. لا أدري.. وما يحيرني إنني لا أعرف كيف جاءوا بي، أو بدقة أكبر، لا أعرف إن كان هناك مَنْ جاء بي، فقد أفقت من موتي فوجدت نفسي هنا. علمًا أن جثتي كانت في بلد مجاور..!

استغرب آدم الحارس مما سمع، فسأل:  
كنت في بلد مجاور؟ وكيف أنت هنا في  
مشرحة بغداد؟

صمتت الجثة، بينما هز الصبي آدم الصغير ذراع آدم الحارس، فالتفت إليه بنظرات مستفسرة،  
وسأل:

ما بك؟

أنا خائف..

مم أنت خائف..؟

من هذا الذي يتحدث من وراء الجدار..

ولماذا أنت خائف منه؟

لأنني لا أراه.. من قال إنه مثلنا؟ نحن لم نراه  
وأنما نسمع صوته؟ وخفتُ منه حين قال إنه  
يسمع وقع خطوات خلف جدران غرفته.. لنمض  
من هنا.. أنا خائف..

فقال آدم الحارس مهدئًا:

لا تخف يا صغيري.. مهما يكن هو، شكله

ونوعه، فهو وراء الباب الحديدي هذا، وهو خائف أكثر منا .

تشبث الصبي آدم الصغير بذراع آدم الحارس بقوة، وكأنه يطلب الأمان، فوضع آدم الحارس كفه على كفي الصبي آدم الصغير المتشبثين بذراعه، ثم قال للجثة التي وراء الباب الحديدي: واصل سرد حكايتك؟ كيف تفحم جسدك؟ وكيف صرت في بلد مجاور، بينما أنت هنا الآن في مشرحة بغداد؟

إِصْبِرْ.. لماذا أنت مستعجل وأمامنا اللانهاية؟  
اللانهاية؟

نعم اللانهاية.. نحن منذ لحظة موتنا البايولوجي ومغادرتنا الحياة استيقظنا من موتنا أحياء في اللانهاية .

لكنني لستُ ميتًا؟ هذا الصبي الصغير يقول لي بأنني ميت، لكنني لا أصدقه، وأريد من يخبرني إن كنتُ ميتًا أم لا؟ لكن كيف لك أن تخبرني وأنت لا تراني، وأنت قابع في غرفتك الحديدية، أو لأقل ثلاجتك الباردة..؟ المهم.. أكمل حكايتك التي أحس إنك تتقصد ألا تكملها..!

صمت الجثة للحظات ثم قالت:

اعترف لك بأنك ذكي، فأنا فعلا أطيل في

سرد حكايتي، لأنني أخاف إذا ما أنهيتها لإإنك ستذهب وتتركني في وحشتي هنا، في غرفتي المظلمة وحدي، وأنا وجدت في حديثي معك أنسًا لم أعرفه منذ لحظة موتي..!

شعر آدم الحارس بالتعاطف معه، وقال:

كلنا نعاني من الوحشة، ولا تنس بأن لكل بداية نهاية، ولكل حكاية خاتمة..! وإذا كنت لا تريد أن تواصل حكايتك فأنا أتفهمك.. وسأمضي على الرغم من ذلك في هذا النفق المظلم.  
لا.. لا.. سأروي لك ما جرى.

صمتت الجثة المتفحمة للحظات ثم واصلت:

كما أخبرتك بأن سعادتنا الشخصية كانت مكتملة لولا عقم زوجتي وعدم قدرتها على الإنجاب. لكن في ما بيننا لم يكن هذا الأمر مهما، فقد كنّا سعداء بحبنا وشبقنا ولهفة كل منا نحو الآخر..، بل كان لديها شعور بالذنب نحوي، لحرمانني من الأبوة، وهذا ما جعلها تلبى كل رغباتي الجنسية، بما في ذلك تلك الممارسات التي نراها في الأفلام الجنسية الغربية، كما أنها اجتماعيًا كانت تتساهل معي إذا ما سهرت مع أصدقائي. كانت تدلني، ولم أجد أنها تدمرت أو شكّت يومًا. ومرّت السنوات. كل شيء بيننا كان



رومانسيًا، لم تحدث بيننا مشاجرات، ولا أية توترات..!

لكن في السنوات الأخيرة من علاقتنا، أي بعد 13 ثلاث عشرة سنة، بدأت أُمي وأخواتي يسمعنني كلامًا مزعجًا، بدأ أول الأمر بنوع من الشفقة الأمومية والأخوية غير المقصودة، بتأسفهن وإشفاقهن عليّ بأنني محروم من الأبوة، فكنت أرد بأنني سعيد في حياتي الزوجية وأحب زوجتي وتحبني، وهي تخدمني كأبنها وليس زوجها، وأنتي مرتاح جدًا معها.

لكن تطورت حلقة التعليقات والشفقة، إلى أخوتي، وزوجاتهم، وإلى أعمامي وأخوالي. فبدأتُ أسئء من الأمر، وصرت أتضايق منه، لكن ما كان يواسيني من كل هذا الكلام كون أنه يجري بعيدًا عن مسامعها، فنحن نعيش في بيتنا منفصلين عن العائلة، وهذا الكلام أسمع حين أكون وحدي في زيارتهم، بينما حين نكون أنا وزوجتي هناك، لا نسمع شيئًا من هذه التعليقات والتعقيبات.

وبمرور الوقت توسعت الدائرة، لاسيما بعد أن توظفت في قسمنا بعض الفتيات الجميلات غير المتزوجات. بيد إنهن بفضولهن الغريزي

عرفن كل شيء عن حياتي الزوجية، وعقم زوجتي.. وكنتُ حين أمر في الدائرة، أجد بعضهن يتشاورن ويتهاوسن، فأخمن بأنهن يتحدثن عني. وعرفت من زملائي بأن الأمر يمس حياتي الزوجية.

إذ فاتحني، ذات يوم، صديقان مقربان مني جدًا، حين كنا في مطعم المؤسسة، بأن هناك فلانة أو فلانة، كلتاها تميلان نحوي، وكلتاها تبحثان عن الزوج، وأن الإسلام يبيح لي الزواج شرعًا إذا ما كانت الزوجة عاقر، و.و.و. وإحداهن مستعدة أن تكون زوجة ثانية.

وقد أزعجني هذا الكلام حقًا، فتركتُ الطاولة مستاءً. بعد ذلك جاءا يعتذران ويؤكدان بأنه لم يكن قصدهما إزعاجي، وإنما مصلحتي، وهما لم يقترحا شيئًا شائئًا ومخالفا للشرع. وهكذا. حتى صار الأمر يستفزني أكثر. وصار الأمر يؤثر على مزاجي ونفسي، لاسيما وأني أهلي، أمي وأخواتي وأخوتي، اجتمعوا في ما بينهم وقرروا إقناعي بأية طريقة كي اتزوج...

وما زاد الطين بلة أن زوجتي، لا أعرف المناسبة التي دفعتها للخروج من البيت. وأعتقد من أجل أن نذهب سووية لأحد محلات الأثاث

التركي، فمرّت عليّ إلى الدائرة، كي أذهب معها بعد أن أطلب إجازة مؤقتة لساعات. ولأن علاقتي بالاستعلامات جيدة جدا فقد سمح موظف الاستعلامات لزوجتي أن تصعد إليّ وأن تفاجئني في مكتب عملي، كأية مراجعة للمؤسسة.

ومن هنا بدأت المأساة، فقد لمحت الموظفين اللاتي معي في الصالة، أو القاعة الكبيرة..! صحيح أنها لم تعلق أو تتكلم حينها، لأننا غادرنا الدائرة ثم انشغلنا بمعاينة الأثاث، لكن ذلك المساء كان مساء الموظفين، فلأول مرة صارت تسألني عن عملي، وعن زملاء العمل، وصولاً إلى زميلات العمل..!.

ولم تُبد أية علاماتٍ للغيرة، لكنها صارت صموتة، لا تتحدث كثيراً، وفقدت مرحها، تصارت ساهية ومشتتة الفكر في غالب الأحيان، بل وصارت لا تقاسمني أفكارها، وما يجول في نفسها، لكنها لم تتهاون أو تقصّر في خدمتي وإسعادي.

المرأة كائن عجيب، لغز محير، لا يُسبر غوره وعمقه. وما زاد الطين بلة، من جانب آخر، هو ضغط أهلي الذي لم يعد مجرد شفقة وتعاطف أسف معي لحرمانني من الأبوة، وإنما صار ضغطاً

نفسياً وطلباً لحوحاً ومحاولات مكثفة وإقناع مباشر من دون أي اعتبار لطبيعة علاقتي بزوجتي، بل ألقوا اللوم عليها، بأنها لو كانت تحبني فعلاً لسعت هي بنفسها من أجل أن أتزوج امرأة ثانية.. وهكذا.

ثم صمت.

انتظر آدم الحارس أن تستمر الجثة في سرد الحكاية، لكنها بقيت صامته. فسألها:

وماذا جرى؟ هل تزوجت..!

فواصلت الجثة المتفحمة:

لا.. لكن بعد أشهر من محاولات الإقناع من قبل أهلي، بأن هذا حقي، ويمكنني أن أتزوج بالسر، بعد ذلك ستكون هي أمام الأمر الواقع!! لكنني رفضت رفضاً قاطعاً..... ذات يوم طفح الكيل بي، وكنت قد جئت البيت مستاءً من ضغط أهلي عليّ. وسألتي، ولأول مرة قلت لها بأن أهلي يضغطون عليّ كثيراً، ويريدون أن تكون لدي خلفه وأطفال..وياليتني لم أبح لها بشيء من هذا..!!

لم أتحدث كثيراً، بل أكدت لها حبي، ورفضني لكل مقترحاتهم..لا أعرف أيهما أقوى؟ الحب أم الغيرة؟ حينها لم تفعل، ولم تتأثر، فجأة، صارت

كائنًا لا أعرفه، إذ لم تبد أي اهتمام، كانت نظراتها زجاجية باردة، لكن كان واضحًا بأنها تفكر بأمر جلل.

حينها فكرت بأنها ربما ستذهب لتواجه أهلي وترد على ضغوطاتهم عليّ وتفند مقترحاتهم...!... تلك الليلة كانت ليلة فاصلة بيننا.

كيف؟ ما الذي جرى في تلك الليلة؟

صمتت الجثة قليلًا، ثم واصلت:

لا أخفيك، إنني من كثرة النق والتعليق ومحاولات الإقناع، ومحاولات زميلاتي غير المتزوجات، وتزلفهن ومداراتي، وتنافسهن، وهما اثنتان، أن يثيرن انتباهي، لاسيما وأنهن كما عرفت من صديقي بأن كلاهما لا تمانعان أن تكون أية منهن زوجة ثانية، لاسيما وإن زوجتي عاقر، بينما في البداية كانت إحداهن موافقة على هذا الوضع. وبصراحة بدأت أقلب الفكرة في داخلي.

صحيح إنني لم أبين هذا الأمر قط في حديثي، أو سلوكي، ولم ينعكس على تعاملتي المحب لها ومعها، لكن للأنثى حاسة سادسة، وسابعة، وثامنة، وتاسعة، وعاشرة، في معرفة ما يدور في عقل الرجل، لاسيما زوجها، أو حبيبها،

أو حتى أي رجل يقترب منها ويدور في فلكها،  
ويحاول التواصل معها، لذا فقد استلمت راداراتها  
النفسية إشارات لما يجري في داخلي.  
وصدّقني، لا يمكنني أن أفسّر كيف عرفت  
بأنني فكرت بالأمر فعلاً، تحت ضغط تكرار  
محاولات الإقناع على مدى سنتين، وبشكل شبه  
يومي، سواء في البيت من قبل الأهل، أو في  
الدائرة وفي اللقاءات الخاصة مع قبل صديقي،  
وأيضاً تحت تأثير حضور أنوثة زميلتي في  
المؤسسة.

وماذا فعلت هي؟ كيف عرفت بأنها انتبهت  
وعرفت لما كان يجري في داخلك؟  
لا أعرف كيف انتبهت لما دار في ذهني  
وداخلي؟؟.. هذا ما يحيرني وأنا في عالم الموتى  
الأحياء..؟!؟

فقاطعه آدم الحارس قائلاً:

تذكّر..! لا بد أنك، لا إرادياً، تصرفت على  
غير عادتك فارتابت بك؟ أو إنك قلت، سهواً،  
كلمة ما نبّهت حواسّها الأنثوية وغيرها؟ أو  
تعاملت ببرود أو بلا إهتمام على غير ما تعودت  
منك؟ تذكّر..

صمتت الجثة للحظات، ثم قالت:

لا أدري بالضبط...! ربما نعم، وربما لا...!!؟  
لكن أتذكر بأني كنتُ في تلك الليلة عند أهلي.  
كان أخوتي وأخواتي مجتمعين في بيت أمي.  
ووجدتهم قد وجدوا لي صبية لم تبلغ العشرين  
من العمر، وأروني صورتها، وكانت جميلة ومثيرة  
حقًا، لكنني رفضتُ، والرفضُ صار بالنسبة لي  
روتينًا، لأن نبرة صوتي لم تكن غاضبة كما في  
البدايات، بل يمكن القول تشي برضا ضمنى غير  
معلن، لكنني تشبثتُ بهذا النمط من الرفض، لكنني  
انتبهتُ لنظراتِ أخواتي مع أمي، وابتسامة خفية  
على وجوههن، بأنهن تقبلن رفضي برضا، وكأنني  
أعلن عن موافقتي الضمنية الخجولة: لا يقال  
أنني ضعفت واستسلمت لهم بسهولة بعد رؤيتي  
لصورة الفتاة.

غادرتُ منزل أهلي وذهبتُ لأسهر في بيت  
أحد صديقيّ. كلاهما كانا موجودين. وفي تلك  
الليلة، ونظرا لكثافة الانفعالات التي تزدهم في  
داخلي، شربتُ كثيرًا، أكثر بكثير من المعتاد،  
حتى سكرت، ولم أستطع العودة إلى البيت  
بمفردي، فجاء بي أحد صديقيّ إلى البيت.  
وماذا جرى في البيت؟ سأل آدم الحارس  
بفضول الموتى الأحياء.

لا أذكر شيئاً، فأمام عيني الداخلية، وشاشة  
ذاكرتي، الآن، صورة مشوشة وغير واضحة، لا  
يمكنني التحقق منها. أرى الآن المشهد كما كان،  
ومع أنني كنت مغمض العينين لكني أرى الآن كل  
شيء بعينين هما ليستا عيني، لأنني أراني الآن  
داخل المشهد كشيء منه، فلستُ أنا من يرى  
وأنما هما عينا آخريان تريان وتستعيدان ما  
كان، لكن من ذاك الذي رأى كل شيء؟ لا أدري...!  
المهم.... فقد فتحتُ زوجتي الباب. وحين  
رأنتي سكراناً وفاقداً لرشدي، بينما صديقي  
يمسك بي، نظرتُ إليّ باحتقار واستتكاف شديد،  
بينما كانت تنظر لصديقي نظرات تشي برغبة  
وود ولطف، لكن كل شيء كان غائماً وغير واضح.  
ألقيا بي على سرير، وغادرا الغرفة.. إلى  
أين لا أعرف؟ ماذا جرى بينهما؟ لا أعرف..!  
أعرف، فقط، بأنهما ألقيا بي على السرير وغادرا  
الغرفة معا.

الآن أرى المشهد أمامي، أراهما جالسين في  
المطبخ، بينما تسعى هي جاهدة إلى خدمته.  
تفتح الثلاجة وتُخرج كل ما فيها من طعام  
محفوظ وتضعه على المائدة الصغيرة، ثم تسخن  
قدر الرز المطبوخ وقدر مرق الفاصوليا البيضاء.



وكانت هي قد اتصلت بي حينما كنتُ عند أهلي،  
وعدتني بالوجبة التي أعشقها، الرز والفاصوليا،  
لكنها الآن تسخنها لتقديمها لصديقي! وها هي  
تعد الشاي في الوقت نفسه.

ماذا أرى..ها هي تمر من جانبه في المطبخ  
الضيق نوعًا ما، وها هو يمسك بكفها ويسحبها  
إليه، فصارت خلال لحظة في حضنه، فأجلسها  
على ركبتيه. حاولتُ أن تمنعه وتتملص منه لكنه  
بجرأة التمل مسك بها فاستسلمتُ لضغط جسده  
عليها، وبقيتُ جالسة في حضنه، مثل غزالة  
وقعت في شبكة.

أهذه هي زوجتي حقًا؟ أهذه التي كنتُ أعدّها  
رمزًا الحب والوفاء والإخلاص؟ أهذه التي كنتُ  
أعتبرها قديسة تمشي على الأرض..! ومن جانب  
آخر، هل ما جرى الآن هو تهور سكران لم يعرف  
ذمة لصديق؟ أم علاقتهما كانت موجودة وأنا  
الغبي الساذج الذي آمن بالوفاء والإخلاص  
والصداقة فلم انتبه لما كان بينهما؟... لكن لا  
أعرف ماذا جرى.. لقد انقطع شريط الرؤيا..!!.

ماذا تقصد؟ ألا ترى أو تتذكر شيئًا؟ سأل آدم  
الحارس بلهفة واضحة.

قلت لك لستُ أنا من يرى، وإنما يُعرض

أمامي وكأنما أرى كل شيء على شاشة مثل فيلم سينمائي، لكنني لستُ المصور ولا المخرج، لأنني أرى نفسي ضمن الذين داخل المشهد..المهم.. لقد انقطع المشهد حينما شاهدتُ صديقي يريد تقبيل زوجتي، وكأنما ثمة رقابة أخلاقية على الفيلم الذي يُعرض أمام أعماقي، كما في الأفلام العربية، حينما يصل البطل والبطلة إلى مشهد حميم، فيتم قطع المشهد..!.... لحظة.. لحظة.. عادتِ الرؤيا. ما هذا؟

ماذا؟ ماذا ترى؟ ماذا جرى؟

أرى التالي..الشقة مظلمة، لا أحد هنا، وها أنا أرى نفسي نائمًا بعمق السكارى حين يغرقون في النوم..! يبدو أنني قد تجاوزتُ حدودي في ارتشاف الكحول، فأنا أرقدُ كجسد لا حراك فيه. أين زوجتي؟ أين صديقي؟ لا أحد في الشقة، وأنا في غرفتي المعتمة....لا..لا..ها هي زوجتي تدخل، وهي قلقة الملامح، نظراتها جامدة تتم عن إرادة شيطانية لاقتراف أمر مريب، لكنه أمر مهم بالنسبة لها. ها هي تفتح الخزانات، تسحب حقيبةً جلديةً صغيرةً من أسفل الخزانة، لا تضع فيها سوى قطعٍ صغيرةٍ من الملابس، ثم تمد يدها لترجعها وهي تقبض على صندوق مجوهرتها

والحلي الذهبية التي جمعتها على مدى سنوات.  
تفتح الخزانة الصغيرة في عمق الخزانة الكبيرة،  
وتأخذ كل ما فيها من أموال، بالدولار والدينار،  
وهي مبالغ لا بأس بها، كنتُ قد جمعتها من  
بعض حصتي في أملاك العائلة التي يديرها  
أخوأي، بل ها هي تأخذ جواز سفري وكل وثائقي  
مع وثائقها وتضعها في حقيبتها اليدوية...

أغلقت الحقيبة الصغيرة، وحقيبتها اليدوية  
وذهبت بهما إلى خارج الغرفة، بينما أنا أرى  
نفسي راقداً كحجر ثقيل على السرير.. الشقة  
غارقة في السكون. ثمة من يخرج من الشقة،  
ماذا هل غادرت زوجتي؟ إلى أين؟ ما الذي  
يجري؟ من هذا الذي يصور كل شي من دون أن  
أراه؟ ولماذا..؟ وهل هو طويل القامة بحيث أرى  
بعض المشاهد وكأنها تم تصويرها من  
السقف؟...

هل كنت تشك بزوجتك سابقاً؟ سأل آدم  
الحارس متعاطفاً مع الجثة.

صمتت الجثة للحظات، ثم واصلت بنبرة  
تأكيد:

مستحيل، فقد كان حبنا يضرب في الأمثال،  
بل ويتم الحديث عن حبنا وتمسكنا ببعضنا

حينما يتشاجر الأزواج من زوجاتهم والعشاق مع حبيباتهم..! كانت هي رمزًا للوفاء والإخلاص وأنا رمز الرجولة والتضحية والإخلاص، لذا فقد كان من المستحيل إن شككت فيها. وما شاهدته في ذلك المشهد بالمطبخ مع صديقي صدمني، مع أنني رأيته الآن، بينما كنتُ حينها راقداً كحجر ثقيل على السرير.

ربما لم تنتبه لما كان يجري من وراء ظهرك؟ صمتت الجثة للحظات، ثم قالت وفي نبرة صوتها شك وقلق:

ربما.. لم يعد هناك من يقين؟ لاسيما بعدما شاهدت كيف أخذت الجواهر والحلي وما لدينا من أموال ووثائقي؟ لكني لم افهم لماذا أخذت كل وثقي أيضاً؟ وإلى أين ذهبت بالحقيبتين؟ وماذا جرى بعد ذلك؟

لحظة.. لأرى ما جرى..! ها أنا أسمع صوت فتح الباب ودخول شخص ما، وهمهمات عند الباب لم أتبين مضمونها، لكني لا أرى أحداً، فالمشهد حالياً هو في غرفتي..! لكن مهلاً، ها أنا أرى زوجتي تدخل الغرفة حيث أرقد، وبيدها عبوة بلاستيكية كبيرة، بحجم غالون يسع عشرين لتراً.....

صمتت الجثة فجأة، وطال صمتها، فسأل آدم الحارس:

لماذا سكتت؟ ماذا ترى؟  
بعد لحظات قالت الجثة:

أخاف أن أواصل المشهد المخيف؟  
لكن لقد جرى الذي جرى..! أنت الآن تستعيد مشاهدته لا أكثر..!

بعد لحظات من الصمت الثقيل واصلت الجثة:

تلفتت في ما حولها، علمًا هي وحدها في الشقة، ولا أدري إن كان ثمة أحد آخر معها، ينتظرها في المطبخ، أو الممر، أو الصالون. تقدمت نحوي وأنا غارق، وغطس، وفاطس، في النوم، وأخذت ترش عليّ السائل الموجودة في العبوة.

كنت من السكر بحيث لم انتبه لبليي الكامل بالبنزين، بل صار الفراش وخشب السرير كله منقوعًا بالسائل، ورشت على أرضية الغرفة والجزانات، وفتحتها ورشت السائل على الملابس وعلى قطع الأثاث في الغرفة. وحتى على الستائر والجدران وباب الغرفة، ثم ذهبت ترش الأرضية خارج الغرفة أيضًا. عادت إلى الغرفة، وبيدها

علبة الثقاب، اقتربت من السرير، نظرت إليّ  
طويلاً. كانت الكاميرا المجهولة تصور عينيها  
ونظراتها المليئة بالحقد، والجنون، ونيران  
الانتقام.

فجأة، فتحت علبة الثقاب، وسحبت عوداً  
كبريتياً وأشعلته، وألقته على جسدي الذي اشتعل  
فجأة. كانت النيران الهائلة والمتصاعدة من  
جسدي تنعكس على حدقتي عينيها، وفجأة،  
ارتسم الرعب على وجهها، وغادرت الغرفة، ثم  
الشقة فوراً.

وماذا جرى؟ ألم تنتبه وتصحو من سكرتك  
بفعل الحريق؟

لا أدري، كان الحريق هائلاً، والنار هائلة، وربما  
افقت، لكنني تعرضت لحروق قوية جداً جداً،  
فالنار كانت قد انتشرت في السرير، والخزانات،  
وأرضية الغرفة، والستائر، وجدران الغرفة،  
وبابها. وربما امتدت إلى الشقة كلها، ولولا أن  
النيران الهائلة والدخان قد أيقظت الجيران،  
ومصادفة أن عائلة من الجيران كانت قد رجعت  
من سهرتها فانتبهت للحريق، وقد اتصلت تلك  
العائلة بالإسعاف والطوارئ والمطافيء الذين،  
وبقدرة قادر، جاءوا بسرعة، فأطفأوا الحريق،

لكن بعد فوات الأوان.

ارتبك آدم الحارس، وتشبث الصبي آدم بذراع  
آدم بقوة خوفًا وهي يستمع معه إلى حكاية هذه  
الجثة الغامضة، وربت آدم على كف الصبي  
مهدئًا، ثم سأل بتردد:

وماذا جرى بعد ذلك؟

جرى الذي جرى. تم الاتصال بأهلي الذي  
جاءوا فورًا. أنا نُقلت إلى المستشفى، وكان  
الأطباء يأسون من قدرتي على البقاء حيًا...

كان الجميع قد ظن بأن زوجتي قد تفحمت  
وذابت في الحريق، إذ لا أثر لها. لكن عدم وجود  
وثائقنا الرسمية العائلية في الخزانة الخاصة،  
وغياب صندوق الحلّي والجواهر ولا بقاياها  
المحترقة، وكذلك اختفاء بقايا الأموال النقدية  
الورقية، أثار الشك، لاسيما وعدم وجود أي أثر  
لتفحم الجسد سوى جسدي الذي تعرض لحروق  
هائلة...

ومع سعي الأطباء لانقاذي، لكنهم أعلنوا  
عجزهم، واخبروا أخوتي عن عجزهم، ونصحوهم  
لنقلي فورًا إلى بلد مجاور...! فاعترضتنا مشكلة  
كبيرة، هو عدم وجود جواز سفر خاص بي، فقد  
أخذته زوجتي مع ما أخذت...!.

لم يأبه أحد لغيابها في حينها، فقد ظنوا أنها أما عند أهلها، أو أنها ربما احترقت، ولم يكن أمام أخوتي سوى أن يرسلوني إلى بلد مجاور، لكن المعضلة كانت فقدان جواز سفري، مما اضطر أخوتي أن يرسلوني بجواز سفر أخي التوأم، وبما أن وجهي وجسدي قد احترقا، فلم يعد هناك من يمكن النظر إليه ومقاربتة من صورة الجواز، ناهيك أن حالتي كانت تثير الشفقة، ولا يمكن لأية جهة أن تفكر بأن هذا الجواز والاسم لا يعودان لي..!.

فسأل آدم الحارس بلهفة وهو منسجم مع حكاية الجثة الغامضة:

وهل تمّ الأمر ببسر ومن دون مشاكل؟

طال صمت الجثة الغامضة، ثم جاء صوتها:

آسف على التأخر في الجواب، فقد كنت أتصت على الضجيج خلف جدار هذه الغرفة المظلمة، إذ أعتقد إن هناك غرف أخرى وممرات، وإن غرفتي تقع في مكان تشاركني فيه كائنات أخرى..! عمومًا، كما قلت لك، لدى أخوتي باع، وامتداد، وعلاقات عميقة بالسلطة، بل هم جزء منها، لذا لم يكن الأمر صعبًا مروري من المطار في بغداد، ولا حتى في مطار الدولة المجاورة



للعراق. وبدأت رحلة علاجي، لكن كانت بدون جدوى، ففي اليوم الرابع فارقت عالم الأحياء. وهنا بدأت الكارثة الحقيقية. قاطعه آدم الحارس سائلاً بفضول، واستغراب: أية كارثة؟

صمتت الجثة قليلاً، ثم واصلت: أخوتي قرروا حينها إعادتي إلى العراق، واستحصلوا شهادة الوفاة، وقيل لهم بأنهم لا يستطيعون أخذ الجثة معهم، إلا إذا تمت المصادقة على شهادة الوفاة من قبل السفارة العراقية في ذلك البلد..! وهنا ارتعب أهلي، لأن تصديق السفارة على شهادة الوفاة، التي استخرجت باسم أخي صاحب جواز السفر، يعني أن اسمه سيُمسح ويُغى من كافة السجلات العراقية، ويصبح ميتاً في نظر القانون، يصير ميتاً الحياة، فلا يمكنه استحصال أية وثيقة رسمية..!!.

صمت آدم الحارس مذهولاً وهو يفكلا في ما سمع، وقال: إنها ورطة حقيقة. وماذا فعل أخوتك؟ لا شيء..! لا شيء؟

نعم ، لا شيء.. أخي الأكبر الذي جاء معي عاد إلى بغداد مُنكسر الخاطر، بعد أن ترك جثتي في البلد المجاور، وبعد أن تجنب تصديق شهادة الوفاة في سفارة العراق بالبلد المجاور، بينما لم يصدق أخي، صاحب جواز السفر والذي كان قد بقى في العراق، بأنه تخلص من ورطة أن يكون ميتاً وهو في الحياة.

صمت الجثة قليلاً، فسألها آدم الحارس، بفضول:

وكيف جئت إلى هنا، إلى هذا المكان، إلى بغداد..؟

لا أعرف بالضبط، جرى كل شيء بشكل غامض. الذي أعرفه إن إدارة المستشفى احتارت بجثتي، فهم يعرفون إنني عراقي، ويفترض أن يعودوا بي إلى بغداد، لاسيما أن أخي ومن كان كان معه، الذين جاءوا بي إلى هذا البلد للعلاج، غادروا راجعين إلى بغداد، تهرباً من ورطة جوازي سفري المزور..!. اجتمعت إدارة المستشفى، وأبلغت الجهات الأمنية بوضعي، فقررروا أن تنقل جثتي إلى مشرحة ذلك البلد حيث تحفظ جثث الغرباء..!

قاطعه آدم الحارس سائلاً:

ألم تكن في مشرحة المستشفى؟  
نعم.. صحيح.. لكن كان لديهم مكان خاص،  
مشرحة خاصة، للموتى الغرباء مجهولي الهوية.  
كم كان هناك من الموتى الغرباء؟  
كنا بالعشرات.. بيننا غرباء من بلدان  
مختلفة...

وكيف صرت هنا في بغداد؟ أو كما أقرأ على  
لافتة المكان هنا في «مشرحة بغداد»..؟ مع أنني  
غير مقتنع بكل ما أرى وأقرأ لأنني أنا آدم حارس  
«مشرحة بغداد» التي موقعها ليس هنا في النفق،  
وهي مبنى وليس بابًا كأنه جدار حديدي..!  
امتد صمت مشحون بالترقب بينهما. إلى أن  
نطقت الجثة:

أنا أعيش في ظلام مطبق في هذه الغرفة أو  
الصندوق الحديدي، لا أرى شيئاً قط، لكنني كما  
تسمع حديثي، أنا حي، أو لأقل بدقة أكبر، ميت  
حي.

لكنك لم تخبرني كيف وصلت إلى هنا وأنت  
جثة مرمية في مشرحة ببلاد أخرى؟  
هذه قصة غريبة أخرى، ومليئة بالألغاز كما  
هي قصة حبي، وحرقي من قبل زوجتي، التي لا  
أعرف إلى الآن لماذا أشعلت الناري في جسدي

بهذه الطريقة البشعة، لا أعرف لماذا سرقت  
وثائقي وجواز سفري؟ هل كانت تكرهني وحاقدة  
عليّ إلى درجة قتلي بهذه البشاعة؟ هل كان  
لديها عشيق، واتفقت معه على قتلي؟ هل غيرتها  
تغلبت على حبها؟ وأني ما زلت على الرغم من  
موتي أسأل: أيهما أقوى، الحب أم الغيرة؟ أخبرني  
أنت: أيهما أقوى، الحب أم الغيرة؟  
فقال الحارس آدم:

سبق وإن أحببتك..؟ أنا غير متزوج، ولم أجرب  
الحب سوى مع جثة لقروية، قُتلت ظلماً، عشقتها،  
لذا لا أعرف شيئاً عن الحب، لا ولا عن الغيرة.  
لكن حدثني كيف وصلت إلى هنا؟

لقد قلتُ لك، إن إدارة المستشفى اتفقت مع  
الجهات الأمنية على نقل جثتنا إلى مشرحة  
أخرى، تقع على مشارف المدينة، بل على مبعدة  
منها، في عزلة تامة.

وجرى ذلك. لم يكن هناك من حارس لتلك  
المشرحة، سوى رجل غريب الأطوار يعيش على  
مسافة ليست بالقريبة من المشرحة. وكان يأتي  
كل يوم ليملاً المولدات بالزيت، ويشغلها، كي  
تبقى الثلجات على درجة محددة من البرودة  
التي تمنع العفن وانتشار الروائح من الجثث.

لكن يحدث أن تتطفيء المولدات أو يتأخر هو عن المجيء لسبب ما، فتسخن الثلجات وتنتشر الجيفة على الرغم من وجودنا داخل صناديق حفظ معدنية، فتلتهم الضباع حول المشرحة.

وحدث إن تعطلت المولدات، ذات مرة، وانتشرت رائحة الجيفة حتى وصلت إلى المدينة، ولم يكن أمام ذلك الرجل غريب الأطوار الذي هو الحارس إلا أن يفتح أبواب المشرحة، وبوابات الصناديق المعدنية التي نحن فيها، كي تتسرب الجيفة في الهواء وتخف قليلا. لكنه لم يكن يعرف بأننا أحياء جميعًا..!!

هو لا يعرف بأن الجثث التي لا تُدفن أو تُحرق، تبقى حية بين عالمين، كما في الديانات الندية، أو بعض العقائد المتشعبة بالأرواح وعالمها الغامض.

كنا، نحن الجثث، الموتى الأحياء، نقضي العلى وحشتنا وخوفنا من وجودنا في هذا المكان الغامض بتبادل الأحاديث، حيث كل منا كان يروي قصة وجوده في الحياة وكيفية وصوله إلى المشرحة..!

مرة روى جاري، الجثة التي على اليسار، قصة وصوله إلى هذا المكان الموحش. وجاري هذا

هو رجل هرب مع زوجته الشابة، مشيًا على الأقدام، من بلاده التي خربتها الحروب، ودخل إلى هذه البلاد، وكان بلا أية وثائق تثبت شخصيته.

عاش حياة بائسة. هو زوجته الشابة الصبية التي انبهرت بحياة المدينة الحديثة. وكان هو يتعذب ويتحسر من أنه لا يستطيع أن يوفر لها حياةً كريمة، بل يستطيع أن يسد جوعها بطعام صحي وشهي، مع أنه لم يترك مهنة أو عملاً لم يجريه. لكن لعنة المهاجر كانت تلاحقه، فهو بلا وثائق أو هوية رسمية، لذا كان موضع شبهة أينما حل واشتغل.

وبعد معاناة بحثًا عن لقمة العيش، وجد عملاً كحارس لعقار قيد الإنشاء على أطراف المدينة، وسكن مع زوجته الصبية الشابة في مخزن الإسمنت ومواد البناء المستخدمة في البناء.

وهو يتذكر جيدًا أنه حين قدم على المبنى وتحدث مع رئيس العمال الذي رفض الحديث معه أصلاً، لكنه حينما رأى زوجته الصبية معه، افترسها بعينيه، ووافق فوراً على تشغيله، بل وعرض عليه مخزن الأسمنت كي يسكنه مع زوجته.

صار يهتم بهما، ويزورهما يوميًا. وأحيانًا كان يمر عليهما مساءً بحجة متابعة أشياء تخص البناء، فيقضي وقتًا عندهما يشرب الشاي، ويستمتع بالاهتمام الذي يبديانه نحوه، لاسيما الزوجة الفتية، التي عرفت بغريزتها الأنثوية بأن رئيس العمال يريد لها بأي شكل له وأن زيارته اليومية المتكررة هي من أجل رؤيتها لا أكثر. أعجبها أنها صارت موضع اهتمام رئيس العمال، لاسيما أنه أخذ يأتي لها بالهدايا البسيطة. فأحيانًا يأتي بالفواكه أو يأتي بالمشويات ويقضي السهرة معهما.

وتجراً ذات مرة بأن طلب منها وأمام زوجها أن تساعد في تنظيفه (كرفانه) الذي يقع خلف المبنى. تردد الزوج لكنه لم يعترض. وهناك حاصرهما، بل ضاجعها برضاها ورغبتها. وحين رجعت في تلك المرة كانت سعيدة بأن لديها الآن عشيق، غير هذا الزوج المتعب الملل.

مع مرور الوقت صارت الزوجة عشيقة لرئيس العمال، بل تعلقت هي به، وأخذت تذهب إليه بالشاي وهو في العمل، وتطبخ له الطعام وكأنها زوجته، فصارت مشار حديث العمال. ووصل بها الأمر إلى أن تستغفل، أحيانًا، زوجها وتذهب إليه

إلى كرفانه لتقضي الليل عنده وترجع فجرًا .  
وذات مساء اختفت الزوجة، بيد إنها وقبل أن  
تختفي أقنعت زوجها بأن يصعدا إلى سطح  
البناية غير المنتهية، كي يتمتعا بمنظر الأفق  
والسماء وغروب الشمس، وكي تمنحه لذة بعيدًا  
عن الأنظار، لكنها عوضًا عن ذلك دفعته من  
سطح المبنى ليسقط ويتهشم على الأرض. ولاذت  
بالفرار.

اختفت وحدها، فرئيس العمال واصل عمله  
وكأنه لا يعرف عنها شيئًا، بينما نُقلت جثة الزوج  
هو إلى المستشفى، وانتهى به المقام معي في  
المشرفة التي بأطراف المدينة..!

أما جاري، الجثة التي كانت على اليمين،  
فقصتها قصة أخرى مؤلمة أيضًا. فهو جندي  
عراقي جرح أثناء خدمته على الجبهة خلال فترة  
الحرب بين العراق والبلد الجار، فوقع أسيرًا،  
لكنه مات على أثر جراحه في المستشفى، ونقل  
معنا إلى مشرفة الغرباء أيضًا.

المهم، كما قلت لك، ذات مرة، انطفأت  
المولدات ونفذ الوقود فيها، فتصاعدت الجيفة  
من المشرفة. وبعد أيام جاء الحارس الغامض،  
ففتح الأبواب، لاسيما بوابات صناديق الثلجات



التي نتمدد فيها، فهربنا نحن الثلاثة في منتصف  
إحدى الليالي.

هربنا من المشرحة، وسرنا الليل كله نقطع  
البراري. صاحبنا الذي قتلته زوجته كان أفغانيًا،  
فقرر التوجه إلى بلاده، أما أنا والجندي فاتجهنا  
نحو بلادنا، نحو العراق.

مشينا ليالٍ وأيام بكاملها. لكن حين وصلنا  
حدود بلادنا، توقفت جثة الجندي. لم يتقدم  
خطوة واحدة. حين سألته:

لماذا توقفت عن المشي؟ دعنا ندخل  
البلاد..!

لحظتها جلس على الأرض يائسًا ثم قال لي:  
إلى أين أمضي؟ ولمن أرجع؟ لا أحد لدي؟  
أبي وأمي قد ماتا؟ وأخي الأصغر من بخمس  
سنوات قد تزوج زوجتي؟ حدث ذلك قبل عام من  
موتي على الجبهة..!

استغربت قوله فسألته:

كيف؟ ماذا تقول؟

صمت لكنه أجاب وكأنه مجبر على التوضيح

فقال:

هذا ما حدث. أنا التحقْتُ بجبهة الحرب منذ  
سنتها الأولى. وبعد أشهر أُعلن عن فقداني ثم

استشهادي. لكني لم أقتل، وأنا كنا محاصرين من قبل جيش البلد الآخر، لذا اعتبرت الحكومة ضمن المفقودين والشهداء. لكننا حاربنا وصبرنا وصمدنا، إلى أن تم كسر الحصار بعد فترة طويلة. المهم.. بعد تحرير منطقتنا من الجيش العراقي منحت إجازة.

حين عدت بعد أربع سنوات عرفتُ أن أهلي قد أقاموا العزاء لي، واستلموا مكافأة الدولة لشهداء الحرب. ووفقًا لبعض التقاليد الاجتماعية فقد تزوج أخي، الذي يصغرنى بخمس سنوات، من زوجتي التي تكبره بثلاثة أعوام، فقد كانت هي تصغرنى بسنتين. وحين عدتُ انقلبتُ الدنيا ولم تقعد. حينها كان والداي قد توفيا.

كان وجودي محرّجًا لأخي وزوجته، التي هي زوجتي، بل كان أخي محرّجًا ويحاول أن يبرر لي ما جرى، لكن زوجته التي هي زوجتي، كانت غير آبهة بما جرى، وتتصرف من دون أي شعور بالذنب، بل كان واضحًا أنها سعيدة بزواجها من أخي، بل ومتضايقة من وجودي أصلاً.

من طرفي حاولتُ اقتناص لحظات كي انضرد بها. وحين سألتها إن كانت لا تزال تحبني كما كانت تؤكد لي أيام زمان، إذا إننا تزوجنا من

خلال قصة حب عاصف؟ أو هي نادمة عمّا جرى؟ لكنها كانت تتفر من وجودي، بل حين يغادر أخي البيت تدخل غرفتها وتقفل الباب من الداخل، هربًا مني، ومن أي حوار يمكن أن يجري بيننا.

لم أطق الوضع. كنت قد تجاوزت فترة إجازتي، وصرت ضمن الفارين من الخدمة العسكرية، لذا أُعتبرت مختفيًا في بيتهما الذي هو بيت والديّ، فلم أخرج قط خارج البيت، فحتى وصولي الأول كان في ساعات الفجر الأولى، لذا لم ينتبه أحد من الجيران لمجيئي، فكأن وجودي من عدمه سواء.

لكني لم أطق وضعي. فبعد أيام انتهزت فرصة غياب أخي، وقبل أن تدخل غرفتها وتغلق الباب مسكت بذراعها لأحدثها، فنصرت مني وأبعدتني عنها بقوة وصرخت بي:

لا تمسك ذراعي.

أنا زوجك..!؟

لا . لا . لست زوجي . ولم تعد زوجي .

أنتِ ما زلتِ على ذمتي شرعًا..! أنتِ لستِ أرملة..! أنا ما زلتُ حيًّا..! عليكِ أن تتطلقي مني كي يمكنكِ الزواج بأخي..!

فصرخت بي بحقد وشراسة لم أتوقعها:  
أنت ميتٌ رسمياً منذ سنوات. ألا تفهم.. أنت  
ميت منذ سنوات..!  
لكن هذا غير صحيح، فها أنا أقف أمامك  
وأحدثك..!

هذا لا يعني شيئاً.. بالنسبة لي أنت ميت..!  
ثم نظرتُ إليّ بصرامة وهدقت في وجهي  
وقالت بحزم وغضب واضح:  
لأقل لك شيئاً. حتى لو ذهبنا للمحكمة  
وقررت إعادةتي إليك وأقررتُ ببطلان زواجي من  
أخيك، فأني سأطلب الطلاق منك، وإذا لم توافق  
سأخلعك! وبنفسي سأطلب الزواج من أخيك.  
ألا تفهم..؟!

لكنه مثل أخيك الصغير. أنت أكبر منه بثلاث  
سنوات..

صمتت للحظات وقالت لي بوقاحة لا نظير  
لها!

ثم ماذا؟ سأقول لك شيئاً ربما يزعجك..! أنا  
عرفتُ الحياة معه. معه فقط. وأقولها لك هو  
فحل ورجل حقيقي وليس مثلك.. لو كنت رجلاً  
حقاً فعليك أن تغادر فوراً..! أنت رجل بلا  
كرامة..! ألا تشعر بالعار..! ألا تصلك أهاتي حين

يقترّب مني ليلاً، بل وحتى ظهرًا حين نأخذ القيلولة؟ لكنك رجل بلا كرامة... أنا لا أفهم كيف كرامتك تتحمل أن تسمع لمن تسميها زوجتك وهي تصرخ وتتأوه متعة تحت أخيك وهو يخرقها بقوة وهي تطلب منه المزيد من العنف والقوة...! أنا الآن أحذرك. إذا لم تذهب وتغادر البيت فسنسلمك للمنظمة الحزبية في منطقتنا! وإذا لم يفعلها أخوك سأقوم أنا بذلك. فغادر بكرامتك.

وماذا جرى؟ سألته.

صمت الجندي قليلاً ثم واصل:

الحقيقة إن الحرب دمرتني ولم تبق لي ذرة من الكرامة واليقين والإيمان بشيء. بقيت في البيت. كنت أتعذب وأنا اسمع ليلاً أصواتهما الشبقة. ويبدو أنها أمعنّت في إذلالني، من خلال تقصدها بالمغالة في الممارسة مع أخي ليل نهار، حتى إن أخي كان حين يخرج من غرفتهما بعد الممارسة لا يستطيع أن يرفع عينيه وينظر إليّ..... هي لم تدرك بأن الحرب أخصتني وقتلت رجولتي، فأنا لم أكن أحتاج لجسدها بل لحنانها وأمومتها. لكن من دون جدوى. هي كانت تركز على قضبي وفحولتي وليس على حبنا

والعلاقة التي كانت بيننا....وأخيراً، حسماً  
موقفهما، أقصد زوجتي وأخي، بعد أن صرت  
عبئاً عليهما. وفعلاً ذهب أخي وزوجته، التي هي  
زوجتي، إلى المنظمة الحزبية في منطقتنا،  
وأخبراهما بأني وصلت للتو إليهما، هارباً من  
الجبهة بعد أن اعتقدوا بأني استشهدت!!؟ فألقي  
القبض علي وأرسلت إلى الجبهة مرة أخرى.....  
وحدث في هجوم مضاد أن جُرحت وتم أسري  
ومئى في المستشفى. وجرت الأمور لاحقاً كما  
رأيت بنفسك.

كان آدم الحارس والصبى آدم الصغير يصغيان.  
وكان الصغير ماسكاً بذراع آدم الحارس وملكناً  
برأسه عليها. وكان آدم الحارس موجهها انتباهه  
نحو الباب الحديدي الذي من خلفه تأتي حكاية  
الجثة المحروقة ورفاقة.

صمتت الجثة المحروقة. امتدَّ صمتها، فسأل  
آدم الحارس:

وماذا بعد؟ إلى أين رحلت جثة الجندي  
الأسير؟ وكيف صرت أنت هنا؟

استرسلت الجثة المتفحمة بالحديث:

بقيت فترة طويلة أحاول إقناع الجندي السير  
بعبور الحدود معي، وأفهمته بأنه يستطيع العيش

ككائن غير مرئي، كجثة حية، لكنه بقدر شوقه للبلاد كان يعيش متأثرًا بخيانة زوجته وأخيه له. وأخيرًا قرّر التيه في ظلمة الليل. قام حينها واختفى في البراري المظلمة. صار شبحًا. بينما كنت أنا بجثتي المتفحمة متماهيًا في الظلام والعتمة.

وأنت؟ سأل آدم الحارس.

أنا..؟ أنا نفسي لا أعرف كيف وجدت نفسي هنا في هذه الغرفة المعدنية الجدران؟ لكنني أتذكر نفسي بعد مغادرة الجندي الأسير وتماهيه في ظلام الليل وعتمة البراري، بأن توجهت إلى الحدود لأجتازها. وما أن خطوت خطوتين وصرتُ في المتر الأول من أرض بلادي حتى أحاطتني مجموعة من الأشباح. لا، لا، مجموعة أشبه بالزومبي. موتى أحياء مثلي، لكنهم ليسوا مثلي...

من هم؟ وماذا فعلوا بك؟

لا أعرف من هم..!. لكن كان واضحًا بأن لديهم سلطة حتى وهم موتى أحياء..

وماذا فعلوا معك؟

كما هو متوقع، فقد حققوا معي. أفهموني بأنني مكثت في مشرحة البلاد المجاورة فترة طويلة. وإن البلاد الآن تحت سلطة الزومبي

العراقي. وأنا متهم في نظرهم حتى تثبت براءتي، لكنني أخبرتهم بأنني من أبناء النظام الجديد، ولم أكن أسيراً، وأخوتي شخصيات بارزة في النظام الجديد. ومع ذلك بقيت متهمًا في نظرهم. وسألوني إن كنت مشاركًا في تظاهرات تشرين؟ وحينما نفيْتُ ذلك سألوني هل أنا مؤيد لها أم لا؟ والحقيقة لم أفهم ما يقصدون!!.

قصتك غريبة. ووجودك في المشرحة لوحدك أغرب. قال آدم الحارس.

لا أعتقد إنني وحدي. بدأت أشك في ذلك. أظن أنني في مكان مغلق، وأنا لستُ وحدي!؟ كيف؟ ألم تقل إنك وحدك هنا ولا أحد غيرك؟

نعم.. صحيح.. لكنني سمعتُ ضجيجًا يأتي من خلف الجدار الخلفي لغرفتي. وأظن هناك غرف أخرى وقاعات وممرات. فالضجيج ينم على وجود موتى أحياء مثلي. مهلاً. مهلاً. أسمع ضربات من الجدار المجاور.. ثمّة من يكلمني. وانقطع الصوت. وأنطفأ المصباح الشاحب المعلق فوق الباب الحديدي. فغرق النفق من جديد في الظلام.



(3)

## شمعة في نفق مظلم

في عتمة النفق الغامضة لاحت نقطة ضوء. بدت مثل مثل نجمة تومض وتختفي أو مثل شعلة متذبذبة. كان الصبي آدم خائفًا وهو يمسك بجذع آدم الحارس ويحطيه بذراعيه. وكلما توغلا في أعماق النفق واقتربا من نقطة الضوء، تذبذبت أكثر.

حينما اقتربا وصارا على بعد عشرين مترًا أتضح لهما بأن هناك إنسان يجلس وهو يحمل شمعة. يمسك بيده شمعته وبكفه الأخرى يحيطها كي لا تتطفئ.

حينما صارا على مقربة منه، بل أمامه تمامًا، ارتد آدم الحارس للوراء من هول الصدمة، وتشبث الصبي به بذراعه مذعورًا.

كانت الرجل بلا عيين، بل لقد قُلت عيناه وليس في وجهه سوى كهفين مظلمين يذكران بوجود عيين تم اقتلاعهما. كان الرجل يردد:

أنا الذي رأى كل شيء.. أنا الذي رأى كل

شيء..! أنا كلكامش الأعمى، كلكامش الخائف  
من جيفة الموت، كلكامش الخائب الذي انتصرت  
عليه أفعى فقضمت زهرة الخلود..! أنا اللاشيء  
القادم من اللاشيء. أنا الذي رأى كل شيء، ولم  
يرَ شيئاً سوى الظلام..! الظلام.. الظلام..  
الظلام..!

فجأة، انتبه الرجل حامل الشمعة لوجود من  
يقف أمامه. وسأل:

هل هناك أحد؟

صمت آدم الحارس للحظات، ثم قال:

أنا آدم الحارس. حارس مشرحة بغداد..

مشرحة بغداد؟

نعم.. مشرحة بغداد

هل نحن في بغداد؟

نعم.. هكذا أعتقد.. لكننا الآن في نفق

مظلم.. لا أدري إلى أين يقود؟

ظننت أنني كنت في السماوة.. في سجن نقرة

السلمان..! ما زلتُ أسمع أنين السجناء الشبان

الذين كنتُ أسحب دمهم يومياً كي يرسل إلى

الجبهات، ونجري عليهم التجارب الكيماوية،

أسلحة بايولوجية تستورد من أوروبا وتجرب على

هؤلاء الضحايا المساكين، الذين هجروا أهاليهم

إلى البلد المجاور بحجة تبعيتهم لها، بينما تجرى التجارب الكيماوية والأسلحة البايولوجية على أبنائهم قبل استخدامها في الجبهات وتسحب الدماء من شرايينهم لترسل إلى المستشفيات وإلى جبهات القتال.

أنت تتحدث عن الحرب مع الدولة الجارة؟  
نعم..

لكن مضى على ذلك عقود من الزمان. سقط النظام الذي خاض تلك الحرب، وجاء نظام جديد. ألا تعرف ذلك؟

لا. لا. لقد قبضوا عليّ، وأقتلعوا عينيّ لأنني رأيت كل شيء. لأنني رأيت كل شيء. أنا كلكامش الحزين مفقوء العينين. أنا العتمة الباهرة، أن الزمن الميت الحي. أصبُ لعناتي على هذه الأمم الحقيرة. أصب لعناتي على تلك العقائد التي تدعو إلى الحروب، وتدعو إلى الكراهية، وتدعو إلى التعصب، واحتقار الآخر، باسم المقدس، مقدسها الخاص الذي يمنحها أفضلية على الآخرين.... أصب لعناتي على نفسي، لأنني انتمي لهذه البقعة من الأرض. أنا كلكامش الأعمى. سليل الأنوناكي.

من أنت؟

صمت الرجل لوهلة، ثم قال متممًا وكأنه يحدث نفسه:

أنا رجل مفقوء العينين يحمل شمعة في نفق.  
ما قصتك؟ ولماذا أنت هنا؟ ومن فقأ عينيك  
واقتلعهما من محجريهما؟

أنا خلاصة رحلة من العذاب والإثم والخطيئة.  
عشت تجارب ليست سوى خطايا. لكن ماذا تفعل  
أنت هنا؟ وأين نحن بالضبط؟

لا أدري أين نحن. وأنا لستُ وحدي، فمعي  
الصبي آدم الصغير، رافقني منذ لحظة خروجي  
من المشرحة بعد أن فرّت الجثث كلها.  
فرّرت؟

نعم.. كل الجثث التي كنتُ أحرسها في  
المشرحة قد فرّت منها، ورأيتها تسير في  
المدينة. لم يبق في المشرحة سواي وسوى  
الصبي آدم الصغير. وحين غادرنا المشرحة،  
رأيتُ في شوارع بغداد كلها جثثًا تمشي.. العديد  
من تلك الجثث أعرفها. جثث كانت في المشرحة،  
لكنها كما أنا وأنت.. جثث حية. لكنني وجدت  
أيضا فريقًا من الفئران الكبيرة التي أشبه بكلاب  
كبيرة، مدججة، وتسير بطريقة منظمة وعسكري،  
وخلفها زومبي، وحشد من الجثث الهاربة.

قاطعہ الرجل مفقوء العینین قائلًا:  
نعم.. نعم.. رأيتها بعین الظلام.  
ماذا؟ كيف رأيتها وأنت بلا عینین؟  
نعم.. صحيح إن عیني قد اقتلعتا من  
محجريهما، لكنني أرى بقوة الظلام. الظلام الذي  
في المحجرين.. أرى بعین الظلام، رأيت حشودًا  
من الزومبي قد مرت من أمامي هنا في هذا  
النفق.

هل هذا يعني أنك ترانا الآن؟  
لا.. لكنني أستطيع أن استحضرك في ذهني.  
لا أراك رؤية العين.. لكن أراك بعین الظلام..  
والظلام لا يرى سوى الظلام..! أنت ظلام يمشي  
في الظلام. كلنا نمشي في الظلام.!  
فجأة انطفأت الشمعة في يد الرجل مفقوء  
العینین. عمّ الظلام. لم يعد آدم الحارس يرى  
شيئًا. عمّ الصمت للحظات. فأراد أن يتأكد من  
وجود الرجل حامل الشمعة، فسأل:

هل أنت هنا؟

لم يجبه أحد، فكرر سؤاله:

هل أنت هنا ياكلكامش الأعمى؟

لم يجبه أحد. نظر آدم الحارس إلى آدم  
الصبي. لم يره لكنه كان يحس بوجوده لأن الصبي

آدم متشبهت به، فسأله:  
هل ترى شيئاً يا آدم..؟  
فتمتم الصبي بصوت خائف:  
لا. لا أرى شيئاً. أنا خائف. دعنا نمشي من  
هنا.

احتوى آدم الحارس كتفي الصبي آدم الصغير.  
وسارَ بحذر في ظلام النفق. لأشياء سوى  
الظلام. وتذكر آخر جملة سمعها من الرجل  
مفقوء العينين:

أنت ظلام يمشي في ظلام.. كلنا نمشي في  
الظلام.

سأل آدم الحارس نفسه:  
كلنا نمشي في الظلام جملة مفهومة، لكن  
أنت ظلام يمشي في الظلام جملة غامضة. ماذا  
تعنى بها؟

حاول تفسير الجملة وهو يمشي مع الصبي  
معتمداً على معارفه الفكرية والفلسفية والأدبية،  
لكنه لم يستطع سوى استذكار أبياتاً من رباعية  
شاعره الإنكليزي المفضل، الذي حفظ ترجمة  
إحدى رباعياته، فأخذ يتمتم بها مع نفسه:

ظلام ظلام ظلام،  
جميعهم يمضون فى الظلام،  
فى الفضاء الخالى ما بين النجوم،  
الفراغ فى الفراغ.

القباطنة ورجال البنوك ورجال الكلمة  
المرموقين،  
ورعاة الفن الكرماء ورجال الدولة والحكام،  
وكبار رجال الحكومة ورؤساء عديد من  
اللجان،  
وسادة الصناعة وصغار المقاولين،  
جميعهم يمضون فى الظلام.

وظلام هى الشمس والقمر والتقويم  
وجريدة البورصة ودليل المديرين.  
وتبرد الحواس ويضيع الدافع الى الحركة،  
ونذهب جميعا معهم فى الجناز الصامت؛  
جنازة لأحد؛ فليس هناك من يدفن.

وقلت لروحى اسكنى ودعى الظلام يحل عليك  
والذي سوف يكون ظلام الله،  
كما فى مسرح عندما تخفت الاضواء بحفيف

أجنحة جوفاء،  
وحركة الظلام على الظلام.

في تلك اللحظة التي كان فيها آدم الحارس  
منشغلاً مع نفسه، سمع أصواتَ قادمة من  
البعيد. فانتحى جانباً ملتصقاً بجدار النفق وهو  
يضم الصبي آدم إلى نفسه.



(4)

## الغرفة الزرقاء...

### قوادة بغداد في زمن الحصار

لا يعرف آدم الحارس كم مر من الوقت عليه وهو، مع الصبي الذي يحتضنه، ملتصق بجدار النفق. فليس هناك زمن في الظلام. لا وقت في النفق المظلم.

كان الصمت مهميناً على النفق. لا نأمة تُسمع. وشيئاً فشيئاً فك نفسه من على الجدار، ومسك بكف الصبي آدم وأخذا يمشيان في الظلام.

بخطواتٍ حذرةٍ وبترقبٍ لأي مفاجأة كان آدم الحارس يمشي. فجأة، وعلى غير توقع، سمع صرخات أنثوية عالية، تأتي من عمق النفق. تقدما في النفق مشياً. فلاح ضوء أزرق يرش مساحة من أرضية النفق.

أخذا يسرعان الخطى نحو تلك المساحة المضاءة. وحينما وصلا إليه. انتبها إلى أن الضوء يأتي من نافذة جانبية. نافذة حديدية

محصنة بقضبان سميكة تفصل بينها مسافات  
قصيرة جدًا، تطلُّ على غرفة مضاءة بمصابيح  
زرق. وفي عمق الغرفة تجلس امرأة في ثوب  
أبيض شفاف يبدو أزرق من توهج الضوء الأزرق.  
كانت الغرفة مليئة بالكتب. وكانت المرأة مثل  
حامل الشمعة، كلكامش الأعمى، كانت عمياء  
ومفقوءة العينين. ومع ذلك كانت تمسك بكتاب  
بين يديها.

كانت جالسة على كرسيها من دون أية حركة.  
كأنها تمثال من الشمع، بعينين كأنهما مغارتين  
مظلمتين.

حين اقترب هو من النافذة رفعت رأسها  
وكأنها زومبي. كانت حركة آلية متقطعة. ونظرت  
بتركيز، من خلال محجري عينيها، اللذين وكأنهما  
مغارتين مظلمتين، إليه. لم يكن الصبي آدم  
الصغير بمستوى النافذة من ناحية الطول لذا  
كان آدم الحارس وحده يرى ما في الغرفة.  
انتبهت إلى وجود شخص ما أمام النافذة فسألت:  
من أنت؟

أنا آدم الحارس. لكن من أنت؟ ولم أنتِ  
وحدك في هذه المكتبة؟

كانت البحيرة متجمدة. الثلج كان ينهمر بشدة،

الصحراء بيضاء. والمطار كان مقفراً ولا أثر لأي إنسان. ما حدث لم يحدث أبداً. وما حدث قد حدث، وما يجب أن يحدث سيحدث، وما حدث لم يحدث أبداً.

لم أفهم..؟! تمتم آدم الحارس.  
هل سمعت تلك الأغنية الأجنبية التي عنوانها  
«لأنك أحببتني»؟  
لا..

تباً لك.. كلماتها تخفف عليّ وحشتي هنا في هذه الغرفة الزرقاء.

بدت المرأة وكأنها مجنونة. أحس آدم الحارس بالخوف منها مع أنه بعيد عنها، ويفصل بينهما جدار ونافذة ذات قضبان حديدية متينة.  
فجأة، تحركت المرأة عن كرسيها بحركة آلية. واقتربت من النافذة ماشية كما يمشي الزومبي، وحين صارت أمام النافذة قالت له:

من أجل المرات التي وقفت فيها بجانبني  
من أجل الحقيقة التي جعلتني أراها  
من أجل السعادة التي حملتها إلى حياتي  
من أجل الأخطاء التي صححتها لي  
من أجل الحلم الذي جسده لي واقعاً  
من أجل الحب الذي وجدته في أعماقك

سأكون شاكراً لك للأبد يا حبيبي.

أنت من ساندني..

لم تتركني أسقط أبداً..

أنت من عرفني حقاً طول الوقت.

لقد كنت قوتي عندما كنت ضعيفاً..

لقد كنت صوتي حينما عجزت عن الكلام..

لقد كنت عيني لحظة عجزني عن الرؤية..

أنت رأيت أفضل ما فيّ..

رفعتني إلى حيث لم أستطع التحليق

أعطيتني الإيمان لأنك آمنت بي..

فكل ما أنا عليه الآن

لأنك أحببتني.

صمتت المرأة للحظات، ثم واصلت:

لكن كل هذا كلام في كلام. فأنا المرأة التي

أحبت من دون حكمة. قامت من أجل حبها

المريض بجرائم مروعة، ومع ذلك انتظرت من

الآخرين أن يتعاطفوا معها ويتفهموا جرائمها

ويسامحوها..! لكن لا أحد سامحها. ولا أحد

تفهمها..، فقررت الانتحار. لم تقتل نفسها وإنما

دمّرت كل شيء، نفسها والآخرين. لم يبق من الحب في حياتها سوى تلك الكلمات من الأغنية.. فحياتها مثل البندول الذي كان يتأرجح بين الكراهية والانتقام.

لم يكن آدم الحارس يفهم شيئاً مما تقول وعمّن تتحدث. لكنها واصلت:

أتعرف يا أيها العابر الغريب. ما هو عقابي؟  
ما هو؟

عقابي هو إنني لم أمت موثاً. العودة للحياة الميتة هو عقابي. صحيح إن الموت ليس نزهة، لكنه اندماج مع اللانهاية.

أنا هنا، كما تراني، محاطة بمكتبة، لكنها مجرد ديكور لا أكثر. مغلّفات تشبه الكتاب لكنها فارغة. مكتبات للزينة. معرفة مزيفة وفارغة، بل إنها معرفة اللامعرفة. الكل يخاف المعرفة. حتى القدير في بعض الأديان نهى الكائن الإنساني الأول من الاقتراب من شجرة المعرفة، شجرة الخير والشر..!

من أنت؟ وكيف أنت هنا في هذه الغرفة الزرقاء؟ ولم أقتلعت عيناك من محجريهما؟  
حدقت المرأة في وجه آدم الحارس، وكان هو ينظر إلى أعماق محجريها الفارغين ككهدف

مظلم، وقالت:

دع عنك معرفة من أنا أو كيف وُجدتُ هنا،  
ولمَ جرى معي ما جرى، فكل القصص والحكايات  
تتشابه. لكن ببساطة أقولها، لقد اقتلعوا عينيَّ  
لأنني رأيتُ كل شيء، رأيتُ ما لم يجب أن يُرى...!.  
وماذا رأيتُ؟

دعك عن ذلك.. لأن ما سأرويهِ لا يعرفه أحد.  
إنه جزء من الخراب الذي عاشه هذا الشعب  
الضحية.

أنا أسمعك..

أنا حواء بنت الأحذب. كنتُ أشهر قوادة في  
بغداد. لدي بيت فاره، بل قصر فاره وواسع  
الجنبات في المنصور. وكنت أقيم فيه الحفلات  
والسهرات. كنتُ عشيقة لأحد أكبر المسؤولين  
في البلاد، لكن أحد أبناء رئيس البلاد رآني ذات  
مرة، فأمر عشيقتي بأن يتنازل عني له. وهذا ما  
حدث. المشكلة التي واجهتني هو أنني عشقت  
عشيقتي الأول لأنه كان فحلاً، ولديه تحفة لحمية  
رائعة، لذا كنت أتغاضى عن مغامراته الجانبية  
لأنني كنت أحلم بالساعة التي يكون فيها معي.  
أما ابن رئيس البلاد فكان عاجزاً، على الرغم  
من كل سمعته الفضائحية والدونجوانية.

طبعًا، ليست هناك أية امرأة كشفت عن ذلك،  
عن عجزه، لأنه يهددهن بأنه سيقطعن تقطيعًا،  
وهذا ما قام به فعلاً، ذات مرة، مع فتاة جامعية  
اختطفها رجاله من حفل زفافها له، وقد روت  
الفتاة لصديقة لها بأنه لم يمساها، بل كان يداعبها  
بأصبعه، فلم يمر وقت طويل حتى انقضت أجهزة  
المخابرات على الفتاة وصديقتها وأهلها،  
واختفى الجميع.

المهم، معي حدث الشيء نفسه، ولأنني أعرف  
شراسته وعنفه الوحشي فقد أخذت أروي قصصًا  
وهمية عن فحولته. وكان هو يعرف ويسمع ويصله  
كل شيء، لذا كان مرتاحًا معي، ومع أنه كان يأتي  
بنساء أخريات، لكنني كنت مدلته.

كان ذلك والبلاد تعيش حصارًا دوليًا، نتيجة  
مغامرة هوجاء قام بها رئيس البلاد على بلاد  
صغيرة مجاورة. المهم.. ذات مرة سافرت إلى  
بلد عربي مجاور، وطبعًا أنا أعرف أنني مراقبة  
من لحظة خروجي من منزلي بالمنصور إلى  
لحظة دخولي غرفتي في الفندق بعاصمة ذلك  
البلد المجاور..

هناك التقيت بطبيبة عراقية لديها عيادة  
كبيرة تشبه المستشفى. ويبدو أنها تعرف عني

كل شيء، فقد كنت في الأوساط الخاصة معروفة بعلاقتي بابن رئيس البلاد... تقرّبت هذا الطبيب مني، وذات مرة، وفي سهرة شربنا فيها ما يكفي لكي ننسى تحفظنا واحتراسنا ونباهتنا وحذرنا. وحينها، في تلك الليلة، فاتحتني تلك الطبيبة عن مشروع يدر علينا عشرات الألوف من الدولارات، بل مئات الألوف لو استمر بشكل جيد.

المشروع وما فيه هو أن البلاد تعيش حصارًا اقتصاديًا وسياسيًا محكمًا، بحيث انهارت المنظومة القيمية، فصار أستاذ الجامعة، بل والمراتب العسكرية العليا، تستخدم سياراتها الشخصية كسيارات أجرة وتاكسي. وصار طبق البيض يساوي مرتب شهر كامل لمدرّس، وصار الأطفال يموتون من نقص الطعام وفقدان الحليب وفقدان أبسط المقومات للاستمرار في الحياة... وانتشرت الدعارة، وزواج الفتيات القاصرات من أجل لقمة العيش.

المهم، أقنعتني تلك الطبيبة، بأن أستفيد من حالة الحصار، وذلك بأن آتي بفتيات مراهقات عذروات، باكرات، وأقنع أهاليهن، بأن يأتن معي إلى البلد المجاور للمشاركة في مؤتمر خيري. ومن هناك تقوم هذه الطبيبة بالتنسيق مع جهات



أخرى في ذلك البلد وبأحد البلدان الخليجية، بإرسال هاتيك الفتيات إلى تلك البلاد، بحيث يحظى بعض التجار هناك بفض بكارتهن مقابل خمسة آلاف دولارًا أو أكثر، وحسب الجمال والعمر. يبقين أسبوعًا هناك، ثم يرجعن للبلد المجاور لنا والذي انطلقن منه، لتقوم الطيبة برتق بكارتهن، وأعطاء كل واحدة ما يقارب ثلاثمائة دولارًا، لنعود بهن إلى بغداد باكرات، عذروات.

قمت بذلك بسهولة. لكن، كما هو واضح، فلم يخفى شيء على عشيقى ابن رئيس البلاد ولا عن سفارة بلادنا، فكانت التقارير تذهب إليه بعددهن والمبالغ المستحصلة، لذا كنت مضطرة إلى تقسيم المبالغ المستحصلة بيننا. نصفها لابن رئيس البلاد، وأنا والطيبة نتناصف الجزء المتبقي بعد أن نوزع على كل فتاة مبلغًا بسيطًا.

هل تصدق أن العديد من العوائل صارت تتوسطني من أجل الاتجار بفتياتها؟ هل كانوا يعرفون بما يجري أم يظنون بأنني أحتاجهن لخدمتي في المؤتمرات التي أقيمها في البلد المجاور...؟ لا أعرف.

اشتريت بيتا واسعًا (فيّلا) في ذلك البلد

الخليجي، بل توسعت تجارتنا، أنا والطبيبة، بحيث صرنا نتعامل مع أكثر من بلد خليجي. وطبعاً كنا نتوزع الأموال كما النسبة التي ذكرتها.

كان آدم الحارس مندهشاً مما تروييه، غير مصدق إن هذا جرى في بلاده، بل كان يستذكر في ذاكرته بعض الأفلام عن تجارة الدعارة من قبل المافيات في أميركا اللاتينية. لكنه سألها، لأنه أدرك بأن خاتمة الحكاية مختلفة، فهذه المرأة مقتلة العينين من محجريهما، وقالت له لأنها رأت كل شيء، فما الذي رآته كي تستحق هذا العقاب..؟ لذا سألها:

وما جرى في ما بعد؟

لا شيء. استمرت هذه التجارة. بدوري اشترت شققاً فارهة في الأبراج الشاهقة في بلدان الخليج، بل واشترت يخباً أبقيته في ذلك البلد الخليجي الذي كان منطلقاً لتجارتني. وحصلتُ على إقامة فيه، بل توسعت علاقتي مع شخصيات مهمة هناك.

لكن، كما تعرف، النفس أمارة بالسوء. وطمع الإنسان ليس في المال فقط، وإنما يطمع في السلطة، والشباب، والشهوات. الشهوة تقودنا من أنفسنا كما يقاد الدب إلى حلبة السيرك، لذا

تقرب مني شاب وسيم جداً، وشاكسني بجرأة،  
لكني كنت حذرة جداً، وكنت أحسب أنه مدسوس  
ومرسل من قبل جهة ما، فليس من المعقول أن  
أراه يطاردني في كل مكان، ويتقرب مني بجرأة  
غير طبيعية، متغزلاً بجمالي، غير آبه لأية رد  
فعل قد يصدر مني. وطبعاً كان ذلك في ذلك  
البلد البعيد.

وأقول لك بصدق. المرأة لغز. فمهما بالغت  
في الطهارة والحصانة، والتعفف، لكنها تضعف  
أمام جرأة الرجل الذي يقتحم موانعها ويتغزل  
بجمالها، حتى لو أبدت النفور والغضب العلني  
من ذلك، لكن في أعماقها ثمة رضا وقبول  
مكتوم.

أنا لستُ طاهرةً، ولا عفيفةً، فأنا قوادة لا  
أكثر.

ولا أعرف ماذا جرى وكيف جرى. فذات ليلة  
انتابني أرق، ولم أستطع النوم. وجاءتني رغبة بأن  
أقود سيارتي واتتزه في شوارع المدينة. وأذهب  
إلى ساحل البحر باحثة عن الهدوء، متأملّة  
حياتي الفارغة، التي فيها كل شيء، ومع ذلك  
لا شيء فيها، حياة فارغة.

كنت أعيش في منطقة هادئة جداً، لا نائمة

تُسمع فيها . شوارعها مقفّرة . فكلها قصور عالية  
الأسوار . المهم . ما أن خرجت من باب فيلتي  
حتى اعترضتني سيارة سوداء .

كنت منذهلة ، فقد كنتُ على وشك أن أصطدم  
بها . وفجأة ، خرج ذلك الشاب الجريء . أحسست  
بجسدي كله يرتعش . لم أكن أعرف ماذا أفعل .  
هل أتصل بالشرطة والنجدة أم أترك الأمور لأرى  
كيف ستنتهي . لم أشأ أن أفصح حالي ، فالأمر  
سيفسر على غير ما هو ، وأيضاً كان في نفسي  
شيء من رضاي وإعجابي بجرأته . قلت لك  
المرأة لغز .

المهم . اقترب الشاب مني ، وفتح باب القيادة ،  
وسحبني من ذراعي بقوة شلّتني . أخرجني من  
السيارة ، ومن ثم فتح الباب الخلفية لسيارتي  
ودفعني هناك ، ودخل معي ، ومن دون أي كلام ، مد  
ساقِي وسحب وسروالي ، ومن دون مقدمات ، ولا  
كلام ، وبرغم محاولاتي لإبعاده ، لكنه أولجه في  
بقوة وعنّف .

سأقول لك شيئاً . لو لم يكن هناك قبول  
نفسي لما يقوم به لما استطاع فعل ذلك . لقد  
مكنته من ذلك ، فبعد لحظات ، فتحت له ساقِي ،  
وسهّلت له الإيلاج . وكان مجنوناً ، فقد كررها

مرات، وبأوضاع مختلفة، وكنت وهو يلجني بقوة  
وبعنف وأوضاع مختلفة، أفكر مع نفسي، بأني  
أحتاج لرجل مثله. لكن علي المحافظة عليه  
وعلى سرية ما سيجري معه.

أنهكني وأنهكته. وحينما هدأنا. طلبت منه أن  
يدخل معي إلى بيتس الفاره بعد أن يركن سيارته  
في المرآب داخل بيتي.

وهكذا أتخذته عشيقا سريًا. عشتُ معه  
أجمل الأوقات. وصرت أقضي الكثير من وقتي  
في ذلك البلد. لكن الطامة الكبرى أنه اختفى  
فجأة.

لم أستطع أن أبلغ شرطة ذلك البلد عن  
اختفائه لأنه ليست هناك من قرابة أو علاقة  
تربطني به، وهو في عالمي أشبه بالشبح.

حاولتُ بشكل غير مباشر، مع بعض رجالات  
الأمن من تلك البلاد، مختلقة حكاية، بأن هناك  
عائلة في بغداد تبحث عن ابنها الذي انقطعت  
أخباره، ويردون معرفة إن كان قد تعرض لحادث،  
فكان هؤلاء الرجال يسعون بكل طيبة إلى  
مساعدتي، لكن النتيجة كانت: لاشيء.

وأخيرًا، لم يكن أمامي سوى التوجه إلى  
سفارة العراق في ذلك البلد، وأخبرتهم بأن أحد

العاملين لديّ قد اختفى. جلست في صالة الاستقبال منتظرة. وبعد قليل من ذلك قيل لي بأن القنصل يريد أن يتحدث معك.

حين دخلت عليه وجدتُ رجلاً آخر عنده، فعرفتُ بأن لديهم معلومات عن الأمر. قال لي القنصل، وهو يشير إلى الرجل الآخر: هو يستطيع أن يجيبك على سؤالك.

ومن دون مقدمات توجه إليّ ذلك الرجل قائلاً، بنبرة فيها عدم احترام مبطن:

نحن نعرف هذا الشخص. وهو حالياً في بغداد. يمكنك أن تذهبي فوراً إلى بغداد لتتقديه قبل فوات الأوان.

عرفتُ لحظتها بأنهم يعرفون كل شيء عنه وعن علاقته بي. ارتعبتُ. لكنني كنتُ قد أحببته فعلاً. وراودتني خاطرة بأن يمكنني أن أسافر إلى بغداد وأتوسل عشيقتي ابن الرئيس لأنقذ الرجل الذي أحببته بحق. ولم أنفق الكثير من الوقت لأحسم أمري. فقد حجزتُ بطاقة سفر عبر البلاد التي تعيش فيها الطيبة، ثم من هناك إلى بغداد، فلم يكن هناك رحلات طيران مباشرة بين بغداد ودول الخليج.

حين وصلتُ بغداد كان في استقبالني رجال قد

أرسلهم عشيقني ابن الرئيس، فأخذوني مباشرة  
إلى قصرٍ بعيدٍ من قصوره.

حين دخلتُ عليه وجدته جالسًا على كرسي  
بهي مطعم بالذهب، وأمامه يرقد فهد صغير  
ساكن الحركات لأنه قد شبع أو ربما قد خدروه  
كي يهدأ ويفقد شراسه واندفاعاته غير  
المحسوبة.

ما أن دخلتُ حتى ابتسم لي ابتسامته الشرسة  
الشريرة المليئة بالوعيد وقال من دون ترحيب أو  
آية مقدمات:

ما الذي قصرتُ فيه معك كي تخونيني مع  
واحد أجرب..؟

أحسستُ بأن الأرض تميد تحت قدمي. فأنا  
أعرف هذه النبرة حين يتحدث بها، فتمتتُ:  
أنا لم أخنك..

قهقهه قهقهة مصطنعة مليئة بالسخرية، فكدت  
أنهار ويغمى عليّ، لكنه واصل كلامه قائلاً:  
أنت تتكرين..! لكن عشيقك الذي خنتني معه  
اعترف بكل شيء..! بكل شيء.

حاولت أن أتماسك بكل ما لدي من جذوة  
الحياة، فلم يعد هدفي أن أنقذ عشيقني وإنما أن  
أنقذ نفسي، لذا استتهضت غريزة الحياة فيّ،

لذا لا أعرف ما أين جاءتني الوقاحة والجرأة  
لأرد عليه، ربما هي من شراسة ووقاحة القوادات،  
فلقد كنت على حافة الهاوية، لذا قلت:

إنه يدعي ذلك كي يسيء إليّ، فلقد ألح عليّ  
بأنه أشغله وأجد له وظيفة لكني رفضت..!

فقهقه قهقهة عالية مرة أخرى، ونظر لبعض  
الرجال الأشباح الذي يحيطون بالصالة التي  
يجري فيها الحوار، وقال لهم:

اسمعوها.. تقول إنه يدعي ذلك.. وهي لا تعرف  
بأننا أرسلناه لنختبر إخلاصها لنا. لكنها، مع  
الأسف، رسبت في الامتحان، بل صارت عشيقته،  
وصارت تتفق عليه من أموالنا، وهو الحقير  
بدوره انغمس في الدور وصار العاشق المتمرد  
الذي تحداني. نحن أرسلناه ليلعب دور العاشق  
وليختبر إخلاصك ووفائك لي أيتها القوادة  
الفاشلة، لا أن ينغمس في دور العاشق. وأنتِ  
امتحنت صبرك لكنك لم تصمدي أما قطعة اللحم  
التي اخترقتك، لم تستطعي السيطرة على  
شهوتك رجعت لأداء دور القحبة.

لدينا فيدوات مصورة تكشف لنا كيف كنتِ  
تتوسلينه كي يخرقك..! هو نفسه نصب لك  
الكاميرات وزودنا بكل شيء في البداية، لكنه



أطفأها في ما بعد، فأعتقلناه. دعونا إلى هنا  
لإنجاز مهمة، وهنا أبقيناها.

حينها أدركتُ هول الفخ الذي وقعتُ فيه.  
ولعنتُ ضعفي أمام فيضان النار التي كانت  
تتأجج بين فخذي، فلقد أنساني ذلك حذري  
الدائم من غدرهم، وشلَّ يقظتي التي لا تهدأ  
وتسكن، فأنا أعرف الناس بقساوة هؤلاء  
الخنازير. ومن دون انتظار لما سأقول أمر  
الآخرين:

هاتوه...

بعد لحظات دخل رجلان وهما يجرانه. كان  
عاريًا، مهشمًا، ملطخًا بالدماء والغائط. وانتبهتُ  
إلى أنهم قطعوا قضيبه واجتذوه من مكانه،  
وقطعوا شفتيه ولسانه، فكان وجهه مثل جمجمة  
ضاكة ملطخة بالدماء.

لم يكن هو ذاك الرجل الوسيم، المنتصب  
القامة الذي عرفته، الرجل الذي أحببته وقبلتُ  
كلَّ زاوية في جسده بنشوة وشبق. فالذي أمامي  
كان كتلة من الدماء والأعضاء المشوهة.

ومن دون كلام، أمر بأخذ الفهد الصغير من  
أمامه، فتقدم أحدهم وجرَّ السلسلة التي برقبة  
الفهد الصغير. وغادر الصالة. أما هو فقد التفت

إلى الرجال الآخرين وقال:  
قوموا بالواجب المعتاد.

صَفَّقَ أحدهم، فدخل رجلان يقودان كلبين  
كبيرين، أسودين، شرسين، من نوع الكلاب  
البوليسية الألمانية. يسيل اللعاب من جوانب  
فمهما ولسانيهما. وكانت أنيابهما المدببة الكبيرة  
مخيفة.

كان حبيبي في وسط الصالة وأنا على أحد  
جوانبها، حيث يقف رجلان إلى كل جانب مني.  
وفجأة أطلق الرجلان الكلبين الجائعين الشرهين،  
فأنقضا على الذي كان حبيبي.  
هل رأيتَ مثل هذا المشهد؟

هل رأيتَ يوماً كيف ينقض حيوانان مفترسان  
بوحشية على فريستهما العاجزة المستسلمة؟  
كنتُ سابقاً قد رأيت مشاهد فيديو عن  
افتراس الأسود والنمور للغزلان، ومن أين يعضان  
فريستهما كي تستسلم، لكنني لم أرَ كيف ينقض  
كلبان شرسان على إنسان ويلتھمانه..!

كم تمنيت لو أنهم أطلقوا الرصاص عليه قبل  
إطلاق الكلاب الشرسة نحوه لتتهشه. لكن مع  
الأسف كانت الوحشية البشرية في أقصى  
صورها التي يمكن تصورها.

أن تسمع بالأمر شيء وأن تراه بعينيك شيء آخر...!. كان الكلبان يعرفان كيف يفترسانه، فقد قفز أحدهما على رقبتة وأنبت ناييه القاطعين في شريانه، فأنهار إلى الأرض ربما من الرعب أيضًا.

كنت أراه يحرك يديه ويرفس بساقيه محاولاً حماية نفسه. وكانت صرخات الألم الوحشي تتعالى منه وتهز القاعة والقصر. ورأيت كيف كان الكلبان الذكيان بالغريزة يعرفان طريقة النهش، فقد ظل أحدهما قابضاً على رقبتة بأنيابه، بينما كان الكلب الآخر ينهش لحم فخذه حتى برز العظم. وكذلك نهش عضلاتي الساعدين. وشيئاً فشيئاً همدت حركته واستسلم لموته المرعب والمؤلم.

لقد رأيت كل شيء، كل شيء. رأيت كيف هشم أحد الكلاب جمجمته، وسمعت صوت تهشمها بين أنيابه، وكيف جرّها فتناثر دماغه على البلاط، فأخذ يلتهم ما تناثر من مادة شبه مخاطية من دماغه. وكيف نهش الكلب الآخر بطنه، وشقها ومزق أمعائه.

رأيت كل شيء. رأيت كل شيء.  
ولم تمض أكثر من عشرين دقيقة حتى لم يبق

من ذاك الذي كان حبيبي سوى بقايا غائط،  
وعظام ملوثة بالدماء ببعض اللحم. وتلافيف من  
الأمعاء والمثانة تلطخ بلاط القاعة.

إلى الآن وأنا ميتةٌ حيةٌ، استغرب شراسة  
وقساوة هؤلاء الناس. لقد كانوا جميعًا ينظرون  
إلى المشهد من دون تأثر أبدًا. وكأنهم ينظرون  
لمشهد من على شاشة التلفزيون، أو أنهم اعتادوا  
عليه من كثرة تكراره. لكنني انتبهت إلى أن ابن  
الرئيس كان يحدّق في وجهي بتركيز طوال  
الوقت.

لم أكن أستطع الوقوف. فقد أدركتُ نهايتي.  
ولا إرادياً سال البول من مثانتي، سال من بين  
ساقِيّ فأحاطتني دائرة البول. كان موقفي مخزياً،  
لاسيما وأن ابن الرئيس لم يرفع عينه عني. وكان  
ينظر إلى رعي وبولي على نفسي. كان ينظر إليّ  
وعلى وجهه ابتسامة مكشّرة ساخرة. ثم قال لي  
بنبرة هادئة ومحايّدة وبلامبالاة:

هل رأيتِ جزاء الخيانة؟ من يخونني هذا  
مصيره.

أنا لم أخنك أبدًا. تمتمتُ برعيّ وتوسل.  
صمتٌ للحظات، وقال:

أعرف.. ما يشفع لك هو أنك لم تذكريني

بسوءِ قط. هذا ما فهمناه منه، وما مسجل لدينا في الفيديووات والتسجيلات الصوتية الأخرى. لذلك لم ألق بك إلى الكلاب الجائعة. وأعرف إنك قدّمت لي خدماتٍ جليّة، ولأم تخفي عني شيئاً من واردتك مع تلك الطيبة، بل وسهّلت لنا الأمر بالتعامل مع بعض الشخصيات الخليجية والعربية التي تعمل هناك، لكن كونك ضعفت وفتحت ساقيك وفرجك لهذا الكلب كي يلعبه، فهذا أمر لن أغضره لك أبداً. أنت ملكي ولا أحد يمس ما أملكه. والآن، ولأنك رأيتي كل شيء، وهذا غير مسموح لك به أبداً، لذلك عقابك سيكون بأن أقتلع عينيك.

ذُهل آدم الحارس وأقشعرَّ خوفاً، وأشفق عليها لأنها رأت كل شيء، فسألها:

وهل اقتلعوا عينيك حينها فعلاً؟

لا.. تلك الحاشية اللعينة، التي لا تعصي له أمراً، عصوه قليلاً في هذا الأمر، أو لأقل بدقة أكبر، إنهم تأخروا في إنجاز العقاب. كيف؟ سأل آدم الحارس.

لقد أبقوني في إحدى الشقق، وكانوا يتناوبون على مضاجعتي، بل كان يلجني يومياً أكثر من عشرة منهم، وأحياناً الواحد منهم يكرر مضاجعته

لي ومن كل الجهات والثقوب. لكن ذات ليلة،  
جاءوا وهم يرتعشون، وأخذوني إلى غرفة جانبية،  
وحينها قال لي أحدهم: «أشفقنا عليك، ولم ننفذ  
العقوبة، لكنه سأل عليك الليلة، لذا ليس أمامنا  
سوى تطبيق العقوبة». وكان هناك طبيبان. ومن  
دون تخدير، تم اقتلاع عيني.

وماذا جرى بعد ذلك؟ سأل آدم الحارس  
مرعوبًا.

لا شيء.. أخذوني إليه بينما الدماء تسيل من  
محجري عيني. هل تصدق، إنني على الرغم من  
اقتلاع عيني، وربطهما بالشاش، كنتُ أرى الصالة  
كلها. كنت أرى بعين الظلام. لكن حدث ما لم  
يكن بالحسبان. فقد قال لي ابن الرئيس: «لن  
أقتلك. بل ستقومين بواجبك. تستمرين بما كنت  
تقومين به، لكن هنا في بغداد. سنزّوج لك  
باعتبارك كاتبة وشاعرة ومؤلفة عمياء، وسنشبهك  
بشعراء وأدباء عميان في تراثنا الأدبي. وأريد  
منك أن تأتيني بهاتيك المثقفات، اللاتي يشعرنني  
بالنقص، كي أضاعه. أريدهن وهن يلهثن تحتي  
ويتوسلنني بأن أخرقهن.

لم أفهم..!! ألم تقولي بأنه عاجز جنسيًا؟  
سأل آدم الحارس.

نعم هو كذلك.. لكن اسمع الحكاية وستفهم..  
صرتُ قوادة للمثقفات. فهو لديه عقدة اسمها  
«الثقافة». كان يشعر بالنقص أمام كل مثقف أو  
مثقفة، أو أديب أو كاتب أو شاعر أو أكاديمي، لذا  
نصب نفسه عميدًا للمثقفين والصحفيين والأدباء  
في العراق. لكن كانت هناك شاعرة متميزة،  
جميلة، وأنثى مثيرة، هي التي كان يسعى إلى أن  
تكون تحته وتتوسله، علمًا هو يعرف بأنه عاجز  
عن مضاجعة أية امرأة.

وهل حققت له رغبته؟

وهل لديّ خيار آخر. لقد صدرت كتب شعرية  
ونقدية باسمي، كتب لا علم لي بها ولم أكتب  
منها حرفًا واحدًا. وكانت الصحفُ تنشر مقالات  
نقدية عن كتبي وإصداراتي، بل وصل الأمر إلى  
كتابة أطاريح ورسائل جامعية عني في الجامعات.  
وصارت تقام عني الندوات التي تقدم فيها  
البحوث عن جماليات شعري، بينما أنا لم أكتب  
حرفًا واحدًا.

صرتُ شاعرة وأديبة كبيرة. وصرتُ قبلة لكل  
من تريد الشهرة. صار بيتي مكتبة هائلة.  
ديكورات لمكتبة. وصرتُ أستضيف الأديبات  
والمثقفات في بيتي. ولكن الهدف كان الوصول

إلى شاعرة محددة. هي ابنة لقائد عسكري معروف مقرب من الأب - الرئيس....

وذات ليلة جاءني بعضُ مرافقيه وقالوا لي بأنه سيزورني، وطلب مني دعوة تلك الشاعرة التي يرغب بها. طلبوا مني أن أدعوها وحدها. وفعلت. وهل لي ألا أفعل؟

وماذا جرى..؟ سأل آدم الحارس بلهفة.  
صمتت المرأة قليلاً، وكأنها تستعيد مشهد ما جرى، ثم واصلت:

جاءت الشاعرة. واستغربت حينما وجدت نفسها المدعوة الوحيدة، لكنها أدركت كل شيء حينما دخل هو إلى الصالة. واكتظ المكان بالحاشية من مرافقين ورجال أمن. والحقيقة، كان هو لطيفاً، ومهذباً في التعامل معها. وبعد قليل من الحوار، أخذ يغري تلك الشاعرة بالمناصب الإدارية والدبلوماسية والمالية، حتى اطمأنت له، بل وأخذت تتجاوب معه، فهي ليست بالغبية، وكانت مستعدة لتقديم الثمن، عرفتُ ذلك من خلال خبرتي كقوادة. إذ أخذت تتحدث عن اليونسكو وأهمية أن يكون العراق نشطاً في تلك المنظمة، بل وتحدثت عن المركز الثقافي في إحدى الدول الأوروبية، وكأنها تعلن عن رغبتها



في التعيين بتلك المناصب.  
وكيف انتهت تلك الأمسية..؟  
انتهت تلك الأمسية بنهايتي.  
كيف؟

كانت تلك الشاعرة الجميلة طموحة فعلاً. ولم  
تفوّت تلك الفرصة، لذلك حينما دعاها إلى  
الطابق العلوي كي يتناقش معها حول مقترحاتها  
لبتّ دعوته بفرح وعدم اعتراض، وصعدا كلاهما  
إلى غرفة نومي الواسعة.

كان هو في تلك الأمسية يتكئ على عصا من  
الخيزران الصقيل. وكان يستخدمها أحياناً بعد أن  
شفي من محاولة اغتيال تعرض لها. المهم. مرّ  
بعضُ الوقت وأنا كلي توجس وانتظار، فأنا أعرف  
أنه عاجز جنسياً ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، وجلّ  
ما يمكنه هو استخدام لسانه في اللبس وأصابعه  
في الإيلاج. لكن فجأة، سمعنا صرخة ألم عالية  
جداً. وهمد بعدها كل شيء.

ماذا جرى؟ سأل آدم الحارس.

لم يتحرك أحد من الحاشية، بل بعد قليل،  
نزل هو وغادر المنزل مسرعاً، لكنني انتبهت إلى  
أنه نزل من دون عصاه، فقد كان يتكأ على حاجز  
السلم.

صمتت المرأة قليلاً، فسألها آدم الحارس:

وكيف كانت تلك الأمسية نهايتك؟

حين عجز عن مضاجعة تلك الشاعرة الجميلة، حاول اخترقها، بكل قوة وشبق، بعصاه الغليظة الملساء الصقيلة. فشق رحمها وأخترق أمعائها، فماتت على الفور.

أما أنا، فما أن غادرَ وغادرتَ الحاشية، حتى رجعتُ اثنان منهم، ورشاني بسيل من الرصاص، ثم أجلساني على كرسيّ هذا، في صالون بيتي.

وماذا جرى بعد ذلك؟

لا شيء.

لا شيء

نعم.. لا شيء.. لقد استمرتُ بغداد بحزنها سادرة في هذا الكابوس المرعب المخيف، الذي لم يتوقف قط.

كانت المرأة قد صمتت وأنهدت رواية حكايتها، لكن فجأة، اكفهر وجه المرأة. وارتعشت شفتاها. وتراجعت للوراء مرعوبة، حتى كادت تنقلب هي وكرسيها، لكن آدم الحارس، قبل أن تتراجع، رأي في ظلام محجريها رأس أفعى هائلة تريد الانقضاض عليه من الخلف.

صرخت المرأة في اللحظة التي همّت الأفعى  
أن تنقضّ فيها على آدم الحارس من الخلف، وهي  
تقول:  
أخفّض رأسك..

ومن دون أن يلتفت آدم ليرى ما خلفه تربع  
على الأرض مع الصبي. فارتطم رأس الأفعى  
بقضبان النافذة وانحشر قليلاً بين قضيبين، بل  
دخل الرأس بين القضيبين من شدة الانقضاض،  
فلا هي تستطيع سحبه وتحريره ولا أن تدخل  
أكثر عبر القضبان الحديدية الضيقة المسافة  
لضخامة جسمها.

استغل آدم الحارس محاولة تحرير الأفعى  
لرأسها من بين القضيبين، فقفز إلى جانب  
النافذة، مبتعداً عن النافذة، فهاله ما رأى. كانت  
أفعى هائلة من نوع الأناكوندا، ملتقّة بطريقة  
دائرية لكنها قفزت لاقتناص رأسه، فانحشر  
رأسها بين قضيبين النافذة، ولأنها لا تستطيع  
سحب رأسها، لذا بدأت تفك من حلقاتها  
والتفافها حول نفسها.

مسك آدم الحارس بيد الصبي آدم وأخذا  
يركضان في النفق المظلم بسرعة هائلة وهما  
مرعوبان من رؤية الأفعى. فجأة، لم يستطع

الصبي آدم من المشي. أحس بما يشبه الشلل في ساقيه، ولم ينتبه آدم الحارس لذلك، إلا بعد أن شعر بأنه يسجل الصبي الصبي آدم الصغير سحلاً.

وفي الظلمة رفع آدم الحارس الصبي واحتضنه وحمله وواصل الركض. ومن شدة رعبه لم يشعر بالتعب إلا بعد زمن لا يعرفه قط. لكنه كان واضحاً بأنه قد قطع مسافة طويلة في النفق المظلم.

توقفا عن السير بعد أن أحس بأن قدميه لا تستطيعان حمله للسير أبعد. اتكأ بظهره على الجدار محتضناً الصبي آدم. فجأة أحس بعناء وجود الصبي آدم الصغير معه، لكنه في الوقت نفسه قال محدثاً نفسه:

«إن وجود الصبي آدم الصغير يعني إنني موجود، فحين غادرنا المشرحة كان السؤال الذي يشغلني هل أنا حي أم ميت؟ لكن الآن ما يشغلني هل أنا موجود أو لا؟! وجوده يحسني بأنني موجود..! لكن كيف يتحقق الوجود؟ الموتى موجودون أيضاً. أجسادهم.. جثثهم باقية، وحتى إن تحللت فأنها تتحول من حالة إلى أخرى، من مكونات كيماوية- فيزيائية إلى أخرى. يعني

الإنسان الميت لا يختفي في العدم، وإنما يبقى موجودًا، وماهيته تبقى منفصلة عن وجوده. الروح هي التي تختفي..!».«.

وعلى الرغم من الوضع الذي هو فيه، لكنه ابتسم من نفسه ساخرًا وهو يقول لها:

بأية حال أنا، بينما أتفلسف عن الوجود والماهية..!! لكن كيف جاءت هذه الأفعى الأواكندا إلى هذا النفق المظلم..؟ وإلى أين ذهب الزومبي، وحشود الجرذان هائلة الحجم؟ وإلى أين يقود هذا النفق المظلم؟ ومتى سأخرج منه؟

ومن دون أن يتعب ذهنه بمزيد من الأسئلة التي لا إجابات لها سار بخطى وثيدة في النفق المظلم.

(5)

## تداعيات آدم الحارس

ظل آدم الحارس والصبى آدم يمشيان في ظلمة النفق. جلسا عند حافة الجدار بعد أن شعر آدم الحارس بأنه يحتاج إلى الراحة، لاسيما وأن الصبى كان يبدو وكأنه أنهدك من التعب، فجلسا. ويبدو أنهما أطلاا الجلوس عند الجدار. فجأة، فز كلاهما، على ضوء ساطع قادم من أعماق النفق وصوت سيارة مسرعة مرت من أمامها من دون أن ينتبه أحد فيها إلى وجودهما. استغرب آدم الحارس مرور السيارة المسرعة. فكّر مع نفسه بأن «النفق يقود إلى مخرج بالتأكيد، فمن أين دخلت هذه السيارات؟ وإلى أين تمضي؟ المهم هناك مدخل أو مخرج في نهاية النفق..». وهذا ما منحه شيئاً من الأمل، لكنه قال في نفسه أيضاً: «لكن لا أمل للموتى. الأمل للأحياء. أما الموتى الأحياء فلهم اللانهاية..!».

بعد أن اختفت السيارة في الجهة الأخرى،

وتلاشت في الظلام وكأنها لم تكن، واصل آدم الحارس، وهو ممسك بكف الصبي آدم الصغير، سيره في أعماق النفق.

من بعيد لاحظ له أضواء تتوهج وتختفي، فأسرع في سيره لأنه يعرف عند كل نقطة ضوء ثمة حكاية جديدة تنتظره. لكنه، كلما كان يقترب يدرك بأن نقاط الضوء لا تزال بعيدة أو تبعد وكأن هناك من يبعدها قصدًا.

فكّر مع نفسه، لربما تأتي من قبل هؤلاء الذين التقاهم في بداية النفق بشارع المتبني، والذين تركوه وتوغلوا في النفق، هؤلاء الموتى بلا قبور..!

فجأة، ومن دون أن يعرف كيف حدث ذلك، وجد نفسه مع الصبي على بعد أمتار من نقاط الضوء. وكأنهما لعبة على شاشة كمبيوتر تم رفعها ووضعها قرب نقاط الضوء..!

في تلك اللحظة خطرت في ذهنه الفكرة نفسها وسأل نفسه: «ربما نحن مجرد لعبة كمبيوترية بأيدي كائنات أخرى!! تفعل بنا ما تشاء وتقلنا أو تلغينا أو تضعنا في أماكن غريبة خلال ثانية واحدة لا أكثر. وأن كل ما يجري هو مجرد وهم في وهم، وإنما نيام في بعد آخر من

الزمن والوجود أو كائنات افتراضية في لعبة كمبيوترية كونية هائلة...!». .

ظل آدم الحارس مستغرقًا في أفكاره. أحس بعجزه عن إيجاد إجابة عن أي من تساؤلاته. ظل جامدًا في مكانه ولم يتقدم نحو فرجات الضوء التي صارت قريبة. وعلى الرغم من يأسه في إيجاد إجابة على تساؤلاته لكن راقه أنه يفكر، فهو يجد متعة في التفكير، بل يتذكر راسكولنيكوف الذي قال إن مهنته هي التفكير.

كان في حيرة من أمره. أيتقدم أم لا؟ تنحى جانبًا عن وسط النفق وجاء إلى الجانب، إلى جدار النفق. اتكأ بظهره على الجدار وإلى جانبه الصبي آدم الصغير. وشيئًا فشيئًا أخذ ينزل بجسده إلى الأسفل حتى تقرفص في جلسته وظهره إلى الجدار. وكذا فعل الصبي آدم الصغير.

كان آدم الحارس يستمتع بالتوغل في أسئلته عن معنى الحياة. ووجد نفسه في منولوج داخلي: «ما معنى الحياة؟ ما مغزى دورة الحياة هذه؟ لماذا جننا؟ ولماذا وجد الوجود؟ ولماذا الحياة ليست سوى رحلة قصيرة بين الولادة والموت...!»

(في بدايتي نهاتي...!) هكذا قال الشاعر ت. إس. إليوت. أو كما قال هيغل بأنه في لحظة



الولادة يبدأ العد التنازلي للحياة نحو لحظة الموت..! في كل بداية تكمن النهاية، وفي كل نهاية هناك بداية جديدة. وإذا ما كانت الولادة تنتهي بالموت في دورة الحياة، فمنذ لحظة الموت تبدأ اللانهاية.

مرةً قرأت لأحدهم، أعتقد ديورانت، يقول بما معناه إن الإنسان بالنسبة لعالم الفيزياء ليس سوى حزمة من الجزيئات أو الذرات والألكترونات والبروتونات، بينما هو بالنسبة لعالم في الأنسجة مجرد ترابط بين العضلات والعظام والأعصاب. وبالنسبة إلى الطبيب فهو كتلة حمراء من الأمراض والآلام. وبالنسبة إلى عالم النفس، فهو كتلة من العقد والموروثات الواعية وغير الواعية، تقوده غريزة الجوع والجنس، لذا فإن أي تصور للإنسان عن نفسه مجرد وهم من الأوهام.

لكن هذا المفهوم عن الإنسان والحياة هو حياة هذا الجسد. بيد إن الإنسان ليس جسداً فقط..! فعلى مدى تاريخه أطلق هذا الكائن البائس آراء وأفكار ونظريات عن الإرادة والحرية وطرح أسئلة عن الخالق القدير، وعن الكون والوجود والماهية والكينونة. وتوغل في أعماق الكون. ووصل إلى لحظة الخلق والانفجار

العظيم..! فهو ليس مجرد أوشال ودم وبول غائط  
وغرائز نهمة وعقد نفسية غامضة وإنما هو  
عقل مفكر جبار.

بلى.. لكن هذا الكائن مع كل جبروت عقله  
فهو لاشيء أما العقل الكوني. كذب من أعتقد  
بأن الإنسان أعلى مرحلة من مراحل التطور  
الكوني. الحياة البيولوجية ليست هي الشكل  
الوحيد للحياة، فحتى بعد الموت الجسدي،  
تستمر الحركة والتحويلات في الجسد، حيث  
يتعفن ويتفسخ ويتحول. أي الحياة تستمر بأشكال  
أخرى.

الإنسان كائن منافق، بائس، منحط، نتن،  
ظلوم، عاجز، كذاب، حسود، حقود، منتقم، ماكر،  
ومع هذا فهو متكبر جدًا. هو أقسى المخلوقات.  
ما سمعته من الرجل المتفحم، ومن الرجل مفقوء  
العينين ويحمل شمعة، والقوادة الأدبية، يكشف  
عن قساوة هذا المخلوق المنحط الذي يعد  
نفسه سيد الأرض، علمًا أن كل سكان الأرض من  
البشر لا يتجاوزون بضعة مليارات، بينما الأشجار  
تشكل عشرات المليارات وكذا الحيوانات بكل  
أنواعها أضعاف مضاعفة قياسًا لأعداد البشر..!  
في إحدى رسائل أخوان الصفا أُجريت

مفاضلة بين الكلاب والقطط والبشر، وقد قدّمت الكلابُ مداخلاتٍ هائلةً ومنطقيةً وعقليةً في أفضليتها على البشر، لكن أخوان الصفا في تلك المحاججات انحازوا للإنسان باعتبار إن الله خلق الإنسان على صورته، وهو خليفته في الأرض!!.

أترى صورة الله هي تشبه صورة الإنسان؟ هل الخالق محدد الجسد كالإنسان؟ إذا كان كذلك فهل هو ذكر أم أنثى أم خنثى؟ وإذا ما كان آدم هو الإنسان الأول، فلماذا يرسله الخالق إلى الأرض ليكون خليفته، بينما الأرض خالية من البشر، بل مكتظة بمليارات الأشجار والحيوانات من الديناصورات إلى الأسود والنمور والديبة والحيتان والأفاعي والأوكوندا، ولم يكن هناك أي إنسان؟

وإذا كان الخالق القدير قد قدّر بأن تكون هناك بشرية فلماذا عاقب آدم بالطرد من الفردوس واعتبر ما فعله خطيئة؟ لماذا افتعل القدير قصة الخطيئة ما دام هو أراد أن يجعل في الأرض خليفة؟ لقد قال الرب إجابة على اعتراض الملائكة بأنه يعلم ما لا يعلمون، فمن أين لإبليس أن يعرف ما سيقترفه آدم وذريته؟ ومن أين يعرف بأنه ستكون له ذرية أصلاً؟ وإلا

كيف يحتاج إبليس الرب بأنه سيغوي البشر؟  
ولماذا يقسم الرب بأنه سيملاً جهنم ممن يتبع  
إبليس؟ أيعني أن الرب القدير قد خلق جهنم قبل  
أن ينزل آدم إلى الأرض؟

أيعني أنه قدر مسبقاً من سيدخل جهنم ومن  
سيعيده إلى الفردوس؟ وما ذنب هؤلاء الذين  
كتب الرب عليهم بأن يدخلوا جهنم؟ أليست هذه  
قسمة ضيزى؟

ثم إن الله يغفر الذنوب كلها إلا الشرك به..!!  
والله القدير قد أعطى إبليس وعداً إلى يوم  
الدين كي يحاسبه!! طيب.. ما دام الله يغفر كل  
الذنوب إلا الشرك به، فإن إبليس أصلاً من أكبر  
الموحدين، بل هو لم يسجد لآدم لأنه لا يسجد  
إلا لله، فكيف سيحاسبه ولا يغفر له؟؟

ثم دعني من كل هذه الأفكار الخطيرة، ولأفكر  
في نفسي.. أنا نفسي من؟ من أنا؟ وهل حياتي  
التي عشتها وأعيشها الآن هي حياة؟ أنا كنت  
ميتاً في الحياة وها أنا حي في الموت!

أية حياة حقيرة عشت..! بؤس وحرمان، ولولا  
الكتب والأفلام والموسيقى لما وجدت معنى  
لوجودي؟ ولكن هذا بالنسبة لي، فهناك من لا  
يقرأ ولا يستمع للموسيقى ولا يشاهد الأفلام!

ربما حياته تدور بين الأكل والتغوط  
والجنس..!وربما لا يتعب نفسه بالأسئلة والتفكير؟  
بل حتى أنا لا أستطيع التخلص من حيوانيتي..!  
ومن الجيد أنني الآن لا آكل ولا أتبول وأتغوط..!  
هل أنا إنسان الآن أم جثة تمشي؟ هل أنا روح أم  
شبح؟ لماذا أعذب نفسي بالتفكير والأسئلة؟ ما  
هذا الوعي الشقي الذي يجتاحني.  
لأحاول إيقاف التفكير وصد الأسئلة، فلا  
شيء في جوهر سؤال الوجود سوى الولادة،  
والتوهج، ثم التفسخ والهرم، وبعد ذلك الانحلال  
والموت. لكن هل أن ما بعد الموت هو اللانهاية؟  
ولماذا وجد الموتُ أصلاً؟ بل لماذا وجد الوجود؟.  
ثم لماذا أنا مشغول بذاتي؟ لقد ولدت ونشأت  
مئات الحضارات بل آلاف الحضارات البشرية  
لكنها اندثرت واختفت وكأنها لم تكن أصلاً، إلا  
بعضها..أقصد الحضارات الحجرية، ولولا الحجر  
لما عرفنا شيئاً..! كما وُجِدَتْ عشرات السلالات  
من الجنس البشري واختلفت وتقاتلت وسحقت  
إحداها الأخرى، مثلما دمّرت كل حضارة الحضارة  
التي سبقتها..!

لماذا نرى أن بعض الحضارات الموهلة في  
القديم لديها إنجازات مذهلة محيرة للعقل، أكبر

من كل تقدمنا التقني، بل ظلت لغزا محيّرًا بالنسبة لنا في كيفية تحقيقها، كالأهرامات مثلًا، أو دخول الشمس إلى أعماق معبد أبوسمبل يوم ميلاد الفرعون، أو تعقيد وخرابة بناء بعض المعابد الهندية والكمبودية، سور الصين بطوله، أو رياضيات ومعابد المايا...!. بل، أين تلك الحضارات الأسطورية؟ كالسومرية، والأكادية، البابلية والأشورية، والإيلامية والأوغارتية، أين اختفت؟ وما هي حقيقة حضارة الأطلننتس..!

بل، لماذا كان أرسطو يؤكد بأن كل ما نراه هو تكرار وتغيير عابر وسطحي، مجرد تغيير وتحول في الوسائل والأشكال، أما الجوهر فهو نفسه..؟! كيف يأتري يكون كل شيء مجرد تغيير..! وماذا عن المركبات الفضائية التي وصلت إلى الكواكب الأخرى؟ نحن ندور في حلقة دائرية مغلقة أم نسير إلى الأمام كالسهم..؟! الشك وحده يقودنا إلى اليقين.

هل الحضارات هي الوجه الآخر المُحسّن والأنيق للوحشية والعنف الدموي والاستبداد؟! ولماذا نفسر ما نسميه معالم حضارية وننسى جانبها المظلم..؟! أليست الأهرامات هي تجسيد للعبودية المخيفة والاستبداد الوحشي الذي دفع

بعشرات الألوف من البشر على مدى عشرات  
السنين لبناء قبر ومدفن للفرعون؟  
كم يأتري من العبيد ولدوا، كبروا، عملوا،  
هرموا، ثم ماتوا وهم لا يعرفون سوى حمل  
الصخور وصفها، وهم بينون الأهرامات، أو معابد  
المايا المدرّجة أو المعابد الهندية الغربية  
التصميم..؟!؟

الحضارات، بكل عظمتها، دليل آخر على  
وحشية الاستبداد البشري والقوة الغاشمة  
وعبودية البشر..!.. العلم.. العلم وحده، والتجربة  
العلمية، المختبرات، هي معبد الإنسانية  
الحقيقي.

التاريخ، التاريخ الحضاري للبشر ليس سوى  
متحف للعنف الوحشي والاستبداد المهين والقوة  
الطاغية العمياء..! التاريخ، هذا العبء الثقيل،  
الكابوس، الذي يعكّر صفو الواقع الحاضر،  
والذي يخلق لدينا ازدواجيتنا الشخصية من  
خلال كل ما يتغلغل فينا لإرادياً. وإرادياً.

هذه الشواهد التي نسميها حضارية هي  
ليست سوى متحف لمخلفات العنف والوحشية،  
والدمار والسقوط الأخلاقي. لكن هل يمكننا أن  
نعيش من دون التاريخ؟ التاريخ ذاكرة.

نحن من دون تاريخ نبقى بلا ذاكرة. ومن دون التاريخ لا وجود للأخلاق، فالأخلاق زبدة من مفاهيم وقيم وأحكام وصلتنا من الماضي. تمت صياغتها من قبل غيرنا ووصلتنا كأحكام، وكقيم، وما الأحكام سوى خلاصة تجريدية لتجارب خائبة، أو ردود فعل على خيبات تاريخية كبرى.

ومع أن هناك صفحات بيضاء لكنها مجرد صفحات وسط مجلدات من الكتب السوداء التي تؤكد سقوط البشر الأخلاقي في دوامة العنف والطغيان والوحشية، وأكبر دليل على هذا السقوط هو الأسلحة، فالأسلحة وحدها هي التجسيد الحقيقي لتطور البشرية المخيف، فمن الحجارة إلى العصا، ثم السهام والسيوف، الرماح، ومن الهجوم الفردي إلى الهجوم الجماعي، فمن هجوم فرد على فرد إلى هجوم عائلة على عائلة، إلى هجوم عشيرة وقرية إلى على أخرى، ومن هجوم مدينة على أخرى، ثم هجوم بلاد على أخرى، ثم بلدان على بلدان..!! ومن الهجوم الأرضي إلى الهجوم البحري، وأخيرًا الهجوم الجوي والفضائي.

من الرماح إلى السيوف، إلى البارود، إلى البنادق، إلى المدافع، إلى الدبابات، ثم إلى



الطائرات، وبعد ذلك القنابل النيوترونية. تقدم  
البشر يتجلى في تقدم الأسلحة..!

لكن مالي وأنا في هذا النفق المظلم أفكر  
بكل هذه الأشياء؟ الأولى بي أن أفكر أين أنا؟ بل  
ومن أنا؟ أنا كائن تاريخي؟ لا. الإنسان صانع  
نفسه وصانع التاريخ. وورغبته في البقاء هي التي  
دفعته إلى العمل، وإلى البحث عن الغذاء، وإلى  
الصيد، والزراعة، وإلى القتل، والحروب.

أنا الآن لا أكل ولا أشرب..! أنا كائن لا  
تاريخي..! لكن ما زالت لدي الرغبة في البقاء..!  
لا أريد الفناء..! تلك هي الحقيقية وإلا ماذا أفعل  
هنا؟ ولماذا أهرب وأتخفى من الزومبي؟ ومن  
الأواكوندا، والفئران الهائلة الحجم  
والمدمجة..؟ رغبتني بعدم الفناء هي حقيقة؟ لكن  
ما هي الحقيقة؟

الإغريق هم الذين فصلوا بين الحقيقي  
والمزيف، بين المعقول والمحسوس، كي يحسموا  
الأمر بوجود حقيقة مطلقة، بينما جاء آخرون  
وقالوا إن الحقيقة ليست سوى تطابق بين  
الموضوع والفهم..!

فكلما فهمنا الواقع اقتربنا من الحقيقة..! لكن  
فهمنا قاصر ونسبي، أي أن الحقيقة التي نكتشفها

تبقى قاصرة ونسبية وذاتية...!، وكل ما نصوغه عنها من معرفة ومفاهيم تبقى معرفة مزيفة وناقصة.

لكن أليس من المثير للسخرية أن أنشغل أنا، آدم الحارس، الميت الحي، أو الحي الميت، بكل هذه الأفكار بينما أنا قابع في ظلمة هذا النفق الغامض؟ لماذا لا أسأل نفسي بأنني أفكر في أمور تخص البشر البيولوجيين، اللاهثين وراء الأكل والجنس والمحكومين بالتغوط...؟!؟

نعم البشر كائنات بيولوجية محكومة بضرورات التبول والتغوط، حالها حال أي حيوان. قد يستطيع الإنسان أن يصوم عن الطعام والشراب لفترة، لكنه لا يمكنه ألا يتبول ويتغوط مع أنه صائم أو مضرب عن الطعام والشراب...! ثم أن الإنسان يمكنه أن يحدد نسبيًا متى يأكل، لكنه لا يقرر متى يتغوط أو متى عليه التبول...! قانون التغوط والتبول يحكم حياة الإنسان...!

الموتى الأحياء والموتى عموماً لا يتغوطون ولا يبولون...! أتذكر ثمة كاتب مجنون كتب رواية بعنوان «متاهة قابيل» وعنون أحد فصولها، وهو يتحدث عن الأرض، بأنها «كوكب الخراء»...!

آخ من التفكير؟ الموتى لا يفكرون فهم سادرون  
في النوم الأبدى. الموتى الأحياء وحدهم من  
يفكرون. لكن دعني من كل هذا، إذ عليّ أن أفكر  
كيف أخرج من هذا النفق المظلم؟ ومتى تنتهي  
رحلتي فيه؟ ثم... من ترى بنى هذا النفق؟.

أنا ولدتُ في بغداد لكني لا أعرف بوجود  
هذا النفق المظلم قط...!!؟ وبما أنه تم بناء  
جدرانه من الأسمنت والحجارة الصلدة، فكيف  
لم يضاء بالكهرباء ولم توضع فيه علامات  
إرشاد؟ أتري هناك سجون سرية في هذا النفق؟  
ثم إلى أين اتجهت حشود الزومبي؟ وكيف دخلت  
أفعى الأواكوندا المخيفة إلى هذا النفق؟ ومن  
أين جاء قطيع الذئاب!!

قطع عليه تداعياته صوت أنثوي قام من  
منطقة الضوء المتلألئ المتذبذب:

هل هناك أحد؟

وكما جلس القرفصاء وهو متكئ بظهره إلى  
الجدار هكذا صعد بجسده وظهره إلى الجدار.  
وحين صار واقفا تحرك نحو بقعة الضوء.

(6)

## سرداب حواء الضائعة

### هل هناك أحد؟

اقترب آدم الحارس، فوجد بابًا صغيرًا  
بدرفتين تتحركان بسهولة للداخل والخارج كما  
في الحانات التي كان يراها في أفلام الكابوي.  
وقف مع الصبي أمام الباب مترددًا، أيدخل أم  
يواصل طريقه..؟! . هيمن السكون على المكان.  
سمع الصوت الأنثوي مرة أخرى، وكأن صاحبة  
الصوت انتبهت لوجودهما:

هل هناك أحد؟ تقدم أيها الواقف هناك؟

ظل آدم الحارس والصبي شبه مشلولين في  
مكانهما. فكَّرَ آدم الحارس بأنه ربما إذا ما دخل إلى  
ذلك المكان الغامض ستطبق الجدران ويسجن  
هناك، لذلك عليه ألا يدخل أو عليه أن يتحدث معها  
عن بعد. لكنه سأل نفسه: تُرى من هي؟ وكيف تبدو؟  
وما هي قصتها؟ كيف هي في هذا المكان ذي الباب  
المفتوح ولا تغادره؟ ألا تخاف؟.

من هناك؟ تقدم أيها الواقف هناك. لا تخف.  
أنت في مشرحة بغداد..!  
صُدم آدم الحارس بما سمعه منها. وتردد  
صدى جملتها في نفسه: «لا تخف. أنت في  
مشرحة بغداد»..؟! . تقدم خطوة وهو يقبض على  
كف الصبي آدم الصغير. لم يدخل. وإنما وقف  
أمام الباب المتحرك المفتوح.  
مَنْ هناك؟

صمت آدم الحارس للحظات، ثم تمتم بارتباك:  
أنا.. أنا آدم الحارس..  
هل أنت حارس أم لقبك الحارس؟  
لا.. أنا آدم حارس مشرحة بغداد.  
حارس مشرحة بغداد؟ أية مشرحة؟ أنا هنا  
في حانة الانتظار التابعة لمشرحة بغداد.  
أحسَّ آدم الحارس بالخوف يتلاشي شيئاً  
فشيئاً عن نفسه. ووجد نفسه مشغولاً بقضية  
المشرحة، فقد مر بأماكن أخرى تحمل اسم  
مشرحة بغداد، فقال لها:  
لكن المشرحة موجودة في باب المعظم وليس  
هنا في هذا النفق الغامض، لاسيما وأنا وجدتُ  
في هذا النفق أماكن مختلفة كلها تحمل اسم  
«مشرحة بغداد»..؟! .

تعالت ضحكة فيها شيء من السخرية، وجاء  
تعليق الصوت الأنثوي:

بغداد كلها، بل العراق كله مشرحة كبرى.  
الأوغاد جعلوا البلاد مشرحة كبرى. أئى توجهت  
فأنت في مشرحة بغداد.

صمت آدم الحارس، فقد وجد أن في كلامها  
شيء من الحقيقة، مع المبالغة في الاستعارة.  
ووجد نفسه يسأل:

كيف جئتِ إلى هنا؟ ومن أنتِ؟  
جاء الصوت الأنثوي دافئاً:

تقدم.. لا تخف.. أتريد أن تعرف حكايتي  
وكيف جئتُ إلى هذه المشرحة؟ لا تخف تقدم.

أنا لستُ وحدي..!

ماذا تقصد؟

معي صبي اسمه آدم الصغير.. تركته جدته  
في مشرحة بغداد بعد أن هربت مع من هرب  
من الجثث الحية هناك. وهو معي الآن.. فلا أحد  
لديه غيري.

يا للمسكين... تقدماً إذن..!

تقدم آدم الحارس وهو يقود الصبي آدم نحو  
الباب ودفع أحد درفتيه ودخل، لكنه وقف عند  
أول خطوة بعد الدخول.

فوجئ آدم الحارس. كان المكان مختلفًا. كانت غرفة عارية من كل شيء. زنزانة اسمنتية الجدران، فارغة، وعلى جانب منها سرير طبي إلى جانبه طاولة عليها أدوات طبية جراحية، أنواع المشارط، والمقالع، وجرافات طويلة، وإبر كبيرة الحجم، وبدت تلك الزاوية وكأنها مكان لإجراء عمليات جراحية أو للتعذيب.

وما أن نظر إلى المرأة حتى جفل وارتدّ للوراء. كانت امرأة في بداية الثلاثينات، لكنها مقتلعة العينين أيضًا. حضرتان غائرتان مظلمتان وواسعتان تحتل مساحة وجهها الذي يشير إلى جمال صاحبه في حياتها الاعتيادية. بل إن المحجرين الفارغين كانا أوسع مما يفترض أن تكون العينان وهما يحتلان مساحة كبيرة من وجهها، وكأن فراغ محجريها يذكر بالصور الافتراضية لمخلوقات الفضاء التي شاهدها في الأفلام.

كانت المرأة تجلس على كرسي حجري. والغرفة تبدو وكأنها زنزانة في قلعة حجرية قديمة. وعلى جدران المكان مواضع علقت فيها ما يشبه المقابض التي وضعت فيها شموع متقدة. لكن الشموع لم تستطع أن تزيح عتمة

المكان بالكامل، فالضوء التي تمنحه للمكان كان شاحبًا. وبدت المرأة المفقوءة العينين شاحبةً أيضًا.

ارتعش الصبي آدم الصغير حين رآها، فتشبث بذراع آدم الحارس من دون أن يقول شيئًا. ووجد آدم الحارس يسألها بتوجس:  
كيف وصلتني إلى هنا؟

أنا التي أريد أن أسألك. كيف جئت أنت إلى هنا..؟ أنا لم أر غير الجلادين والقتلة.

أنا لا أعرف كيف جئت إلى هنا. كل الجثث هربت من المشرحة، ولم يبق فيها غيري وغير الصبي آدم، فغادرنا المشرحة. وحين كنت في منطقة الميدان رأيتُ فصيلًا من الجرذان الكبيرة كالخرفان، لكنها مدججة.. وحين وصلنا شارع المتبني هجمت عليه وقضمت كل الكتب التي تمتلئ بها المكتبات هناك. هربنا أنا والصبي آدم، فوجدتُ زاوية هناك، فتحة تشبه النفق، فلذتُ إليها وهناك رأيت بعض اللائذين والمختفين فيها، ووجدت نفسي في نفق مظلم. ومنذ ذلك الحين ونحن نمشي في هذا النفق الغامض من دون أمل في الخروج منه، ويبدو لي أنه لا أمل لدينا للخروج من هذا النفق المظلم



الذي نسير فيه .

فقاطعته المرأة مباشرة وكأنها كانت تعرف ما رواه أو ما سيرويه، وقالت وهي تطأطأ رأسها:  
لا أمل للموتى، الموتى لا ينتظرون شيئاً! وكما ترى.. ها أنا أجلس هنا في حانة الانتظار منذ سنين، لكني لا أنتظر شيئاً أبداً، فلا شيء يحدث ولا أحد يجيء .

لكن كيف جئتِ إلى هنا؟

رفعتُ المرأة رأسها إليه وكأنها تراه بمحجري عينيها وقالت:

أنا لم أجيء إلى هنا بإرادتي، إنما وجدتُ نفسي هنا .

كيف؟ سأل آدم الحارس .

أنا حواء الضائعة. الضائعة لقب أطلقته على نفسي لأنني ضائعة فعلاً. نشأتُ في عائلة يسارية الفكر، تؤمن بالعدالة الاجتماعية والتوزيع العادل للثروات، مع أنها عائلة متوسطة الحال، وميسورة الحال بالقياس إلى شرائح أخرى من المجتمع .

كان والدي يسارياً، وأُعتقل في سجون نقرة السلطان بعد الانقلاب على زعيم البلاد في بداية الستينات. كنا ثلاث بنات وأخوان اثنان. حين

كنتُ صغيرة، في السادسة، كنت أذهب مع أُمي لزيارة أبي في السجن البعيد القابع في عمق الصحراء. كان أبي يحب أن يراني في كل زيارة على خلاف أخواتي وأخوتي الذين كان يسأل عنهم ويتابع أخبارهم، لكنه كان يصر على أن يراني.

كانت كل زيارة هي رحلة مرهقة لأُمي ولي أنا التي أصطحبها دائما. تلك الزيارات شكّلت نبعا لذكرياتى عن الناس والبلاد.

كل الرحلة من بغداد وصولاً إلى تلك المدينة التي على مشارف الصحراء كانت رحلة غنية بالناس والوجوه. ثم الرحلة من تلك المدينة وصولاً إلى السجن وقلعته الشهيرة رحلة أخرى مليئة بالخوف والكوابيس التي شكّلت اللبّات الأولى لتصوراتى السياسية وأيضاً لتعلقي الشديد بأبي.

لكن حدث ذات مرة. وفي إحدى الزيارات حين طلبنا رؤية والدي، لم يحضر، بل أخبرنا المسؤول في السجن بأن والدي توفي متأثراً بوباء تفشى بين السجناء ولم يستطع جسده مقاومته فمات. وتم دفنه في الصحراء. وحينما طلبنا زيارة قبره تردد المسؤول كثيراً وقال بأن

الأمر ممنوع، لكن أحد الحراس هناك أخبرنا بأنهم وجدوا القبر منبوشًا، فربما أكلته ذئاب الصحراء.

زياراتي مع أمي لذلك السجن ساهمت في تشكيل عالمي النفسي، فنشأت وأنا حاقدة على السلطة، ومتعطشة للحرية. لكن بالنسبة لأختي وأخوي فقد كانوا في عالم آخر، لاسيما أن أمي تزوجت من ابن خالتها الذي يكبرها بعشر سنوات بعد أشهر من وفاة أبي.

زوجها كان متشددًا في أمور الدين بجهل وتعصب. وكانت أمي، مع كل الفارق في التعامل والتفهم والحرية بين زوجها الأول الذي هو أبي وزوجها الجديد، إلا إنها كانت تستعطفة وتتذلل له، فقط من أجل أن يرضى عنها وينام معها، فكأنها أرادت أن تعوض سنوات الحرمان الجنسي التي عرفتتها حين كان أبي في السجن، لذا لم تعترض على طريقته المتشددة والمبالغ فيها دينيًا سواء معها أو في تعامله معنا.

حين كنتُ في التاسعة، فاجأته في موقف مشين، فقد رأيتَه يتلصص على أختي الكبيرة وهي في الحمام، حيث كان مقرفصًا وينظر من ثقب مفتاح الباب، إذ كنا قد فقدنا المفتاح وصار

لزاما إغلاق الباب برتاج صغير من الداخل.  
وحين أخبرت أمي استغربت، لكنها تعوذت بالله،  
بل نهرتني وكذبتني وهدتني إذا أخبرت أخوتي  
بذلك فستعاقبني. ثم قالت إنها ستتصرف، لكنها  
لم تفعل شيئاً. ونُسي الأمر.

وتكرر الأمر بعد سنة، حيث رأيت ذات ظهيرة  
صيفية يتلصص على أختي وهما نائمتان القيلولة  
في غرفة الضيوف، وكثيراً ما كانت ثيابهما  
البيتية تتزاح قليلاً عن ساقيهما. لكني وجدته  
يداعب ما بين فخذه وهو يلهث.

ومرة أخرى أخبرت أمي، فهاجبت عليّ  
ومسكتني من كتفي وهزتني مهددة بأنني أفترى  
عليه، وأنتي كاذبة وألقي عليه تهماً غير صحيحة،  
بل وكل ما أقوله هو زور وبهتان. لكن الشك أخذ  
منها مأخذه فقالت بأنها ستتأكد بنفسها من  
الأمر، وأنها ستحدثه لكن عليّ أن أصمت. لكنها  
هي التي صمتت، فهي لا تريد الحرمان من  
ممارسته الجنس معها. هكذا فهمت الأمر لاحقاً  
بعد أن بلغت الرشد.

حتى معي، وأنا الصبية، كان بيدي لطفاً  
زائداً.. وأتذكر حين كنت في السابعة كان يجلسني  
في حجره، لكنني كنت أحس بقضيبه المنتعظ

وسط مؤخرتي، بل ومرة مد كفه تحت ثوبي حتى وصل إلى سروالي الداخلي فأدخل أصابعه من أحد جوانبه وأخذ يداعيني. خفتُ حينها أن أخبر أمي، فهي لا تصدقني في كل الأحوال، وربما ستلقي اللوم عليّ.

وتكرر الأمر مرات ومرات. لكن حدث الشيء الأكبر معي حين كنتُ في الثامنة. فذات مرة خرجنا جميعاً للذهاب إلى زيارة العتبات المقدسة، لكننا لم نصل إلى كراج السيارة، بل في منتصف الطريق، قال إنه نسى شيئاً في البيت وعليه أن يرجع، وطلب من أمي وأخوتي انتظاره في كراج السيارات، وطلب مني أن أذهب معه لجلب ذلك الشيء الذي نساه.

ما إن وصلنا حتى أخذني إلى غرفة النوم، إلى سرير أمي، وألقاني هناك، وعزّاني من ثيابي. كنت خائفة منه. أخذ يداعيني، ويلحسني بلسانه في كل مكان، ثم تعرى هو نفسه وألقى بنفسه عليّ حتى تدفق ماؤه، فظننته حينها إنه بال عليّ. ثم مسحني بورق التنظيف الشفاف. وهددني إن أخبرت أحداً سيقتلنا جميعاً. وتكرر الأمر. حتى إنني اعتدت عليه. بل وصرت استغرب يوماً إذا ما توقف عنه، أو أنه لم يقتص فرصة

لاحتضاني وتقبيلي أو مداعبتي. وطبعاً لم أخبر أمي ولا أي شخص آخر.

لكن الكارثة حدثت بعد عامين حين تفجرت عائلياً فضيحة مجلجلة بحمل أختي الكبرى. لم يكن أحد في البيت يعلم بما جرى سوى أختي وهو وأمي.

وذاً ليلة صيفية، وكنا ننام على السطح، شبّت النار في صحن الدار. وسمعنا صرخة وحشية، وحين هرعنا إلى حيث الصرخة، كانت أختي الكبرى قد صارت كتلة من اللحم المشوي.

نُقلت أختي على عجل إلى المستشفى بسيارة الإسعاف. أمي صعدت معها، وأختي وأنا. وفي الطريق اعترفت أختي رداً على صراخ أمي فيها: «لماذا فعلت ذلك؟» فكانت إجابتها صادمة: «لأنني حامل من زوجك يا أمي». فأخذت أمي تلطم خديها وتمزقهما بأظافرهما. لكن أختي لم تستطع المقاومة ففارقت الحياة وهي في سيارة الإسعاف.

بعد أن عدنا إلى البيت، ومن دون أن نعرف، أخذت أمي مديّة حادة من المطبخ، وفي فجر اليوم التالي سمعنا صرخة زوج أمي. فقد قطعت أمي قضيبه بالمديّة الحادة النصل، ثم هوت

عليه كالمجنونة طعنا وتمزيقًا بالمديّة، فمات في فراشه فورًا. أما أمي فقد سُجنت لأعوام طويلة. ونسيت هناك إلى أن ماتت. فقد رفض أخوتي زيارتها، لأنهم حملوها جريرة كل ما حصل. ومع ذلك لم يعرفوا حقيقة وسبب انتحار أختي.

انتقلنا بعد ذلك للعيش في بيت عمي. وهو مدرّس يساري الأفكار مثل أبي، لكنه لا يمارس السياسة. وهناك فتحتُ عينيّ على مكتبة رائعة تضم روائع الكتب الأدبية والفلسفية والنفسية والاجتماعية. ووجدت نفسي أتتبي أفكار أبي وعمي، لكنني مثل عمي نضرتُ من السياسة التي تجر إلى كوارث ومعاناة وسجن وعذاب.

مع مرور السنوات، وتطور مداركي الفكرية، أخذتُ أستعيد ذكريات زياراتي لأبي في السجن. وأستعيد وضع زوج أمي، وتحرشاته الجنسية بي وبأختي. ولم يكن أحد يعرف تفاصيل ما جرى بينه وبين أختي المتوفاة، هل اغتصبها وحملتُ منه، أم هي أحبته، ثم اندفعت معه في تجارب جنسية وحين حملت خافت الفضيحة فحرقّت نفسها..؟!، فهي لم تقل سوى إنها حامل من زوج أمي، وماتت.

أمي وحدها ربما تعرف السر، لذا قطعت

قضيبيته، ومزقته إربًا. لكن أُمي ماتت بمرض السل في مستشفى السجن بعد سنتين من سجنها. وقد كنت أود زيارتها، لكن أخوتي وعمي رفضوا ذلك ومنعوني من الذهاب لزيارتها.

كنت أريد أن أتحرر من عائلتي. لذا كنت متفوقة في دراستي وتخرجتُ بمعدل مع الأسف لم يساعدني في تحقيق طموحي بدراسة القانون. حين دخلتُ الجامعة، كنت في تخصص التاريخ القديم. لم يزعجني أو يحبطني ذلك كوني كنت أريد دراسة القانون، إذ كنتُ مولعة بالتاريخ والآثار وتاريخ الأشياء والأشخاص والأديان والعقائد.

كنتُ مكتظة بالشكوك عن حقيقة هذه الأديان التي تدعي بأنها مرسله من السماء. و كنت أقرأ في كتبٍ ليست تقليدية وبعيدة عن الروايات الرسمية عن الأنبياء والأديان والوحي، لذلك كنتُ أحلم بأن أكون باحثة رصينة في تاريخ العقائد كنت أريد أن أفكك ما تم تلقيننا إياه من تأريخ ديننا وسيرة النبي هو الدين الذي أسسه العباسيون وفق مصالحهم. فأول سيرة للنبي كتبت في بداية تأسيس الدولة العباسية، والأحاديث التي تُسمى الصحاح كتبت وصُنفت بعد 200 إلى 300 سنة



من الهجرة. كما كانت لديّ الشكوك عما جرى في الفترة الأموية التي امتدّت لتسعين عامًا. عمومًا، كنت أسعى لأكون باحثة أكاديمية تبحث عن الحقيقة. لكن من أين لنا أن نعرف الحقيقة؟!..

في الجامعة تقرب اليساريون مني، لاسيما وهم قد عرفوا، ولا أدري كيف عرفوا، بأن أبي كان يساريًا منظمًا مثلهم وكان سجينًا في نقرة السلطان. ومع كل محاولاتهم وتقريبهم وعلاقتهم الطيبة معي لم تجد نفعًا في أن أنتمي إلى تنظيمهم..! ومع ذلك ظلوا يكتّون لي احترامًا خاصًا ويعدّوني واحدة منهم.

كنت معجبة بشجاعته. ففي بلاد هي ليست سوى سجن كبير وكابوس أسود مخيف فإن هؤلاء الشباب يتحدون كل العتمة ويحلمون بالنور وضوء الشمس الذي يجب أن يضيء هذا الوطن المنكوب. ومع ذلك كنت غير مستعدة لتحمل الوجد والخوف والرعب من السلطة المستبدة، فقد كنت مرعوبة من فكرة السجن، فنقرة السمان ظلت قابعة في أعماقي.

ذات يوم، كنتُ خارجة من الكلية. كنت أسير على الرصيف. وإذا بسيارة تويوتا بيضاء وقفت

جانبا ونزل منها اثنان. طوقاني بسرعة خاطفة. مسك كل منهما بإحدى ذراعيّ. وبسرعة شديدة أخذاني إلى السيارة وأدخلاني عنوة فيها، وانطلقوا.

كان هناك بعض الأفراد الذين رأوا كل شيء. رأوا كيف تم اختطافي، لكن لا أحد منهم تحرك أو قال شيئاً، فقد كان الجميع يعرف أن هذه السيارات تعود لجهاز الأمن والاستخبارات، والناس كانت مرعوبة.

انطلقت السيارة مسرعة، وفي منعطف خالٍ من السابلة، توقفت. أخرجوني، واتجهوا بي إلى سيارة كبيرة تشبه سيارات نقل البضائع. فتحوا الباب الخلفي العريض ودفعوني إلى داخل الصندوق، فوجدت نفسي أدوس على أجساد بشرية مكدّسة هناك.

لم أعرف السر وراء اختطافي، فأنا لستُ سياسية، لكنني أيضا لستُ عضوة في الحزب الحاكم. ولم أستطع أن أرى أحداً في ذلك الصندوق الذي حشرنا فيه.

كان هناك شيء من الاطمئنان في نفسي بأن هناك سوء فهم، فمن المؤكد إن هذه الدولة البوليسية تعرف أنني غير منتمية لأي تنظيم

سياسي.

سارت بنا السيارة في منعطفات، واستدارت  
مرات ومرات، إلى أن توقفت، فعرفت أننا وصلنا  
إلى المكان المنشود.

حين فُتح باب السيارة فوجئتُ حين رأيت  
عددًا كبيرًا من الفتيات والشبان ينزلون منها.  
ولم أكن أتوقع هذا العدد كان محشورًا في الجزء  
الخلفي من السيارة. وكان واضحًا على بعضهم  
أنهم تعرضوا للضرب أثناء الاعتقال.

تبينتُ أشكالهم، فعرفت بينهم بعض الوجوه  
من زملائي وأخرى لا أعرفها. بعضهم حليق  
الوجه وبعضهم ملتح، بل ورأيت بعض الفتيات  
مثلي سافرات وبينهن بعض المحجبات.

وبسرعة شديدة، كأن كل شيء كان معدًا  
مسبقًا، وزعونا وتلاشنا بسرعة في زنازين  
وأبواب خفية. أنا أخذوني بشكل منفرد. أدخلوني  
على مسؤول في ذلك المكان. وكان ضابطًا في  
منتصف الثلاثين تقريبًا، وسيما، أنيقًا، متعجرفًا.  
ما إن رأني حتى أخذ يطلق صفيحًا من بين  
شفتيه، إعجابًا بشكلي وهيئتي. وهذا ما زادني  
رعبًا.

نظر إليّ وقال مبتسمًا:

أتعرفين لماذا اعتقلناكِ؟  
حينها عرفتُ بأنني معتقلة، لكنني أجبتُه  
بخوف:  
لا..

ابتسم أكثر وقال:  
لأنك مثيرة.. جمالك المثير سبب اعتقالك..  
صُدمت، إذ لم أفهم ماذا كان يقصد، فقد  
كانتُ أشبه نكتة سمجة أراد أن يعبرَ فيها عن  
خفة دمه فيها، لكنه ابتسم أكثر وقال:  
أمزح معك. اعتقلناكِ لأنك معادية للحزب  
والثورة. وتعملين مع هؤلاء العملاء والجواسيس.  
عملاء موسكو وإيران.

أدركتُ لحظتها بأن ثمة خطأ في الأمر  
واشتباه مقصود أو غير مقصود، فلا بد هم  
يعرفون بأنه لا علاقة لي بأي تنظيم سياسي.  
فقلت:

أنتم تعرفون بأنني لست سياسية ولا انتمي  
لأية جهة سياسية. وإنني أركّز على دراستي  
فقط.

نظر إليّ نظرة مخاتلة، وغمز بعينه وهو  
يبتسم:

نعم.. هذا ما اعتقدناه سابقًا، لكن إحدى

القحبات السياسيات من رفيقاتك اعترفت وقالت بأنك معهم أيضًا في تنظيم الجامعة، بل أنت مسؤولة كبيرة لأنك لا تختلطين معهم حفاظًا على سرية مكانتك.

صُدمت. حاولتُ أن أوضح له:

هذا كذب وزور.. واجهوني مع هذه التي اعترفت ضدي أو أي شخص تثقون به وسيخبركم بأن هذا افتراء لا أكثر.

وتحدثتُ كثيرًا. كان هو لا يعير لما أقوله اهتمامًا، فكل شيء محسوم سلفًا. كل ما قلته كان من دون جدوى، إذ أدركتُ حينها بأن الأمر لا علاقة له بالاعتراف عني ولا بعلاقتي بأي تنظيم سياسي.

ثم قام عن كرسیه واستدار حول طاولته وصار خلفي مباشرة، التصق بي، وفجأة احتضنني من الخلف، ثم مدّ كفه وأخذ يعصر نهدي، بل ومدّ كفه الأخرى ليمسك ما بين فخذي، فاستجمعتُ كل قوتي، دفعته وحررتُ نفسي منه، ثم استدرت نحوه وبصقت عليه احتقارًا ورفضًا لما قام به، كرد فعل طبيعي ينسجم مع شخصيتي واعتدادي بنفسي، فما كان منه إلى أن وجه إليّ صفة قوية أدارت الدنيا في رأسي. ووقعت على

الأرض شبه مغشياً عليّ.  
كنت خائفة القوى. وخلال غشيانني وشبه  
اغمائي ذهب هو وأقفل الباب من الداخل، ثم  
عاد إليّ فرفعني عن الأرض.

كان يحتضنني بذراع وبذراعه الأخرى دفع  
الملفات والأوراق المتراكمة على سطح طاولة  
المكتب، فسقطت على الأرض.

أجسني على حافة طاولة المكتب. أحنى  
قسمي الأعلى ليستلقي ويتمدد على الطاولة،  
بينما بقى القسم السفلي من جسدي خارج  
الطاولة وساقني متدلّيتان إلى الأرض. ومن دون  
تردد فتح ساقني. وقف هو بين بينهما. نزع عني  
بنطالي، فصرت عارية الساقين في سروالي  
الداخلي الشفيف فقط.

لم يكن بمقدوري أن أقاوم. كنت شبه مشلولة.  
بل كنت أترقب ما سيحدث لي وأتوقعه. لم ينزع  
عني سروالي وإنما مزقه بحركة وحشية. فصرتُ  
عارية ومفتوحة الساقين أمامه.

فجأة، اختفي ظله من أمام عيني. وبعد  
لحظات عرفت أنه جلس مقرّضاً بين ساقني  
وأخذ يلحسني. استمر في هذا الأمر فترة. لكن  
بعد لحظات أحسستُ بوغزة قوية مصحوبة بالم

قوي مفاجئ، وكأن سكينًا أو شفرة جرحتي. فقد  
أولج قضيبه في فرجي ممزقًا غشاء بكارتي.  
وصار يدخل ويخرج فيّ كالمجنون.

كل ذلك جرى خلال دقائق قليلة جدًا. ولم  
يكتف هو بذلك بل مزق قميصي. نزع صدرتي  
بحركة همجية أدت إلى سلخ جلدي من ناحية  
الكتفين، فصرتُ عارية الصدر والبطن أمامه.

كنت كالذبيحة. كنت أرى وجهه الشبق اللاهث  
وهو يعصر نهدي ويمص حلماتي ويقبل بطني.  
وهو يدفع بنفسه في أعماقي.

هل تصدق وأنا في ذلك اكنت أفكر بما يجري  
لي. استغربت هذه الحياة في هذه البلاد. فمن  
فتاة طموحة، تعد نفسها مثقفة وذات رؤية فكرية  
وفلسفية، ومكتظة بالأحلام والآمال والمشاريع  
الفكرية، إلى فتاة شبه عاهرة، مبتذلة تعيش  
أحط مستويات الانحطاط الأخلاقي، يتم التعامل  
معها كجسد لتفريغ الشهوة وبشكل مبتذل وشاذ  
ومنحط!! كل هذا في أقل من ساعة.

الغريب في تلك اللحظات، وأنا مستلقية على  
الطاولة كالذبيحة ومفتوحة الساقين، تذكرتُ زوج  
أمي، وتخيلت أختي التي أشعلت النار في جسدها  
وهي تحت زوج أمي في مشهد مشابه.

كان هذا الضابط عنيًا وهائجًا كالثور ويلجني بحقد وقسوة من دون اعتبار لحالتي النفسية ولخمولي وعدم تجاوبي واستلقائي كالذبيحة بين يديه. ثم فجأه همد فوقني. فقد قذف وساخته في مهلي.

في تلك اللحظات أدركتُ بأنني قد ضعتُ نهائيًا، فلم أعد تلك الفتاة التي كنت أراها في نفسي، لم أعد تلك الفتاة التي تعتد بنفسها وثقافتها وتاريخ والدها وبهيئتها الأنيقة. انتهت حياتي عبثًا، لذا أطلقتُ على نفسي لقب حواء الضائعة، وهل هناك ضياع وعبث أكثر من هذا؟.

ما أن سحبَ نفسه عني، بعد أن قذف كل قدراته في مهلي وهمدت قوته، حتى انزلتُ بكامل جسدي عن طاولة المكتب. وتكومت على أرض المكتب عند حافة الطاولة مثل جثة الذبيحة. كانت دماء بكارتي قد اختلطت بمنيه الذي أخذ يسيل من بين فخذي خارجًا من مهلي الممزق النازف. كدتُ أتقيأ من هول النجاسة والوسخ الذي أحسستُ به.

حاولتُ أن ألملم نفسي وأستر عريي. وشيئًا فشيئًا حاولتُ الإتكاء على جانب طاولة المكتب السفلي. كنت أشعر بألم جسدي ونفسي لا



يوصف. لم أقل شيئاً، لم أصرخ وأبكي أو أولول بل ولم أقل أشتم، فما جدوى الكلام، فلقد بصقت عليه وشتمته فكان جزائي الاغتصاب الوحشي، فما جدوى الشتائم الآن بعد أن وضعت بهذه الرخص والابتذال والانحطاط والسهولة!!؟ لم أكن أقوى على قول أي شيء. وقررت الصمت.

لن أنسى ذلك اليوم، ولا ذلك المشهد، ولا ما جرى، لذلك رويته لك بتفاصيله الدقيقة المبتذلة والقاسية والإباحية، فعلى الرغم من أنني شهدت كوارث أخرى بعد ذلك، لكنني لم ولن يغادرنني ما جرى في ذلك اليوم بكل تفاصيله التي صرت استرجعها وكأنها لا تخصني شخصياً، وإنما جرت مع شخصٍ آخر، مع امرأة أخرى، بل ومع مئات النساء اللاتي يقعن في قبضة أزام هذا النظام الاستبدادي.

كان مغتصبي ينظر إليّ وكأنه يريد أن يعرف ما أفكر به. ومع ذلك أخذ بعض ورق التنظيف الشفاف، ومسح قضيبه مما علق فيه من دماء بكارتي وما علق به من سوائل خرجت مني على الرغم من مشاعري ورفضني لما قام به. وبلغ قمة القساوة والانحطاط والابتذال حين سألني:

هل أعجبك؟ لم أصدق إنك ما زلتِ عذراء..!

شعرتُ بغضب هائل لكنه غضب مكتوم، لكنه  
غضب العاجز والتائه والضائع فلم أجب لكني  
نظرت إليه نظرة مليئة بالحقد والغضب.  
بعد ذلك ذهب وأدار مفتاح الباب ثم عاد إليّ  
وقال لي:

إبسي بنطالك وزرري قميصك قبل أن يأتي  
من يرافقتك إلى زنزانتك.

ومدّ ذراعه ليضغط على جرس قريب منه.  
بعد لحظات طُرق الباب. لكنه لم يسمح له  
بالدخول إلا بعد أن لبست بنطالي، وأنا جالسة،  
متقرزة من وساختي ونجاستي.  
طُرق الباب مرة أخرى فسمح له بالدخول.  
وفعلا دخل أحد جلاوزته، فقال له أمرًا:

ضعها في غرفة منفردة. لا ينام معها أيًا  
منكم إلى أن أسمح لكم بذلك. ستكون قحبتنا  
المتقفة، إلى أن تتأدب وتتعلم كيف تتعامل معنا  
وتتحدث معنا بأدب. خذها الآن ودعها ترى ما  
ينتظرها من مشاهد.

مسكّني التابع من ذراعي وانهضني. وسار بي  
وأنا شبه مغمى عليّ.

حين غادرت غرفة الضابط مع التابع،  
أحسستُ بأنني تخلصتُ من سجنني، فعلى الأقل

سأكون في زنزانتني لوحدى .

سار بي التابع، وأنا ما بين الصحو وهول  
الصدمة التي كانت تدفعني للانهيأر، لكنني أردت  
أن أرى كل شيء بوضوح شديد، أن أشهد على  
هذا الخراب العراقي المخيف.

مشى بي في ممر شاحب الضوء أكثر رعباً  
من هذا النفق المظلم الذي أنت فيه الآن. أوقفني  
عند باب زنزانة حديدية صدئة وخاطب تابِعاً  
لآخر كان يقف كالتمثال هناك بأن يفتح الباب.

حين فُتح الباب وأدخاني معه، كي يريني ما  
ينتظرني، أربعتني ما شاهدتُ. كنتُ في مسلخ  
حقيقي، مسلخ بشري. كانت هناك أجساد لرجال  
ونساء، عراة، لكنهم معلقون من سيقانهم إلى  
الأعلى وأجسادهم متدلّية إلى الأسفل. وهناك  
من يقف تحت كل واحد منهم وييدهم سلسلة  
يسحبها فتصعد رؤوسهم وظهورهم ثم فجأة  
يفلتون السلسلة فتتدلى أجسادهم ورؤوسهم إلى  
الأسفل.

هذه القاعة تسمى قاعة الخفافيش. قاعة  
الوطواط. نعلقكم مثلما تنام الخفافيش، حيث  
رأسها إلى الأسفل.

كانت الدماء والقيء والبول يغطي أرض القاعة

تلك وتحت كل جسد معلق إلى الأسفل. كدثُ  
أنهار من هول الروائح الكريهة وهول المشهد.  
سحبني من ذراعي خارجًا قبل أن أنهار.  
سار بي في الممر، ثم انعطفت في ممر  
جانبي. وسمعنا صرخات ألم ووجع تأتي من وراء  
أحد الأبواب. فقال للحاجب عند ذاك الباب بأن  
يفتحه.

ما إن فتح الحاجب باب تلك الزنزانة الواسعة  
حتى رأيت مشهدًا مشابهاً، لكن أكثر إيلامًا، فقد  
كان هناك أكثر من سجين من الجنسين، يقف  
خلف كل منهم رجل من رجالات السجن، وأمام  
كل منهم يقف أحد جلاوزة السجن، ويبدأ التعذيب  
من خلال توجيه سيل من اللكمات إلى وجه  
وصدر وبطن السجين، وكأن السجين كيس  
ملاكمة يتم التدريب عليها.

رأيت كيف تتهشم الأنوف وتتشقق وتجرح  
الشفاه وتتساقط الأسنان. لم أستطع تحمل  
المشهد القاسي. ولا إرادياً انساب البول من  
مثانتني، بحيث كان واضحًا من خلال بقع البلل  
في بنطالي. وما إن انتبه مرافقي إلى تبولي على  
نفسي حتى سحبني وأخذني إلى زنزانتي. فتح  
بابها. ودفع بي إلى داخلها.

كانت زنزانتني فارغة..فارغة.. لا شيء فيها.  
وقبل أن يغلق الباب جاء أحدهم وهو يحمل  
خرطومًا طويلًا وأخذ يرشني بماء بارد، ثم  
فُتحت تيارات هواء بارد لا أعرف أين أماكنها في  
الزنزانة. وبعدها أغلق مرافقي الباب وتركني في  
تلك الظلمة الدامسة، بل كان هناك بعض الضوء  
الشاحب جدا الذي يأتي من نافذة صغيرة  
مسدودة بقضبان متينة تطل على ممر غامض  
وراء زنزانتني.

ربما لا أحد يصدقني بأنني شعرتُ بالراحة  
حينما تم إغلاق باب الزنزانة عليّ. واسترجعتُ  
مشاهد ما جرى لي من لحظة اختطافي، إلى  
اغتصابي، إلى مشاهدتي للزنزانات الأخرى. ولا  
إرادياً انسابتُ مشاهد من زياراتي في طفولتي  
لأبي في سجن نقرة السلطان. وتراءى لي حضور  
أبي إلى تلك الزنزانة وهو يمسد على شعري  
ويبتسم، فخوراً بي، وهو يقول لي بحب وتعاطف:  
هذا هو الطريق الذي سار به المئات بل  
الآلاف من المناضلين يا ابنتي.

لكنني رفعتُ رأسي إليه وقلت له:  
لستُ مناضلة، ولستُ سياسية، ولم أود أن  
أكون كذلك يا أبي..ولا أريد أن أكون كذلك.

فابتسم لي وقال:

ليس النضال أن تنتمي لحزب ثوري فقط  
ياابنتي، وإنما أن تحافظي على إيمانك بالعدالة،  
ورفضك كل أشكال القمع والاستبداد ولو بشكل  
صامت، فأن هذا يُعد نضالاً ذاتياً، ففعل الخير  
ليس بالضرورة بأن تفعلي خيراً، وإنما ألا تفعلي  
شراً، ألا تنتمي لهذه السلطة الفاشية.

وتلاشى حضور أبي حين سمعتُ صرخاتٍ  
أنثوية آتية من جهة الممر.

لا أعرف كم مررتُ من الوقت وأنا في  
زنزانتني. شعرتُ بالبرد الشديد وكأني تجمدتُ.  
فملابسي مبللة. نزعْتُ ملابسي، لأنها صارت  
كقطع ثلج على جسدي. وقطعتُ شيئاً من  
سروالي الممزق أصلاً، مسحت به الدماء والمني  
بين فخذي. وفرشتُ ملابسي على الأرض كي  
تجف.

كانت الزنزانة معتمدة سوى من بعض الضوء  
الشاحب جداً الذي مع ذلك كان يساعديني في  
رؤية بعض جوانب الزنزانة. ومع تصوري أن  
النهار لم ينته بعد، لأنني قد اختطفت نهاراً، إلا  
إن أجواء المكان توحي بأننا في ليل دائم طويل  
لا فجر له.

بعد فترة، لا أعرف كم طال، انتبهت إلى جفاف ملابسي من البلل، مع أنها ظلت باردة ولا تمنح الدفء، فأخذتها من الأرض، وارتديتها. لبستُ بنطالي من دون سروال وقميصي من دون سوتيان.

وما أن أتممتُ ارتداءً ملابسي حتى سمعتُ حركة باب زنزانتني وهو يُفتح. وأطل الضابط الذي اغتصبني. كان يبتسم وهو يراني منكمشة على نفسي. اقترب مني وقال:

كيف تشعرين الآن؟

لم أجبه. انكمشتُ على نفسي أكثر، فقد أدركتُ بأنني أعجبتُه وهو يشتهيني لذا فلن يتركني في حالي. وفكرتُ مع نفسي: «الجمال قد يكون لعنة أحياناً. فكم يجر اللطف أصحابه إلى السقوط والكوارث والمعاناة. لكن هل سقطتُ فعلاً؟ لا. لا. أنا مؤمنة بأنني دفعت ثمن دفاعي عن كرامتي. بصقتُ على هذا الضابط النذل، وتحملت نتيجة فعلي، مهما كان الثمن غالياً.

اقترب الضابط مني وقال:

أنا أعرف إنك لست سياسية. وإن التي اعترفتُ عليك قد افترتُ عليك وأرادت أن تتعاون معنا من خلال ذلك الافتراء والوشاية بك.. لكنني

أحببتك..لقد جئتُ ذات مرة لكليتك في زيارة قريب لي. رأيتك في الكافتريا. فأعجبتني منذ اللحظة الأولى. وسألتُ عنك، عن اسمك ومعلومات أخرى عنك. لكني، وكما تعرفين، أنا مسؤول هذا المكان، وعليّ البقاء هنا ليل نهار. لكنك لم تفارقي ذهني، لذلك خططت لاختطافك. بيد إنك صلابة و متكبرة، لذلك دفعت ثمن بصاقتك عليّ وشتمي. وما عليك سوى طاعتي. عليك إدراك ذلك..إذا أطعنتي سأرفق بك ولا أعذبك، وإذا واصلت تعنتك فسأدع كل الموجودين هنا يفعلون بك ما يشاؤون. هل فهمت؟  
وغادر الزنزانة من دون أن يلتفت إليّ.

أنا لستُ سياسية لكني أمتلك وعيًا سياسيًا، فأنا مؤمنة بأفكار والدي وعمي، مؤمنة بكل ما قام به أبي وناضل من أجله، وتعذب وسجن ومات من أجله.....صحيح أنني لم أنشط سياسيًا، لكني مؤمنة برؤية تغيير العالم، وأحلم بحياة طبيعية، مدنية، تحفظ كرامة الإنسان وتمنحه حرية الفكر والعقيدة. وسواء كنت منتمة لتنظيم يناضل من أجل ذلك، أم لا، فأنا لديّ الإيمان بذلك، وهل يمكن تحمل الحياة بدون إيمان؟ هل تؤمن أنت بشيء يا آدم؟



ارتبك آدم الحارس فهذا السؤال مفاجئ ولم يفكر به سابقًا، بل لم يسأل نفسه إن كان يؤمن بشيء أم لا..!..ولا إرادياً أجاب:

لا أعرف إن كنتُ أؤمن بشيء أم لا.. لكني أعرف إن آمنت بشيء فهو ليس الإيمان الديني بالضرورة. لا أعتقد إن هناك من يعيش بلا إيمان. فحتى المجنون يؤمن..المجنون يؤمن بأنه عاقل.

بالتأكيد.. فليس هناك من لا يؤمن بشيء، فحتى هذا الذي لا يؤمن بشيء هو يؤمن باللاشيء، يؤمن بالإيمان بشيء، بل حتى الملحد فهو يؤمن بالنفي. وأتفق معك فالإيمان ليس بالضرورة أن تؤمن بأشياء غيبية دينية.

نعم.. الإيمان الديني هو عزاء غيبي وخطر أخلاقي، أما الإيمان اللاديني فهو تبني لرؤية عقلية لا غيبية.

صحيح.

وماذا جرى بعد ذلك؟ فأنت لم تخبريني كيف أنت هنا في هذا النفق..؟

أنا لا أدري إن كنت الآن في نفق، لأنني لم أغادر مكاني هذا، وإنما وجدت نفسي هنا، أما ما جرى معي بعد اختطافي واغتصابي فهو مؤلم جدًا.

صمتت للحظات، ثم واصلت قائلة:  
ما أقوله لن يقبله عقل ولن يصدقه أحد. بل  
ربما ستفكر بأنني شاذة ولا أخلاقية، لكنني  
صادقة مع نفسي ومع مشاعري.  
نحن الموتى الأحياء لا أحكام أخلاقية لنا.

صمتت المرأة للحظات، ثم واصلت:  
إذن اسمعني، فأنا هنا سأحدث عن امرأة  
كانت تتبض بالحياة والرؤى والأفكار والطموح.  
امرأة كانت تسعى إلى أن تكون باحثة قديرة في  
التاريخ، لاسيما في تاريخ العقائد والأديان  
والمعتقدات.  
أسمعك..

أتظل واقفا أنت وهذا الصبي.. اجلسا على  
تلك المصطبة الحجرية.  
لا ضير.. يمكننا أن نسمعك من هنا أيضًا.  
كما تشاء.  
أسمعك..

أطرقت برأسها وكأنها تستعيد ما حدث  
وقالت:

طال بقائي في تلك الزنزانة. في أول دخولي  
إليها أتوا بجردل من البلاستيك. وقال لي من أتى  
به، بأنه يمكنني التبول والتغوط فيه وإنهم يأتون

صباحًا ليأخذوه وينظفوه مما فيه من نجاسة.  
هل لك أن تتصور الأمر؟

في الساعات الأولى فكرتُ بأخوتي، ثم فكرتُ  
بعمي، وأخذتُ أستعرض في ذاكرتي كل الطلبة  
والطالبات من اليساريين، وأخذتُ أسأل نفسي:  
من تراها تلك التي اعترفتْ عليّ زورًا وبهتانًا؟  
ولماذا؟ وطبعًا هذه الأسئلة كانت لا جدوى منها  
لاسيما وأنا في الساعات الأولى من اعتقالِي.

وسألتُ نفسي عمّا ينتظرنِي؟ في الساعة  
الأولى من اعتقالِي تم اغتصابي بشراسة. ورأيت  
المعتقلين المعلقين كالخفافيش على رؤوسهم،  
شاهدتُ كيف يُضربون ككيس الملاكمة، فيأثري  
ماذا سيكون معي؟ لاسيما وأن الضابط الحقير  
كشف عن سر اختطافي، وقرّر أن يحولني  
لعاهرتة، وإذا ما رفضت لا أعرف ماذا سيحصل  
معِي؟ وهل لي أن أرفض؟ وإذا ما شبع مني  
وملّني فسيدفعني إلى بقية جلاوزته.!

لا أعرف إن كانت هيئتي المثيرة جنسيًا هي  
نعمة أو نقمة؟ كونه نقمة عرفت ذلك من اغتصابي  
من قبل الضابط النذل، لكنه ربما كان نقمة  
أيضًا، فقد جنبني التعذيب الشديد، أولاً لرغبة  
الضابط بي، وثانيًا انتظار جلاوزته لسماح

الضابط لهم بمضاجعتي كما وعدهم، وربما هذا ما سيدفع البعض إلى تخفيف تعذيبي. بيد إن شكلي المثير كما قال الضابط لم يجنبني التعذيب نهائياً.!!.

ما يجعل حياة الاعتقال والسجن كابوسًا مرعبًا ليس التعذيب بحد ذاته فحسب، وإنما تفاصيل حياة الزنزانة.

ففي حياتي العادية كنت أكره الذهاب إلى المرافق الصحية، بل وكثيرًا ما سألت نفسي: لماذا خلق الله البشر كالحوانات، يتغوطون، ويتبولون؟ ألم يكن بإمكانه أن يخلقهم كأشجار من دون براز وتغوط؟ هل هذا يعني أن نظرية دارون في الأصل الحيواني للإنسان صحيحة؟ وهل هذا يعني أن قصة خلق آدم سوى أسطورة أخلاقية صنعها البشر لجهلهم بالعلوم وبأصل الإنسان والتطور البيولوجي؟ لذا كانت مسألة تغوطي في الجردل مسألة مقززة وكريهة جدًا، بل ونوع من التعذيب النفسي.

وهناك جانب آخر تعاني من النساء السجينات فقط، ألا وهي دورتهن الشهرية. فمن أين للنساء السجينات المعتقلات في مثل هذه الظروف الاستخباراتية اللاقانونية، المخيفة، المعزلة عن

العالم ، أن يحصلن على فوطات العادة الشهرية،  
بينما هن محرومات من أبسط الأشياء، بل  
وينامن على الأرض العارية؟

كنت لا أعرف تتابع الليل والنهار. فليست  
هناك نافذة تطل منها الشمس أو ضوء النهار،  
ولا خروج صباحي كعادة السجناء المحكومين في  
السجون الاعتيادية. كنتُ أعرف النهار نهارًا من  
خلال الضجيج الذي أحسه في الممر عند قفلة  
المفاتيح في الأقفال لأخذ جردل البول والغائط  
أو توزيع وجبة الطعام التي هي عادة ما تكون  
بيضة مسلوقة مع قطعة من الصمون الحجري.

الضابط النذل، الذي اغتصبني، تعامل معي  
بابتذال شديد وبانحطاط مقرف. كانوا عادة  
يأخذوني إليه نهارًا أو ليلاً حسب مزاجه. وحينها  
فقط، من خلال نظرتي إلى ما وراء نوافذ مكتبه،  
أعرف أن الوقت نهارًا أو ليلاً، فالممرات شاحبة  
الضوء لا تعرف الوقت من خلالها، فنهارها وليلها  
سواء.

وفي كل مرة يأخذوني إليه أعرف ما ينتظرنني  
عنده. كان يتعامل معي بابتذال، جثة من اللحم  
الحي أمامه يفعل بي ما يشاء ومن الجهات كلها.  
وكان يجبرني على أن أتلفظ بكلمات جنسية

مبتذلة تعبر عن رغبتى الشديد فيه، ورغبتى فى ما يفعله بى.

وكثيراً ما كنت أفر من نومي عند دخوله زنزانتي وهو سكران. فكان يقترب منى ويفتح بنطاله ويطلب من أن ألعق قضيبه. وحينما كنت أرفض ذلك كان يضرب رأسى بالجدار، بل ويمسكنى من وجهى ومن فمى ويولجه بالقوة فى فمى. وكان ينهى رغبته فى فمى فأتقياً فى جردل الغائط. أو كنت، قبل أن يقذف أخرجه من فمى، فيلوث وجهى وملابسى. ويمكنك أن تفكر بهذه التفاصيل القذرة، بأن هذا لا يجرى معى فقط بل أنه وبقيّة جلاوزته يفعلون ذلك مع بقيّة المعتقلات أيضاً.

ومع ذلك كنتُ عاهرتة الخاصة، فلم يتركنى لغيره من جلاوزته الذين كانوا يحسدونه لأنى صرت ملكه، بل وكما يبدو صار متعلقاً بى، فكان يأتينى بين فترة وأخرى ببعض قطع الملابس، كالسراويل الشفيفة، بل طلبت منه ذات مرة أن يأتى بمناشف العادة الشهرية. وفعل. صرت محظيته وملكه.

كنتُ أفكر عن سبب اعتقالى، فالأيام والأسابيع تمر من دون تحقيق أو سؤال أو اتهام أو حتى

رغبة في معرفة معلومات سياسية، لاسيما وأنا كنتُ اسمع صراخات النساء والرجال وهم يعذبون في الزنازين الأخرى ليل نهار فلا وقت للتعذيب.

ربما من المعيب أن أقول بأنني تعودتُ على تلك الحياة، ولم أعد أشعر بالتقزز منها كما كنت في أول أيامي في المعتقل، فالإنسان كائن غريب، يعتاد على الحبس الانفرادي، ويعتاد على القذارة والنجاسة، بل ويعتاد على الجحيم. وهكذا اعتدتُ على حياتي في الزنزانة.

هل تصدق حين كانوا يأخذوني إلى مكتب الضابط النذل كنت أنتظر اللحظة التي يكتفي مني وينهي شبقه فيّ لأعود إلى زنزانتني.

وحدثت الكارثة. وانقطعتُ دورتي، فقد حملت منه. ولم يكن أمامي سوى أن أخبره. وفجأة، تغيرت معاملته لي. ولا أدري هل أيقظ هذا الأمر غريزة الأبوة فيه؟ المهم، حينها أمر بوضع سرير في الزنزانة، وصار يأتيني بوجبات طعام جاهزة من خارج السجن. وصار أكثر هدوءاً وهدوءاً عند مضاجعتي..! ومرت الأسابيع التي تسمح لي بإجراء الإجهاض.

وذات ليلة، فُتح باب الزنزانة ودخل الضابط الذي صار عشيقتي ومالكي، ومعه امرأتين،

إحداهما تحمل حقيبة جلدية، بينما الأخرى ترتدي معطفًا، فخمنت أنها طبيبة والأخرى مساعدتها. وفعلاً كان تخميني صحيحًا. وبعد دقائق دخل شرطيان يحملان طاولة طويلة نوعًا ما.

قامت الطبيبة بحقني مادة مخدرة. وبمساعدة المرأة الأخرى مددتاني على الطاولة. وطلبت الطبيبة من الضابط النذل أن يخرج. ولم أعرف ما جرى، لكنني كنتُ أعرف بأنها جاءت لتجري لي عملية إجهاض.

حين أفقتُ وجدتُ نفسي على السرير الحديدي المنفرد في تلك الزنزانة العارية. لكن الذي جرى في الأيام التالية هو اختفاء ذلك الضابط النذل. وذات ليلة، دخل عليّ ذلك التابع الذي كان شاهدًا على اغتصابي.

أغلق الباب خلفه وتقدم نحوي. عرفتُ من نظراته بأنه يريد اغتصابي. أدركتُ حينها بأن الضابط النذل قد تخلى عني ومنحني لجلالوزته. لكنه حين صار أمامي قال لي أمرًا:

انزعي .. بسرعة.

لم أعرف بماذا أجيبه. بقيتُ صامتة لا أفعل شيئًا. فابتسم بشكل كريه وقال:



لا أحد يحميك الآن. ضابطك تم نقله إلى مكان بعيد. أنت الآن لي. أنت حصتي.

هل تعرف يا آدم حين تهيمن روح العبودية على الإنسان وتتغلل في كل كيانه. العبودية سلوك أيضاً، العبودية نمط حياة وفضاء نفسي، العبودية قناعة فكرية ونفسية..! فقد كنت عبدة وأشعر بأنني عبدة وعليّ الإطاعة سواء رضيت أم لا..!

وهكذا استسلمتُ. لقد شعرتُ بأنني انتقلتُ من مالك إلى آخر. ولا إرادياً أخذت أنزع ملابسني على استحياء، فلم يصبر هو إذا نزع بنطاله، وأدارني بشكل كلبى، وأولجه في.

وكما اعتدتُ على الأول صرت أعتاد على الثاني. وفهمت كيف تعتاد المومسات على عدد من الرجال يوميًا. وتذكرت ما قرأته يومًا عن أخلاق العبيد وأخلاق الأحرار.

لكن حتى النذل الثاني لم يستمر الأمر به طويلا، فقد انقطع فجأة. مرّ أسبوع من دون أن تُفتح زنزانتي آخر الليل. وربما من المعيب أن أقول إنني كنت أنتظر أن يدخل أحدهم عليّ، فقد اعتدتُ الأمر، بل وجدت في ذلك كسرًا لوحشتي وانشغالا لي في هذه الزنزانة الباردة.

لكن ذات صباح، وبعد فتح الباب لأخذ جردل

الغائط، وتوزيع وجبة الفطور. فُتح الباب وجاء الرجل التابع نفسه. وطلب مني أن أذهب معه لمقابلة المدير الجديد. لكنه وأثناء مرورنا في الممرات همس لي بأني لو بحث بأي حرف عما جرى معي، خاصة اعتدائه عليّ فإنه سيذبحني الليلة ويقول بأني انتحرت. وهددني بأنه سيكون موجودًا أثناء اللقاء.

حين دخلتُ مع التابع إلى غرفة المدير الجديد فوجئتُ. فقد كان رجلًا كبيرًا في السن فيه شبه كبير بأبي. فرف قلبي. وترقرقت الدموع في عيني. ملامحه مريحة وطيبة ويتصف بالهدوء.

طلب المدير الجديد مني الجلوس، بينما طلب من مرافقي أن ينتظر عند الباب. نظرتُ إلى مرافقي فبادلني نظرة مليئة بالوعد والوعيد، وكأنه يهددني إن بحث بشيء ضده.

كان المدير ينظر في ملف ضخيم بين يديه، ويقلب صفحاته بلا مبالاة، ثم رفع رأسه وتوجه نحوي بهدوء وسألني:

لم أنتِ هنا؟

لا أدري..!

كيف لا تدرين؟ أنت هنا، في هذا الملف الذي

أمامي، تعترفين بأنك كنت تنتمين لتنظيم سياسي  
محظور معاد للحزب والثورة...؟!؟

هل أنا اعترفتُ بذلك؟

نعم.. هذا ما موجود أمامي في ملفك.

استغربتُ كلامه، فقلت له وأنا أختق من هو

المفاجأة والتأثر:

أنا شخصياً لا أعرف كم مرّ علي هنا في  
زنانتي. ولم يسألني أحد عن أي شيء. ولم يتم  
التحقيق معي. لم يسألني أحد، بل ولم أجب عن  
شيء ولم اعترف بشيء. كل ما جرى إنني  
أختطفْتُ من الشارع، وجيء بي إلى هنا، إلى  
هذا المكتب. وقال لي الضابط الذي كان قبل  
حضرتك بأنني سياسية وهناك إحدى النساء قد  
اعترفتُ وذكرت اسمي، علما بأنني لا علاقة لي  
بالسياسة.

صحيح إن والدي كان سياسياً وسجيناً في  
نقرة السلطان ومات هناك، لكني لم أنتم إلى أي  
جهة سياسية، لذا استغرب كلام حضرتك بأنني  
اعترفتُ وهذا الأمر موجود أمامك في ملفي..!

كان ينظر إليّ بتعاطف، ويتأملني، وينتقل  
بنظراته بين وجهي وتفاصيل جسدي وبين الملف  
الذي أمامه، ثم قال:

هل يعني إنك تتفين كل ما جاء في هذا  
الملف الضخم..؟!؟

أدركت غريزيًا بأنه ليس شرسيًا كما المدير  
الذي قبله، فقلت مؤكدة وبحماس لأن هناك من  
يسمعني:

نعم سيدي..كل ما جاء في هذا الملف ملفق  
ضدي. لم يتم استدعائي والتحقيق معي، بل  
حتى إنني لا أعرف كم مضى عليّ وأنا هنا..؟!؟  
مضى عليك تسعة أشهر وأنت مقيمة هنا..  
مقيمة؟ تسعة أشهر؟  
نعم..

هل تم تبليغ أهلي بأنني معتقلة لديكم..؟!؟  
أنت لست معتقلة، بل مقيمة..ولا أعرف إن  
كانوا قد بلغوا أهلك أو هم سألوا عنك أصلًا..؟!؟  
لا أعتقد..فنحن لا نبليغ أهل من نستضيفه هنا .  
قام من مكانه وأخذ يمشي في الغرفة. وكأنه  
يفكر في أمر ما. وقال لي:  
اسمعيني جيدًا. أنا أصدّقك..  
أتصدقني..؟

يمكنك أن تتخيل حالتي وأنا أسمع من مدير  
المعتقل وهو يقول لي بأنه يصدقني ويصدق بأن  
كل ما كُتب عني هو تلفيق لا أكثر. وكانت المفاجأة

حينما واصل قائلاً:

نعم..أصدقك.. لسبب بسيط هو أنه يوجد لديك ملف ضخيم وهو أمامي على طاولة مكثبي، فيه اعترافاتك واعترافات غيرك عنك..! لكني لم أجد اسمك على مُلاك السجناء هنا. أي أن من جاء بك إلى هنا لم يدخل أسمك ضمن قائمة السجناء. وكأنك غير موجودة أصلاً. أي إن وجودك من عدم وجودك سواء. بقاؤك أو خروجك سواء. وربما من هنا يمكنني مساعدتك وإخراجك من هنا.

حينما سمعتُ جملة «إخراجك من هنا» شعرتُ بدبيب الحياة تسري في جسدي وروحي. لكنه عاد إلى مكتبه، وجلس على كرسيه، وأخذ يتأملني. وفجأة قال لي:

أنت كما يبدو كنت مثيرة جداً. زاعرف أن بقاؤك في الزنزانة بعيدة عن الشمس والهواء النقي والأكل الصحي أثر على هيئتك، لكنني أعرف أن أذن الذهب وهو في الوحل، وأرى الألماس وهو تحت مناجم الفحم..

شعرتُ بالخوف، فربما هو لا يختلف عن من سبقه، ولا يختلف كثيراً عن التابع الذي ينتظر عند الباب. لكني أخذت أقنع نفسي قائلة:

ليكن.. ليفعل معي ما يشاء.. المهم.. أن يحررني  
من هذا المكان.

وفجأة سألني:

أين ستذهبين إذا ما خرجتي من هنا؟

لا أدري.. ربما أرجع لأهلي..!

أطرق برأسه قليلاً ثم سألني:

وهل سيقبلون بك بعد اختفاء دام تسعة أشهر؟

لم أفكر بهذا الأمر فعلاً، فقلت:

لا أدري.. ربما نعم.. وربما لا..!

وهل سيصدقون قصتك؟

لا أدري..!

نظر إليّ بتركيز وسأل:

وهل ستخبريهم بحقيقة ما جرى لك هنا؟

لا أدري..! ربما نعم.. وربما لا..

أدركت بأنه يعرف ما جرى لي، لكنه لم يشأ

أن يشير إلى ذلك، لذا واصل:

من المؤكد أنهم لن يصدقو حكايتك، ربما

سينبذوك إذا ما عرفوا حقيقة ما جرى لك...!

فقلت وأنا على حافة الانهيار، حتى راودني

شعور بالخوف من الحرية، بالخوف من مواجهة

أهلي والناس بعد الخروج من المعتقل، فقلت

يأساً:

أنا ضائعة.. وأنتم ضيعةتموني..

صمت لدقائق. كان منشغلاً بشيء ما يدور في ذهنه. قام عن كرسيه، استدار بوجهه نحو خزانة فيها دروع ذهبية تتوسطها صورة رئيس البلاد. بقي على وقفته تلك وهو يدير لي ظهره لفترة ليست بالقصيرة. ثم وكأنه عزم أمره، فتحرك متجهاً لكرسيه. جلس عليه وقال لي بنبرة واضحة وهو ينظر في وجهي:

سأكون واضحاً معك. يمكنني إخراجك من هنا كما نقول بالمثل العامي» أخرجك مثلما أخرج الشعرة من العجين». ويمكنني أن أبقىك هنا إلى ما لا نهاية. أدخلك قائمة المقيمين السجناء، ثم أفتح جلسات التحقيق الفعلي معك. لأنه كما أرى إن حياتك، ربما، ستكون في خطر من قبل أهلك، وبالتحديد من قبل أخويك وعمك. وربما ستتحوّلين إلى فتاة شارع. لا مأوى لديك. بل ربما ستبقىين هنا، ويأتي مدير غيري ويحولك إلى بيوتات ترفيه الضابط والمسؤولين الحزبيين. بقيت صامتة. فقد رسم لي لوحة سوداء أنى اتجهت ومهما كانت الآفاق التي أمامي فكلها مدلهمة، لكنه واصل:

سأعرض عليك مقترحاً، أتمنى أن يعجبك.

أنا مقبل على التقاعد بعد خمس سنوات. أنا أرمّل. أبنائي كبار ولديهم عوائلهم. لدي بيت كبير أعيش فيه مع ابنائي وأحفادي. لكن لدي بيت كبير آخر لراحتي. بيت فيه كل وسائل الراحة التي تحلم بها الكثير من العوائل العراقية. لا أحد يعرف به، حتى أبنائي لا يعرفون عنه شيئاً. لذا أقترح عليك، بكل وضوح وصراحة وصدق، بأن تعيش فيه معززة مكرمة... ستكونين في حمايتي ورعايتي وتكونين موضع اهتمامي. وهذا الملف سأخذه معي وأحرقه. فاسمك غير موجود كمعتقلة وسجينة هنا في هذا المكان... أنا واضح معك وصريح جداً ولن ألق وأدور. أنت، وبصراحة شديدة، قد أعجبتني. وأنا رجل وحيد على الرغم من وجود ابنائي وأحفادي، سأعوضك عن كل ما عانيتيه هنا. المهم أريدك أن تكوني معي وتحت رعايتي. مخلصاً لي ولأسراري. فلن يعرف بك أحد، ولن يعرف أحد من أنت وأين كنت.. فما هو رأيك..؟

ذهلتُ وأنا أستمع إليه. واستغربت اقتراحه وكأنه هبة من السماء التي تعرضني عن أشهر الذل والإهانة التي عشتها. كان اقتراحه صدمة مفاجئة. صدمة غير متوقعة. ومع ذلك أخذتُ



أزن الأمر في ذهني.

فالرجل كان واضحًا وضوحًا شديدًا. طيبًا فقد قال ما قال بنبرة محايدة ولطيفة ولا أثر فيها للأمر، كانت نبرته محايدة ومقنعة. لكن قبل أن أجيبه طُرق الباب. فانتبه، واستعاد قساوته ورزانته المرتبطة بموقعه، وقال: أدخل.

دخل أحد التابعين وأدى التحية، ثم قال: سيدي.. وصلتُ وجبة جديدة. وجبة مختلطة من الشيوعيين ومن عملاء إيران، فما هي أوامرك سيدي؟ خذوا اعترافاتهم بوسائلكم المعهودة. واكتبوا محاضركم وتقاريركم. أريد قائمة بأسمائهم وأعمارهم، ومهنتهم. وتكون جاهزين لأوامري. أدى التابع التحية وخرج.

إقشعر جسدي حين سمعتُ ذلك. خفتُ من هذا الرجل الذي أمامي. لقد إنقلب فجأة وكشف عن حقيقته المستبدة والعنيفة والوحشية. وانتبهت لجملة «وكونوا جاهزين لأوامري». كلهم هكذا.

فكرتُ لحظتها بأنني إن رفضت اقتراحه، فسيكشف عن وجهه المخيف هذا، فأما سينتقم

مني ويبدأ التحقيق معي وسأخضع للتعذيب أو أنه، كما قال، سيرسلني لأحد بيوت الترفيه ما دام اسمي غير موجود في سجل السجناء والمعتقلين. وسرت رعدة خوف في روحي.

نظر إليّ وكأنه انتبه بأنه كشف عن طبيعته اليومية أمامي، فقال:

هذه الأمور من مستلزمات المهنة. العنف هو الحل الوحيد لانتزاع الاعترافات من هؤلاء العملاء... والآن.. ماذا قلت في اقتراحي !..

فتمتمتُ لا إرادياً:

أنا موافقة.

انبسطت أساريه، وقال:

على بركة الله.

وانحنى إلى جانب كرسيه وحمل من الأرض حقيبة جلدية، فتحها ووضع ملفي في داخلها وأغلقها. ثم قال لي:

ستبقين في زنزانتك هذا اليوم. في المساء سأجيء بنفسي وأخرجك من هنا. لا أريد لأحد أن ينتبه الآن لخروجك. اتركي الأمر عليّ. سأبقيك إلى نهاية الدوام هنا. وأنا بعد نهاية الدوام سأذهب إلى بيتنا، بيتنا أنا وأنت، أو بالأحرى بيتك، كي أجهزه بكل ما يلزم. اتفقنا.

ومساء سأعود لآخذك من هنا .  
لم أقل شيئاً . كنتُ مرعوبةً من هذا التغيير  
الذي طرأ على وضعي فجأة . وكأني في حلم ،  
وسمعتة يكرر سؤاله :

هل اتفقنا؟

فتمتت بخفوت :

اتفقنا .

فجأة ، سألني وكأنه يسأل طفلة :  
هل تريدان البقاء هنا في المكتب أم تودين أن  
ترجعي لزنزانتك ؟

هل تصدق هذا يا آدم؟ فعلى الرغم من نظافة  
المكتب، وراحة الكرسي الذي أجلس عليه،  
وحسن تعامله معي، والآمال التي منحني إياها  
قياسًا إلى وضعي . إلا إنني وددتُ أن أكون وحدي،  
منكمشة على نفسي، في زنزانتني .

قلت له على استحياء :

أريد أن أنام قليلاً .. لم أنم البارحة جيدًا .  
نظر إليّ طويلاً وكأنه يدرسني ويدرس رغبتني  
في أن أعود لزنزانتني . لم يقل شيئاً ، لكنني انتبهت  
إلى أن رغبتني بالعودة إلى زنزانتني لم تعجبه ،  
وكأني بذلك رفضته ، ورفضت ما يسعى لتقديمه  
لي . فضغط على جرس أمامه ، فطرق الباب أحد

التابعين. وصاح به بنبرة أمره:  
أدخل.

فدخل التابع الذي اقتادني من زنزانتني، والذي  
كان يضاجعني بعد نقل الضابط الذي اغتصبني.  
أدى التابع التحية، فقال له:

خذها إلى زنزانتها. لقد اتصلت الجهات  
العليا تسأل عنها. لا أريد أن تذهب إليهم وعليها  
آثار التعب والإرهاق. مفهوم. جهزوا لها طعاما  
جيذاً لحين عودتي. ولا أريد اية تصرف غبي  
معها. لئننته من هذا الموضوع من دون شوشرة...!  
مفهوم...؟

مفهوم سيدي.

هيا اذهبي معه.

قمتُ عن الكرسي. كان التابع واقفاً. وحين  
صرت إلى جانبه أدى التحية، واقتادني من ذراعي  
خارجاً. وفي الممر، همس في أذني:

ألم يفعل لك شيئاً هذا الثعلب العجوز...؟

لم أجبه. لكنه فهم بوضوح من كلام مدير  
السجن بأنني لن أبقى طويلاً في هذا المكان.  
وإن هناك من يريدني من الجهات العليا.

أطرق آدم الحارس برأسه، وهو يستحضر  
سينمائياً كل ما روته حواء الضائعة، وأراد أن

يعرف بقية الحكاية فسألها :  
وماذا جرى بعد ذلك .. ؟  
ماذا جرى ..؟! هؤلاء بيدهم السلطة المخيفة  
والوحشية . هم يفعلون ما يشاؤون .  
هل خرجتِ من المعتقل ؟  
صمتتُ للحظات ، ثم واصلت :

نعم .. لكن في ذلك اليوم نفسه ، وقبل أن يحل  
المساء ، سمعتُ ضجيجًا وخطوات راکضة ،  
وفوضى داخل السجن . كنت أنا وحدي منكمشة  
على نفسي جالسة على سريري . كنتُ أفكر  
بمقترح مدير السجن الذي لم يعد مقترحًا وإنما  
قرار واتفاقًا ينتظر التنفيذ . وحينما فتحت  
الزنزانة ، فوجئتُ بأحدهم يحمل صينية فيها رز  
وفخذ دجاج مشوي وصحن فيه شوربة وقطعة  
من الصمون وتفاحة . فهمست لنفسي : « ما هذا  
الدلال » !! لكنني سألت التابع من باب الفضول :  
ماذا جرى ؟ سمعتُ ضجيجًا .

فهمس لي المكلف بتوزيع الطعام :  
مات شابان تحت التعذيب ، أحدهما شيوعي  
والآخر إسلامي . وسيتم إعدام بعضهم الليلة من  
دون محاكمة . وبعضهم سينقلون إلى مكان مجهول  
آخر بأمر من مدير المعتقل الجديد .

ماذا؟ قال آدم الحارس مستغربًا .  
نعم .. هذه هي بغداد .. كابوس طويل يمتد  
منذ قرون .  
وأنتِ؟

أنا .. لا شيء . كان مدير السجن عند وعده .  
فقد جاء وحده في وقت متأخر من المساء  
بسيارته، من دون سائقه الشخصي . دخل مكتبه،  
وطلب باستقداًمى إليه وكان أمرًا خطيرًا قد  
جرى وإنى مطلوبة من قبل الجهات العليا . طلب  
إخراجى ووضعى فى سيارته، قائلاً لهم بأن  
الجهات العليا طلبت استحضارى فورًا . وهذا ما  
جرى .

أخذنى بسيارته إلى بيته، أو بيتى كما قال  
لى . وكان فى منطقة جيدة حديثة البناء، لكنها  
تقع فى أطراف المدينة وبعيدة عن مركزها .  
وفعلا، كان البيت كما وصفه، حديثًا ومجهزًا بكل  
شئ . كان قصرًا . ولم أصدق إننى سأعيش فى  
هذه الرفاهية .

وبدأت حياة أخرى . وقد أحتجتُ إلى بعض  
الوقت كى أنسى ما مر ربى من أهوال . وكى  
أعتاد هذه الحياة الجديدة وتفاصيلها الممتعة .  
واستعدت رونقى وصحتى ولونى المشرق .

لم أعد تلك الفتاة اللطيفة، الذكية، المتقدمة بالطموح والأفكار العظيمة، ابنة الرجل السياسي اليساري الذي مات في سجن نقرة السلطان ودفن في الصحراء ونبشت الذئاب قبره والتهمت جثته، أو تلك التي أختها أشعلت النار في جسدها لأن زوج أمها اغتصبها. والتي قتلت أمها زوجها وماتت في السجن. ولا تلك الفتاة التي تم اختطافها نتيجة وشاية كاذبة فأغتصبت في الساعة الأولى من اعتقالها. وصارت تنتقل من مغتصب لآخر، إلى أن صارت عشيقة ثعلب عجوز.

بصراحة شديدة حدث انقلاب في حياتي. عشت حياة مرفهة. كل شيء متوفر، من طعام إلى الملابس إلى مواد التجميل ووسائل الترفيه، إلى المال. فقد كان يغدق عليّ بالمال.

وطبعًا كنت سجينته. لا أستطيع الخروج إلا بعلمه. وكنْتُ أوفر له المتعة. كنتُ عشيقته التي يغار عليها من الأشباح. كنت سجينة في قصر. وبصراحة شديدة فقد اعتدت عليه، بل ونشأت في أعماقي ما يشبه الولاء التمسك والعرفان نحوه.

فهو الذي أخرجني من غياهب سجن غامض ونقلني كالجني إلى عالم جديد وساحر. كنت

أشبهه بالعرائس اللاتي يخطفهن الجني ويحبسهن في قصره. هم خطفوني من الشارع وزجوا بي في الزنزانة، وهو خطفني من الزنزانة وحبسني في قصره.

في بداية الأمر كان يأتيني يوميًا، نهارًا أو ليلاً، يقضي وطره منه ويغادر. وبعد ثلاثة أشهر صار يأتي لمرتين في الأسبوع. بل وصار غير قادر على الممارسة، لذا أخذ يأتيني بفيديوات إباحية، نشاهدها معاً، وحين يتهيج يأتيني لنمارس كل ما شاهدناه في الفيديوات.

أحسستُ أنه تعلق بي جدًا، لكن كعشيقة صرت ملكه وتحت يديه، يستطيع أن يطلب منها ما يشاء وعليّ تنفيذ رغباته من دون نقاش أو استفسار.

كنت أحياناً أشتاق لرؤية أختي وأخوتي وعمي، لكنني لا أستطيع أن أستعلم عن أوضاعهم خوفًا منه، فقد كنتُ مقطوعة عن العالم، ولا علاقة لي بالأشياء إلا من خلاله. وذات مرة، حينما كان يزورني وقرر المبيت عندي، أشرت بطريقة غير مباشرة لرغبتني معرفة أوضاع أهلي، فغضب جدًا وحذرني من التفكير في هذا الأمر مرة أخرى.



بعد أشهر عديدة صارت زيارته تقل. هل  
تصدق صار القلق ينتابني، والغيرة مثل أفعى  
تتحرك على صدري، وتمشي العقارب في رأسي.  
هل تعلقتُ به؟ هل أحببته؟ لا أدري. لكن الغريب  
في الأمر، إنه ذات مرة اتصل بي هاتفياً وقال  
لي:

سأرسل لك سائقي، يمكنك أن تطلبي منه أن  
ما تحتاجين إليه وعليه تلبيته. إنه موضع أسراري  
فلا تترددي.

فوجئتُ، وخننت في نفسي بأنه ربما يحاول  
أن يختبر إخلاصي ووفائي له، لذا قلت له:  
لا حاجة إلى إرسال سائقك. لا أحتاج إلى أي  
شيء، وإذا ما احتجتُ لشيء فيمكنني أن أخبرك  
وأنت تأتي لي به. لا أريد أن يراني أحد.  
أحسستُ أنه ارتاح لجوابي، فأخذ يتغزل بي  
ويعبر عن شوقه لرؤيتي. ومع ذلك لم يأت تلك  
الليلة.

كانت عزلتي ووفرة الوقت لعدم انشغالي بشيء  
فرصة لي كي استعيد اهتمامي بالقراءة، لكنني  
فقدتُ طموحي ورغبتي في أن أكون باحثة،  
فاتجهتُ لقراءة الروايات، ومشاهدة الأفلام عبر  
الأقراص المدمجة.

كان البيت قصرًا جميلًا على الطراز الغربي. وفيه صالة كبيرة تتوسطها مدفأة حجرية جميلة، لكننا لم نشعلها قط، علمًا هناك أكوام من الحطب المقطّع متكدسة في السرداب، وهو طابق كامل تحت أرضي. لذا كنت كثيرًا ما أستخدم التدفئة الكهربائية في أيام الشتاء. وكثيرًا ما كنت أود إشعال المدفئة الحجرية لكني كنت أتكاسل من الذهاب إلى السرداب تحت الأرضي لحمل الحطب.

عزلتي ولّدت في نفسي خوفًا مجهولًا لا أعرف مصدره. أحيانًا كنت أشعر بأن البيت مسكون بالأشباح. إذ يحدث بين فترة وأخرى أن أسمع صرخاتٍ وضجيجًا يعلو في جنبات البيت لا أعرف من أين يأتي؟! أكنت أسمع ضجيج حركة كراسي وطاولات تسحب، سقوط أشياء معدنية، وقع خطوات، حوارات خافتة كالهمس، إلى جانب أشياء أخرى.

كنت أخبره بها فكان يستمع لي بانتباه وجدية في بداية حديثي، ثم يضحك مني بعد ذلك لطفولة أفكاره ويمازحني بأنني من شدة خوفي أتخيل أشياء مضحكة، مع أنني لم أكن أتخيل تلك الأشياء، بل كنتُ أسمع تلك الأشياء بوضوح وواقعية.

وماذا جرى بعد ذلك؟ هل كان البيت مسكوناً  
فعلًا بالأشباح؟ سأل آدم الحارس بفضول.

صمتت المرأة قليلاً وقالت:

نعم.. كان مسكوناً بأشباح بشرية.

لم أفهم..؟!؟

سأفهمك.

وأنا أسمعك..

لقد أخبرتك بوجود مدفأة حجري في الصالة.  
وذات ليلة باردة لم يأت عشيقى إليّ فيها.  
أصابني الأرق وأنا ساهرة في الصالة، كنت  
أشاهد فيلماً أميركياً رومانسياً فيه العاشقان  
يحضنان بعضهما ويجلسان أمام المدفأة المتقدة،  
لذا راودتني رغبة قوية في أن أوقد المدفأة  
الحجرية..!. ولأنى أعرف أن قطع الحطب  
موجودة في السرداب تحت الأرضي، لذا قررت  
النزول إلى السرداب، لكنني سمعت ضجيجاً،  
وصرخات، وخطوات تمشي على البلاط،  
وطاولات تُسحب فتصدر صوتاً مزعجاً، وإنطباق  
أبواب بقوة، بل وسمعت هدير محرك سيارة  
وصلت حتى ظننت أن عشيقى قد وصل، لكن لا  
أحد دخل عليّ.

سمعتُ كل شيء، لكنني خفتُ، وعرفتُ بأننى

لا أتخيل الأشياء كما يحاول عشيقتي أن يوهمني،  
فهناك شيء ما يحدث في الجانب الخلفي من  
البيت الذي يفتح على طريق خاص به. لذا لم  
أنزل لجلب الحطب، وإنما صعدتُ لغرفتي،  
وأجّلتُ النزول إلى السرداب إلى نهار اليوم  
التالي، لكنني بقيت أفكر في هذا الأمر إلى  
ساعاتِ الفجر الأولى.

في اليوم التالي صحوتُ متأخرة من النوم. بل  
صحوت على دغذات عشيقتي في الفراش. فقد  
وصل وأنا نائمة. ولم يهدر الوقت لذا سرعان  
من عزّاني وأخذ يقبلني من كل زواياي بشغف  
حتى أثارني، فأقبلت عليه، لكنه همد بسرعة.

كان عاجزاً عن تلبية شبقتي. ورأيت الانكسار  
في نظراته، فأثار شفقتي، وواسيته بأنه ربما  
تعب من السهر، يمكن أن نعوض ذلك مرات  
أخرى. وغادرتُ السرير لأستحم ولأطفئ ناري  
بنفسي.

وبينما كنت أتحمم سمعته يودعني من وراء  
الباب، ثم سمعت وقع خطواته وهو ينزل السلم،  
ويطبق الباب الخارجي. وتناهي إليّ هدير محرك  
سيارته وهو يتلاشى.

حين انهيت استحمامي توجهت إلى المطبخ

في الطابق الأرضي فأعددت لنفسي فنجان قهوة. لكن البرد كان شديداً، لذا عاودتني رغبة إشعال المدفأة الحجرية، فقررت الذهاب إلى السرداب كي آتي بالحطب. فالوقت نهاراً، والمخاوف تأتي ليلاً عادة.

أرتديت ملابس دافئة ولبستُ معطفًا، سميكا ودافئًا، وخرجت إلى الجهة الخلفية من البيت حيث باب السرداب.

حين وصلت باب السرداب أخرجت المفتاح الذي لديّ، لكنني وجدتُ الباب مفتوحًا. دفعت الباب ونزلتُ. انتبهت إلى أنني أنزل للسرداب لأول مرة مع أنني أعيش هنا منذ ما يقارب السنة، على الرغم من أنه حدثني عنه في اليوم الذي جاء هو بي إلى هنا، ووقفنا أمام باب السرداب لكنه كان مقفلاً، وكان الوقت ليلاً لذا لم ندخله. وأخبرني حينها بأنه مليء بالحطب إذا ما شئتُ إشعال المدفأة.

أول ما نزلتُ السلم ضغطتُ على زر الكهرباء فأضاء وسط السرداب بضوء باهر قوي. نزلت بحذر، لكن بإطمئنان، فالضوء الباهر أزاح عني بعض الخوف الذي تولده العتمة.

حين صرت في السرداب صُدمت. لم يكن

مجرد سرداب توضع في براميل زيت المولدات وأكوام الحطب، وإنما كان صالة كبيرة تتوزع فيها غرف مكتبية. وحين اقتربت من الجهة اليمنى من السرداب وجدت ما يشبه غرفة العمليات الطبية..!

اقتربت أكثر فرأيت السرير الطبي، وهو ملطخ ببعض الدماء..! وشممت رائحةً زنخةً تأتي من برميل صغير. وحين دسْتُ على لسانه الأرضي ارتفع الغطاء فرأيتُ أكوامًا من الشاش الملطخ بالدماء، وكان واضحًا من لون الدماء أنها ما زالت طرية.

سرتُ رعشة في جسدي. ما الذي يجري هنا؟ أين أنا؟

دخلتُ غرفة خلفية مضاءة، فرأيتُ طاولات عليها ما يشبه الصناديق الفلينية المثلجة لحفظ الأشياء. كانت الغرفة مبردة جدًا، فراودني الشك والفضول لمعرفة ما فيها. وحين رفعت غطاء الصندوق الفليني المبرد الأول رأيتُ كيسين، في كل كيس سائل غير قابل للإنجماد، وفي كل كيس ثمة كلية محفوظة فيه.

ارتددتُ خوفًا إلى الوراء..! أغلقت الصندوق بسرعة، وفتحت صندوقًا آخر فرأيت ما رأيتُه

في الصندوق الأول، لكني لم يكن في الصندوق كلية وإنما كان قلبًا بشريًا موجودًا في الكيس المليء بالسائل.

غادرتُ الغرفة، ثم السرداب، ولم أشأ أن آخذ الحطب معي، كي لا يعرف أنني نزلت إلى السرداب، وأنتي عرفتُ ما يجري؟ هل هو يتاجر بالأعضاء البشرية..؟ لكن لمن يبيعها؟ ومن هم هؤلاء الضحايا؟

أصابني الذهول، فصعدتُ السلم راکضةً، مرعوبةً. ومن شدة خوفي ورعبي، تزلزلت على السلم، وتمزق جلد ركبتي قليلاً. صحيح أن الأذى لم يكن كبيرًا لكن تمزق جلد ركبتي أوجعني، لذلك ما أن وصلت الطابق الأول حتى أسرعرت للمطبخ وفتحت خزانة مثبتة على الجدار وأخرجت سائلًا معقمًا ومسحتها بقطعة قطن من قطع تنظيف الوجه من المكياج. ووضعت المفتاح في مكانه في زاوية إحدى الخزانات.

وبينما أنا في المطبخ سمعتُ هدير محرك سيارة يتجه نحو البيت فأسرعت متخفية. صعدتُ إلى الطابق الأعلى، وتوجهت إلى إحدى الغرف التي تطل على الجهة التي يقع فيها باب السرداب.

بقيت واقفة خلف الستائر. أرى من سينزل من السيارة من دون أن يراني. انتبهت إلى أن سائق السيارة شاب وسيم. فجأة، نزل اثنان يلبسان ملابس برتقالية تشبه ملابس رجال إطفاء الحرائق في الأفلام، ويضعان قناعاً يشبه القناع الذي يلبسه الجنود في الحروب تجنباً للغازات الكيماوية. وتوجها نحو باب السرداب.

بقيت متسمة في مكاني. وأخذت أسأل نفسي: من هؤلاء؟ ومن أين لهم مفتاح السرداب؟ وماذا يفعلان هنا؟

لم أبق طويلاً متسمة عند النافذة حتى رأيتهما يخرجان وهما يحملات الثلجات اليدوية الفلينية، التي رأيت في أحدهما كليتين وفي الآخر قلباً في محلول. قفل أحد الرجلين الباب وتوجها إلى السيارة. وغادروا المكان.

شلني الرعب. من هؤلاء؟ ومن أين لهم مفتاح السرداب؟ ومن هو هذا الرجل الذي هو الآن عشيقتي؟ أمن المعقول أنه لا يعلم بمجيء هؤلاء؟ ولا يعلم بما يجري في السرداب من المتاجرة بالأعضاء البشرية؟ ثم أين الجثث التي يسرقون منها الأعضاء البشرية؟ ومن أجل أن تستفيد من قلب ما لأجراء عملية زرع قلب أو استخدام



الكليتين، يجب استخراجهما من جثة شخص لم يمّت منذ فترة طويلة...! لكن من هم هؤلاء الذي يستخرجون الأعضاء من أجسادهم؟.

وراودتني فكرة مجنونة بأن أنزل للسرداب ثانية. ولكي أأمن وضعي وأتأكد من عدم مجيء عشيقتي بشكل مفاجيء قمت بالاتصال به وطلبت منه أن يشتري كمية من الفواكه والكرزات والمكسرات حينما يأتي إلى البيت، فقال لي حينما يخرج من مكتبه سيمر على الأسواق ليأبى طلباتي كلها.

اطمأنت نفسي بأنه لا يزال في المكتب. أخذت مفتاح السرداب من مكانه الذي وضعته فيه، وخرجت من باب الصالون، المطل على الحديقة، وتوجهت إلى السرداب مستديرة إلى الجانب الخلفي. كل هدفي كان معرفة مكان الجثث.

حين نزلت بعدما أشعلت الضوء. أخذت أفتش في زوايا المكان، لكنني لم أعر على أي شيء. بل حتى الجردل الذي كان فيه قطع الشاش الملوثة بالدم كان نظيفًا، إذن، أدركت بأن هذين الأثنين اللذين دخلا السرداب وأخذا الأعضاء معهما قد قاما بتنظيف المكان، بل إنني لم أعر

على كيس القمامة..!  
وانتبهتُ لوجود ما يشبه النافذة المغلقة  
بالصفيح لديها مقبض جانبي، وحينما أزحتها  
جانبا تكشفت لي عن ممر صفيحي يفضي إلى  
برميل للقمامة خارجًا. إذن هنا مؤسسة كاملة،  
منظمة، ومرتبة على أفضل ما يكون؟. ومع ذلك  
فكرت مع نفسي بأنه لا بد من مكان تُخزن فيه  
الجتث.!

لم أترك غرفة لم أفتحها، لكن لا أثر للجتث،  
إلى أن دخلتُ غرفةً، كانت كما هو واضح لي  
مكتبًا أنيقًا، وفي داخله مكتب زجاجي آخر. كان  
مفتوح الباب. فدخلته.

سحبتُ جارورًا من جوارير المكتب فرأيت  
ملفاتٍ عديدة. أخرجتها وأخذت أتصفحها.  
فصدمتُ. كانت تحتوي معلومات عن شباب  
وشابات، مع صورهم وأسمائهم الكاملة وأعمارهم،  
وعناوينهم وتاريخ اعتقالهم أو اختطافهم. وتهمة  
كل واحد منهم: شيوعي عميل، حزب الدعوة  
العميل، مخرب كوردي من العصاة، كوردي فيلي  
من التبعية الإيرانية. وقرارات الحكم كلها كانت:  
إعدام رميا بالرصاص أو شنقًا حتى الموت.  
صدمتي كانت ممزوجة بخوف كبير، فصرتُ

أرتجف. إذن هم يعتقلون الشباب بهذه التهم،  
ويعدمونهم ثم يستخرجون أعضائهم وقلوبهم،  
ليتاجروا بها؟ أي وحش هذا الذي أعيش معه؟  
هو يبدو طيبًا ومسالماً ومجبورًا على ممارسة  
العنف والأمر به، ورجلاً مسنًا يحتاج إلى الحنان  
واللطف، لكن كل هذه الأوصاف هي الواجهة،  
فخلف هذه الطباع والأوصاف يكمن وحش  
مخيف...!.

بقيت هناك أتصفح ملفات وملفات. هذا  
الأمر كما اتضح لي يجري منذ أعوام. يخطفون  
الناس من الشوارع بحجج شتى، ويلصقون بهم  
التهم جزافًا أو بشكل واقعي، ويعدمون، أحيانًا  
بقرار محكمة الثورة و أحيانًا لا يسجلون في  
قوائم المعتقلين فيكونوا قرابين لتجارتهن  
الرابحة.

لم انتبه للوقت من شدة انشغالي! فجأة رفعت  
رأسي أتفحص المكان فانتبهت للساعة الجدارية  
في المكتب، ياللهول، لقد مضى عليّ أكثر من  
ساعة وأنا هنا. أسرعْتُ بالخروج من السرداب  
والركض إلى البيت.

حين دخلت الصلاة رأيتَه جالسًا وأمامه  
اللابتوب. وما أن رأني حتى رأيت النار تقدح

شرراً من نظراته، وسألني بغضب:

أين كنتِ؟

ارتبكتُ وتلعثمتُ وقلت بارتباك:

لقد كنت متضايقه، فأردت أن أتمشى قليلاً،

فأخذتُ أدور في الحديقة..!

كذابة..!

كنت على وشك الانهيار فأنا منذ لقائي به لم

أجده غاضباً كما أراه الآن، فقلت:

لم أكذب عليك.. خرجت أتمشى..!

وماذا كنتِ تفعلين في السرداب؟

لا أستطيع أن أصف لك مشاعري وخوفي بل

ورعبي حين سمعت تلك الجملة، ومع ذلك كنت

أسأل نفسي ربما هو يخمن ولا يعرف، فأردت

التوضيح لكنه واصل موضعاً:

ها هي الكاميرات سجلت دخولك إلى

السرداب لمرتين. ودخولك إلى المكتب هناك

وتصفحك للملفات؟ من أنتِ؟ ولماذا فعلتِ ذلك؟

ووجدتُ نفسي أنهار، كخرقة بالية، على

الأرض. إذن انتهى كل شيء، وجاءت نهايتي..!؟

وليس أمامي سوى الاعتراف.

واعترفتُ بكل شيء. من رغبتني في جلب

الحطب لإشعال المدفأة وصولاً إلى لحظة

دخولي إلى عليه وهو في الصلاة.  
كان، وهو يستمع إليّ، غاضبًا جدًّا. بل كما  
يقال يغلي من الغضب. وكان يحدّق بتركيز في  
وجهي وأنا أتحدث وكأنه يريد أن يتأكد من صدق  
اعترافي..!

وبعدما انتهيت من قول كل شيء صمت هو  
صمتًا ثقيلًا.

طال صمته، وتفكيره في الأمر وفي ما  
اعترفت به، وأخيرًا قال:

إن ما قمت به يُعد جريمة بحق الحزب والثورة  
وبحق القائد التاريخي لأمتنا، عقوبتها الإعدام  
شنقًا حتى الموت أو رميًا بالرصاص.

لم أستطع أن أنطق بحرف واحد كانت أرتعش  
خوفًا مما ينتظرني. وأخيرًا قال لي شيئًا  
مفاجئًا:

لدي رغبة أريد أن تلبّيها لي قبل أن أسلمك  
لهم، وإلا سادعهم يستخرجون قلبك وكليتيك  
وأنت حية ومن دون تخدير..!

لم يكن بمقدوري أن أسأل عن رغبته فالحوف  
شل لساني، لكنه واصل:

أريد من سائقي أن يضاجعك أمامي، بشرط  
ألا تصلا، لا أنت ولا هو، إلى الذرورة، وإذا ما

حدث ذلك فأنى سأقتلكما كلاكما .  
لم أصدق ما سمعت! ما به هذا الرجل؟ هل  
مو مجنون أم مريض؟ هل علي القبول أو الرفض؟  
وهل بمقدوري أن أرفض أصلاً؟.. وصرخ بي:  
اتفقنا؟

فهزرت رأسي إشارة إلى الموافقة. فصرخ  
مجددًا:

هل عرفتِ شروطي؟ ألا تصلي إلى الإثارة  
والشهوة ثم الذروة. وإذا ما حدث ذلك فليس  
أمامك سوى الموت. هل فهمتِ؟

ومرة أخرى هزرت رأسي إشارة للفهم.  
وأخذ هاتفه النقال وأتصل بأحدهم. طلب  
منه المجيء فورًا. فخمنت أنه اتصل بالسائق.

غريب هذا الرجل؟  
قال آدم الحارس ثم واصل:  
ظننته سيقترك فورًا لأنك كشفت سره وسر  
من يقف خلفه من ذوي النفوذ..!  
ومن قال لك إنه لم يفعل..؟  
كيف؟

أسمعني ولا تقاطعني  
صار. إنني اسمعك.  
وواصلت حواء الضائعة سرد حكاية ضياعها:

بقيتُ على وضعي المنهار. منتظرة مجيء الرجل الذي سيضاجعني أمامه. وكنتُ خائفة من نفسي ومن جسدي وردود فعله التي لا أستطيع السيطرة عليهما أحيانًا. إذ يحدث أن المرأة ترفض الرجل الذي يضاعها لكنها لا إراديًا ولأسباب بايولوجية تثار.

لم تمض سوى نصف ساعة أو أكثر بقليل حتى رن جرس الباب، وفي اللحظة نفسها رن هاتفه النقال. فعرفت أن الرجل المنتظر قد وصل وهو يتصل ليبلغ عن وصوله.

حين دخل، وقفنا للحظات عند باب المدخل. وما أن شاهدتهما عند المدخل حتى تذكرت سائق السيارة الوسيم، التي وصلت لحمل الأعضاء مع الرجلين المقنعين.

ويبدو أن عشيقتي قد شرح له اللعبة والأمر برمته، لكن ربما لم يخبره بالشرط في عدم الوصول إلى الذروة، لأن اللعبة انتهت بشكل مأساوي.

فحين وصلا إليّ، أخذني عشيقتي من ذراعي وجرتني خلفه إلى غرفة نومنا في الطابق الأعلى. كنت أسير خلفه قليلا بشكل ذليل وطيع. وخلفنا الرجل الوسيم.

ياللرجل الغريب؟

ما أرويه قد لا يصدقه أحد..! ولو كُتب في  
رواية لظن القراء إن القصة مختلقة ومبالغ فيها.  
وكتبت من أجل الإثارة لا أكثر، لكن صدقني هذا  
ما صار ووقع..!

أصدقك.. لا يعني إن لم يصدقك أحد.. أنا  
أصدقك.. والآن ماذا جرى في ما بعد؟  
ارتسمت ابتسامة حزينة على وجه المرأة  
وقالت:

حين دخلنا الغرفة انتحى هو جانبًا، وجلس  
على كرسي جلدي وثير. وصرنا أنا والسائق  
الوسيم أمام السرير. وقبل أن يأمرنا بالبدء قام  
هو إلى خزانة الملابس وأخرج منها مسدسين.  
ثم جلس وأعطانا إشارة البدء، موجهًا كلامه إلى  
الشاب: «أريد منك ألا تتبته لوجودي هنا.. افعل  
بها ما تشاء. إنها لك وحدك..! خذ حريرتك  
معها. اخترقها من كل الفتحات الموجودة لديها.  
لك الحرية في كل ما تفعله ولا تفكر بوجودي هنا  
أصلًا. لا عيب ولا خجل ولا خوف. أريدك أن  
تريحها جدًا».

استشعر السائق الوسيم بشذوذ مسؤوله، لكنه  
لم يأبه لذلك، فشبقه وشهوته لهذه المرأة قوي



جدًا. وفعلاً. بدء فيلم التعري الحي أمام عينيه.  
كان واضحًا بأن السائق الوسيم يشتهيني  
فعلاً، فجردني من ملابسني فبقيت في سروالي  
الشفيف، وأخذ يقبلني من وجهي ورقبتي وكتفي  
ويعصر نهدتي ونزل ليعريني، ثم ليجردني من  
سروالي وأخذني إلى السرير. وألقاني عليه، ثم  
تجرد هو من ملابسه كلها.

كان فيلما خلاعياً إباحياً كما في الفيديوات  
التي كنتُ أشاهدها مع عشيقتي. وفي سري،  
برغم الوضع الغريب الذي أنا فيه، قلت في  
نفسي لتجر السفن كما تشتهي الرياح، فأنا  
أعرف أن نهاية رحلتي اقتربت. ولم أتأسف على  
مغادرة هذا العالم القذر المخيف. هذا الكابوس  
الذي اسمه: الحياة.

كنت أحاول ألا أنسجم مع ما يفعله معي وبي  
السائق الوسيم. لم يكن الأمر اغتصاباً وإنما  
حركات إثارة قوية. ورطتي كانت هو أنني كنت  
قد استعدتُ وضعي النفسي في تقبل الرجال  
خلال هذه السنة مع عشيقتي. صحيح أنه رجل  
كبير وليس شاباً بكامل قوته، إلا أنه كان يمتعني،  
ويقوم بإثارتي من خلال المداعبة أكثر بكثير مما  
يقوم بالفعل معي.

وهنا، في هذه الغرفة، وعلى سريرى الذى  
شهد كل تجاربى معى عشيقى كنت أحاول أن  
أتماسك ما أستطعتُ، وكانت عيناى تتحركان  
باتجاهين، فعين مركزة على ما يفعل هذا الرجل  
الوسيم والأخرى تدور لترى ردود فعل عشيقى.

كان السائق الوسيم نشيطًا وحيويًا. ولأول مرة  
أشعر بوجود رجل حقيقى معى. وحين اخترقنى  
وأولجه فى شعرت بلذة عظمتى، فمسكت فمى  
بكفى كى لا أصرخ، وصرت أتحرك وأهز رأسى  
كى لا يرى عشيقى لذتى ومنتعتى.

ثم أدارنى الرجل فى وضع كلبى واخرقنى  
من الثقبين. وحين أدارنى الرجل الوسيم صاح  
به عشيقى بأن يستدير بى وبجسدى بحيث يكون  
وجهى بالمقابل منه ليرى انفعالاتى.

تماسكتُ، لكن الرجل المسكين لم يكن يعرف  
شرط هذه المضاجعة وثمانها والاتفاق الذى جرى  
بينى وبين عشيقى!

كان الرجل المسكين شبقًا بدرجة جنونية  
فأخذ يتحرك بى كالثور الهائج. كنت أريد أن  
أصرخ عاليًا من كثافة اللذة التى استشعرها لأول  
مرة بهذه القوة، لكنى كنت فى اللحظة نفسها  
خائفة من عشيقى.

وحدت القدير حين خفضتُ رأسي فغطى شعري ملامح وجهي التي تفضح استمتاعي، لكن الرجل المسكين لم يسيطر أكثر فصرخ بكل قوته وهو يدفعه فيّ ويملأني بمائه. حينها أدركتُ موتي!..

فقد نهض عشيقتي غاضبًا. فرّ السائق المسكين. وكأنه انتبه فجأة لوجود مسؤوله المباشر الذي كان قد تناساه أثناء المضاجعة بناء على رغبته.

صاح عشيقتي بي صيحة مخيفة أنستني لحظات المتعة المكتومة التي عشتها. وكأنني أفقت على ورطتي والموقف الكارثي الذي أنا فيه:

ألم نتفق؟

قفزت خارج السرير وقلت:

نعم..

إذن..؟

لم أفهم!.. ما علاقتي بالأمر.. هو لم يلتزم.. خرج السائق الوسيم من السرير أيضًا ووقف عاريًا. كانت ملامحه غريبة، فهو لم يفهم شيئًا مما قاله مسؤوله لي. لكن عشيقتي واصل وهو يمد إليّ المسدس:

نفذي ما اتفقنا عليه..!

ماذا؟

ألم نتفق بأن من يصل الذروة عليه أن يموت؟

نعم..

إذن نفذي ما أطلبه منك.. نفذي ما اتفقنا

عليه.

شحبَ لون السائق الوسيم وهو يسمع ما يقوله مسؤوله. سحبني عشيقتي من يدي وأدارني فصرت في حضنه، ظهري إلى صدره. وضع المسدس الملقوم للإنطلاق في كفيّ الاثنتين. ومسك بهما بكفيه. ووجه المسدس نحو السائق المسكين الذي كان ينظر غير مصدق ما يجري، لكنه أدرك لحظة موته، وضغطتُ، بل هو ضغط على أصبعي كي تضغط المسدس!!.. فهوى الرجل المسكين فوراً على الأرض وكأن قطعة نقد تفلت من اليد.

لحظتها لم أستطع التحمل. صرتُ قاتلة، بل صيرني هذا العجوز المستبد إلى مجرمة، فلقد قتلتُ إنساناً بريئاً. ولم أستطع تقبل نفسي، ولا هول ما قمتُ به، فخرّ جسدي بين يديه.

كنتُ عارية، ومني السائق القتيل يبلل ساقيّ. أي انحطاط بشري كنتُ أمثله حينها؟. أما هو

فقد اقترب من الجثة، وحركها بقدمه ليتأكد من موت الرجل، ثم التفت إليّ وقال لي:  
لا تعتقدي إنني لم أراك وأنت تتستمعين أيضا. لقد رأيت عينيك ترتعشان من اللذة التي اجتاحتك. وربما وصلت الذروة عدة مرات بينما كان شعرك يغطي وجهك. فأنت تحبين هذا الوضع الكليبي الفرنسي، وهو الذي تصلين فيه إلى الذروة. مصيرك لن يختلف عنه، لكن عقوبتك ستكون أقسى، فأنت رأيت كل شيء. هاتان العينان يجب أن تعاقبا فقد رأيت كل شيء. ثم اقترب مني وضربني بأغمص المسدس. لم أعرف ما جرى لي بعد ذلك فقد غرقت في الظلام.

حين أفقتُ وجدتُ نفسي مشدودةً بأربطة جلدية قوية. مستلقية على سرير طبي حديدي. وضوء باهر وقوي فوق رأسي فعرفتُ بأنني في السرداب. وسمعتُ ضجة قريبة وحوارا يجري. سمعت أحدهم يؤكد أنه من الضروري استخدام التخدير الموضوعي أو الكامل لاسيما عند اقتلاع العينين..!

وسمعت عشيقتي، الذي أعرف نبرة صوته، وهو يؤكد لهم، بأنني رأيت كل شيء، وعليّ أن

أُعاقب على ذلك، وأبسط عقاب هو اقتلاع عيني  
من محجريهما من دون تخدير.

كان اثنان يحاولان أن يقنعا بضرورة التخدير  
ولو الموضوعي، لأن الألم والصراخ نتيجة الوجع  
الذي سينطلق مني ربما سيؤثر على عملهما أثناء  
اقتلاع العينين.

أرعبني ما سمعتُ فقد أدركتُ أنهم يتحدثون  
عني اقتلاع عيني.

ومع ذلك فقد تم تخديري موضوعيًا. وتم  
اقتلاع عيني. بعد ذلك لا أدري، وأعتقد أنهم  
اقتلعوا كليتي وربما اقتلعوا قلبي.

عند موتي، بل قتلي، ألقوا بي في صالة  
كبيرة، لم انتبه لوجودها لأنها من الخارج كانت  
جزءًا من جدار السرداب، حينها عرفتُ أنها  
مشرحة، وهناك التقيت بالذين ألقوا بهم  
أقدارهم بين أيادي هؤلاء الأوغاد. وسمعتُ منهم  
قصصا عجيبة.

العجيب في الأمر، أنه على الرغم من اقتلاع  
عيني من محجريهما لكنني كنت أرى، بل أرى  
بوضوح شديد، ورؤيتي تخترق الحجب وترى ما  
وراء الأشياء. بل انتبهت إلى أن جلّ من قابلتهم  
هناك كانوا مقتعلي العيون!

ثم أخذونا فرادى من ذلك المكان. ساقوني في أنفاق مظلمة ودروب معتمة. وفجأة أدخلوني إلى هنا! ووجدت نفسي في حانة الانتظار هذه، لكنني لم ولن أنسى ما عانيته مع هؤلاء الأندال، الأوغاد. ولا أعرف لم اشتقت إلى السيدة بغداد السيدة بغداد؟ سأل آدم الحارس.

نعم..السيدة بغداد.. سيدة المدن والأساطير، سيدتي التي كُتب عليها أن تتحمل كل هذه المآسي والأسى الثقيل الجارح. إنها سيدة باهرة الجامل، لكنها حزينة، حزينة، مدينة مجللة بالسواد منذ لحظة ولادتها.

فجأة، تعالت أصوات قادمة من مدخل النفق. وسمعت حواء الضائعة تصرخ بي:  
اهرب.. اهرب.. الأوغاد في كل مكان.  
الزومبي في كل مكان.

لم أتبين شيئاً، لكن الأصوات والضجيج والصرخات الوحشية تقترب. التفت ناحية الضجيج، فلم أر شيئاً لكني رأيت عيوناً فسفورية تزدحم وتتراقص وتسرع باتجاهي، بينما لم أر من أجساد أصحابها شيئاً. مسكت بيد الصبي آدم وأخذنا نهرول في الظلام.

(7)

## منعطف النفق الجديد..

### القرود.. الزومبي.. حواء اللاأحد

لا أعرف كم مر علينا ونحن نركض في الظلام. كنتُ بين فترة وأخرى التفتُ إلى الخلف فأرى في عتمة ظلام النفق عيون فسفورية تتراقص مقبلة نحونا .

أنا أعرف بأنه لا معنى للزمن في هذا النفق. لذا لا أعرف مدة الزمن الذي ركضنا فيه. لكننا، فجأة ارتطمنا بقوة بجدار من الظلام.

نعم. كان النفق مسدودًا لكنه قبل نهايته بقليل ثمة نفق جانبي، عتمته أقل من النفق الذي كنا فيه، فتراجعنا قليلًا، وركضنا في النفق الجديد.

كانت عتمة النفق الجديد تشبه عتمة بدايات المساء أو فترة الغبش، أي أننا نستطيع أن نرى إلى حد ما دربنا وجدران النفق.

أخذنا نركض في النفق الجديد. وكلما توغلنا فيه كلما تكشفت عتمته أكثر، لكن من أين يأتي



الظلام؟ ومن أين أين يأتي الضوء؟  
انتبهتُ إلى أن جدران النفق صلبة أيضًا،  
تبدو وكأنها مطلية بمادة معدنية ملساء. وسقفه  
يبدو شفافًا، وكأن سقف زجاجي معتم. وربما من  
خلاله يتسرب الضوء الذي خفف قليلًا من عتمة  
النفق وكثافة الظلام.

هنا نستطيع أن نرى الجدران والأرضية وسقف  
النفق. هنا نستطيع أن نرى أقدامنا وهي تخطو  
في العتمة. وهذا ما منحنا إحساسًا بالأمان.  
وانقشع الخوف الذي كان ملازمًا لنا عندما كنا  
في النفق المظلم.

لم نعد نركض. إلى أين علينا الركض؟ ليس  
خلفنا شيء سوى الظلام، بل وليس أمامنا شيء  
سوى الظلام. لكن لقد انقطع الضجيج الذي كان  
خلفنا. بيد أنني انتبهت إلى أن النفق هنا ليس  
خاليًا، بل انتبهت إلى أنه بدا وكأنه سوق مقفل،  
سوق كل دكاينة ومحلاته مغلقة..!.

ماذا هل عدنا ثانية إلى شارع الكتب الشهير  
في بغداد؟ فما أن مشينا مسافة حتى استطعت  
قراءة لافتة عريضة مكتوبة عليها بألوان فسفورية  
«مكتبة العهد الجديد»..!

وقفتُ أمامها. كانت واجهتها زجاجية. اقتربت

من بابها . وأحطتُ وجهي بكفيّ لأرى بوضوح ما في داخلها، فلم أصدق ما رأيت.

كانت المكتبة وكأنها صف أو قاعة واسعة وعميقة. يقف في أقص عمقها غوريلا . يجلس أمامه بضعة من القرود على الكراسي وهم يستمعون له، ويبد كل منهم شمعة.

بدا الغوريلا وكأنه قائد أو أستاذ يلقي محاضرة. وما أثار دهشتي أن هذا الغوريلا كان يتحدث باللغة العربية أمام جمع من القرود الذين بالتأكيد يعرفونها أيضًا..!، فقد كان صوته يصل عاليا ، أجشًا، وواضحًا .

كان يمسك كتابًا بيده ويقرأ منه عليهم:

لقد بدأ عهدنا الجديد . لننبذ الشعارات عن الأخوة والسلام وحق الأمم في تقرير مصيرها، فكل هذه الشعارات هي خيانة وطنية وتواطؤ مع أعداء البلاد . باسم حق تقرير المصير يريدون تقسيم البلاد . في فكرنا أنه لا وجود للفرد، وإنما الفرد يذوب في الأمة، ونحن شعب القرود، أنتم كلكم تشكلون كيان الشعب . في نظرة شعب القرود الكلي يلغي الأجزاء، ويلغي فردانية أي فرد منكم .

البعض منكم يا أخوتي القرود بدأ يتأثر

بطروحات أعداء الشعب، ويتغنى، برومانسية،  
بأننا نخوض صراعًا من أجل الحياة، لا وألف لا،  
حياتنا هي الصراع. إن أي اختلاف مع هذه  
النظرة هو خيانة لمجتمع القروء.

علينا أن نخضع لقادتنا. إننا نعبد الفعل من  
أجل الفعل. ففي الحركة بركة. لا تفكروا كثيرًا،  
فالثقافة تقود إلى التفكير، والتفكير يزرع  
الشكوك، والشك يفتح باب النقد. والنقد هدفه  
تخريب تراثنا.. تراث القروء الذي نعبد، فكل  
نقد هو خيانة وعمالة وفسق وانحلال.

فجأة انتبه الغوريلا المحاضر لي. وتوقف عن  
القراءة. ظل جامد النظرات، مستغربًا وجودي مع  
الصبي الذي كان أيضًا قد أحاط عينيه ليرى ما  
في المكان من وراء الزجاج. ومن دون أن يقول  
شيئًا مد الغوريلا ذراعه وأشار إليّ، فالتفتت  
القروء جميعها نحونا.

ومن دون أي توجيه من الغوريلا هاجوا وكشروا  
عن أفواههم العريضة وأخذوا يتقافزون قفزات  
القروء المعروفة. صعدوا على كراسيهم وأخذوا  
يطلقون صرخاتهم الغاضبة. وسمعت الغوريلا  
يصرخ بهم:

جاسوس. من بقايا العهد المباد.

ارتعبَ الصبي آدم حين رأى هيجان القرود  
وصرخاتهم المزعجة. فانسحبنا بخوف من أمام  
باب المكتبة، وأخذنا نهرول خوفاً من اللحاق بنا،  
بينما ظلت صرخات القرود تصلنا، لكنها كلما  
ابتعدنا كلما خفت الصراخ.

في بداية الأمر أسرعنا الخطى مبتعدين من  
المكتبة، لكننا أخذنا نهرول بخوف تجنباً لملاحقة  
القرود لنا.

كنا نهرول، ومع ذلك كنت أثناء الهرولة أفكر  
مستغرباً بأن أرى غوريلا يحاضر أمام مجموعة  
من القرود..! كيف له أن يتحدث ويحاضر باللغة  
العربية؟ بل كيف تواجدوا هنا في مكتبة «العهد  
الجديد»..؟! وما معنى «العهد الجديد»؟ إن مثل  
هذا الاسم غير مسموح به في بلاد السيدة  
بغداد..! فهذا يعني إن عهداً قد ولى وجاء عهد  
جديد؟؟؟ وفجأة تذكرت صرخة الغوريلا، وهو  
يشير بأصبعه نحوي:

جاسوس من بقايا العهد المباد..!  
أصرتُ جاسوساً..؟ وأي عهد مباد؟ أنا من  
مواليد العهد الجديد. حين تم احتلال البلاد،  
كنت صبيّاً يتيماً صغيراً. ثم أنا لا لستُ قرداً،  
فربما الغوريلا لم يقصدني..؟

هرولتُ مع الصبي في أعماق النفق من دون أن نفكر إلى أين. كنت أشعر وكأنني أركض في أسواق غريبة مقفلة. في أسواق لبيع التوابل، ومكتبات، والحاجات المنزلية، والحبال والمسامير، والأدوات الكهربائية. لكن لا أحد في هذا السوق، لا أثر للحياة.

فجأة، تغير المكان، وكأنني انتقلت بثوان إلى مكان آخر، إذ وجدت نفسي أركض ومعني الصبي آدم الصغير في ممر أرضيته من الحديد وعلى جانبيه تمتد ما يشبه الزنانات التي كنتُ أراها في الأفلام الأميركية عن السجون.

الممر طويل وكأنني أركض في أروقة سجن محكم على جانبية زنانات مكشوفة تحجبها قضبان حديدية قوية. لكنها زنانات مكتظة بالنزلاء. نزلاء يقفون عند القضبان وينظرون بعيون فارغة إلى اللاشيء.

فجأة، امتدت ذراع من بين قضبان إحدى الزنانات وكأنها تشير إلينا بأن نتوقف. كانت المسافة بيني وبين الذراع التي تمتد من بين القضبان بضعة أمتار، فتمهلْتُ، بل توقفتُ للحظات ثم واصلت مقتربا بحذر لأرى صاحب الذراع الممدودة.

حين صرْتُ في مواجهة الزنزانة رأيتُ امرأة  
تجلس على كرسي وسط الزنزانة وكأنها في  
موضع التحقيق. لم أتبين عمرها، فعلى الرغم  
من فتوة ملامحها إلا إن بعض الشعر الأبيض قد  
انتشر بين سواد شعرها. كانت تغطي عينيها  
بغمامة من الجلد الأسود كما يفعل القراصنة  
العوران أو العميان. ومع ذلك كان وجهها يشي  
بفتوة امرأة.

لم تحدثني أول الأمر، بل ظلت تركز نظرها  
فيّ، على الرغم من عينيها المحجوبتين بهذا  
الجلد الأسود. كانت تبدو وهي تنظر إليّ وكأنها  
تراني فعلاً، وأنها تريد أن تقرّاني لتعرف من أنا.  
وفجأة سألتني:

من أنت..؟ وما الذي جاء بك إلى هنا؟  
وقبل أن أجيب نظرتُ إلى الصبي آدم الصغير  
وسألت:

من هذا الصبي؟ هل هو ابنك؟ هل فررتَ من  
قبرك؟

لا أعرف ما الذي منحني بعض الهدوء  
للحديث مع هذه المرأة. فسألتها:

من أنتِ؟ وماذا تفعلين هنا؟

ابتسمت بحزن وقالت:

أترد على أسئلتني بأسئلة؟ لقد سألتك أولاً..!  
أُخرجتُ، فقلتُ لها:

أنا آدم الحارس. حارس مشرحة بغداد. هربتُ جميع الجثث من المشرحة ولم يبق فيها سوانا، أنا وهذا الصبي آدم. وحين خرجت رأيت كل الجثث الهاربة تشارك في مسيرة منظمة. كما رأيت جرذان كبيرة هائلة الحجم كالخرفان مدججة بالعتاد خرجت من ساحة الميدان بشكل منظم، فتوقفت المسيرة لتتيح لها مكانا في وسطها. ثم رأيت عند الجسر مزقت الجرذان بعض الشبان المنتفض، فهربت إلى شارع الكتب القريب، فرأيت تلك الجرذان تقضم الحديد، تقضم أقفال المكاتب وتتهش الكتب وتقضم المجلدات. فهربت ومعني الصبي إلى زاوية، فوجدتُ نفسي في نفق مظلم. وفيه رأيت محطات مختلفة كلها تحمل اسم "مشرحة بغداد". ورأيت أفعى أوكاندا كادت تلتهمني، كما رايت حشوداًع من الزومبي، وكلاب بوليسية وسيارات مظلمة. وقابلت ضحايا وسمعت قصص مخيفة، إلى أن اصطدمت بجدار قادني إلى هذا النفق شبه المضيء...ورأيت غوريلا يلقي محاضرة على مجموعة من القروء، لكنه رأني

وأشار إليّ فخفت من هيجان القرود، فركضت  
ويدي ممسكة بهذا الصبي، فرأيت نفسي في  
سوق مقفل، وفجأة، تغيير المكان وديكوراته،  
فوجدت نفسي في هذا الممر الذي يشبه السجن  
حيث تمتد الزنازين على جانبيه. وها أنا أقف  
أمام زنزانتك..! وبالمناسبة، أنا أعيد سرد رحلتي  
في النفق كلما قابلت أحداً ويسألني عن هويتي..!  
علمًا إن الموتى بلا هوية.. فهم موتى..!

كانت المرأة تسمع لي وكأنها تعرف كل شيء  
أو مرت بكل شيء. صمتت للحظات وقالت:

هل أدركتَ يا آدم إنك ميت حي الآن..!؟

ماذا؟ فوجئ آدم الحارس بالسؤال.

ألم تكن تريد أن تعرف، حينما غادرتَ

المشرحة، هل أنت ميت أم حي؟

نعم.. صحيح. ربما أنا ميت حي..! فأنا لا

أعطش أو أجوع. لكنني حي بدليل أنا أتحدث

معك الآن..!.

ابتسمت المرأة ابتسامة حزينة على الرغم من

أن الغمامة الجلدية تغطي جزءًا كبيرًا من وجهها.

وقالت:

هكذا هم العراقيون يا آدم.. هم موتى أحياء.

حياتهم ليست بالحياة..! لكنهم يعتقدون بأنهم



أحياء. فهم يأكلون ويشربون وينامون ويمارسون الجنس ويتزوجون، لكنهم ليسوا أحياء.. هذه ليست حياة.. إنها حياة ميتة. وأنت ميتٌ حي، مثلي، ومثل كل الذين هنا. أما انتقالك وانعطافك في النفق إلى نفق أقل عتمة، فكما تعرف إن البلاد قد تم احتلالها وأُسقط النظام فيها، وجاء عهد جديد، لكننا مع ما يقارب عقدين من الزمان ما زلنا في غبش العهد الجديد. لم نتخلص من العهد القديم بعد. الزومبي في كل مكان. أبناء النظام السابق موجودون الآن بملابس جديدة، ولحي، ومساح وخواتم في اليد.

لكن كيف أنتِ هنا؟ سأل آدم الحارس، فقطاعته وهي تواصل حديثها:

أتعرف أنت الآن في مشرحة بغداد أيضًا. هنا مشرحة بغداد التي تخص العهود كلها. العهد القديم والعهد الجديد. النفق هو نفق الخراب العراقي يا آدم.

نعم.. نعم.. لقد مررت بمكتبة اسمها "مكتبة العهد الجديد"، التي حدثك عنها حيث الغوريلا يحاضر في مجموعة من القرود.

نعم.. الغوريلا.. والقرود. ستجدهم أينما اتجهت..! وكل شيء يواجهك ستراه يحمل سمات

العهد الجديد الذي لا يقل رعبًا وانحطاطًا عن  
العهد القديم.

فقاطعها آدم الحارس سائلًا:

سألتك: كيف أنتِ هنا؟

سكتت للحظات ثم واصلت:

لو رويت لك قصتي فربما لن تصدقها..!

فقال آدم بحماس:

سأصدقك.. فالموتى لا يكذبون، ولا يشككون..!

قرّبت المرأة كرسيها قليلا إلى الأمام وأخذت

تتحدث:

لقد ولدتُ في عائلة عريقة ومعروفة معظم

رجالها هم علماء دين معروفون. والدي كان من

كبار العلماء. كنّا عائلة ميسورة الحال جدًا. لدينا

بساتين وعقارات وفلل وقصور في بيروت وطهران

ولندن. عائلة كبيرة من الأبناء والبنات، وزوجات

الأبناء وأزواج البنات والأحفاد، وأبناء الأحفاد..!

كان اسم والدي محاطًا بالقداسة والهيبة

والاحترام الديني. كانت عائلتنا كبيرة، وتتوزع في

بيوت متجاورة حتى أن ذاك الفرع الذي نسكنه

هو شبه مقفل على بيوتات أخوتي وأخواتي

وأزواجهن. وكانت السيارات الألمانية، والسيارات

المصفحة والمظللة، الفارهة، غالية الثمن،

تصطف أمام تلك البيوتات. ناهيك عن السيارات داخل مرائب تلك البيوت.

كنتُ أصغر الأبناء بالنسبة لأبي، ومدلته المشاكسة. وكنتُ الوحيدة التي تمردتُ على تقاليد العائلة، فلم ألبس الحجاب على غرار أخواتي وزوجات أخواني اللاتي لبسنه من عمر السابعة. ولم أحض بهذا الامتياز من غير مقابل، فقد خضت شجارات كثيرة مع أخواني وأخواتي، ونلتُ ما نلت في فترة صباي ومراهقتي من الضرب، حتى وصل الأمر بي إلى محاولة الانتحار.

لم يكن رفضي للحجاب نتيجة وعيي للحرية أو تأكيدًا لإرادة الوعي الذاتي. كان مجرد عناد ورغبة في الاختلاف وإحساس بالاختناق. كانت شعلة التمرد في داخلي متقدة.

لكن العجيب الغريب إن والدي، وهو رجل الدين المعمم الجليل، طلب منهم أن يتركوني لحالي ما دمت لا أفعل شيئاً مسيئاً لأوامر الله، فالحجاب ليس فرضاً. وكان الجميع ضده في هذا الأمر..! لكن كلمته بصددي كانت حاسمة.

ذات مرة استدعاني إلى صومعته. وحين جلستُ أخذ يحدثني بهدوء الحكيم فقال لي:

اسمعي يا ابنتي. لقد دافعت عنك أمام أخوتك وأخواتك وأصهارك. لكني أتمنى ألا تتكسي رأسي، بل على العكس، أتمنى أن أفخر بك وأثبت لهم بأن قيمة المرأة ليس بجلايبها وحجابها وإنما بما تنتجه من خير لأجل الصالح العام والناس. فخير الناس مَنْ نفع الناس. أنا سوف أدعمك، لأنني أتوسم فيك الخير كله، مع إدراكي بأن حياتك لن تكون سهلة في ظل عائلتنا المحافظة والتمسكة بالتقاليد، لكنني أعدك بأنني سأدعمك وأحميك ما حييتُ.

طبعاً شكرته وقبّلتُ يديه ودعوت له بطول العمر والصحة والعافية. ووعدته بأنني لن أدع الندم يتسرب إلى نفسه لحمايتي ومنحي تلك الحرية التي تعد هائلة في عائلة محافظة مثل عائلتنا، بل وعدته بأن أجعله سيفتخر بي.

كنت حينها في الرابعة عشر من العمر. وكانت المدرسة التي أدرس فيها لا تقبل طالبات عاديات إلا هاتيك اللاتي جئن من العوائل المعروفة في مدينتنا. وكان عدم حجابي مبعث استغراب إدارة الثانوية، لاسيما وأنا معروفة النسب.

في تلك الفترة وجدت ميلاً نحو القراءة. فقد كنت لا أميل لأهواء الفتيات اللواتي بعمرى. ولا

أتقرب من صديقاتي في الصف الدراسي. ولا أنكر إنهن كن لطيفات، ودودات معي، يسعين إلى التقرب مني، لكنني كنت شبه منطوية.

في بداية الأمر تجنبيني لأنني كنت غير محجبة. وكان هذا مصدر دهشة واستغراب الهيئة التدريسة أيضاً، كما قلت لك، لكنني كنت مجتهدة، وسلوكي، على الرغم من عدم حجابي، متحفظ وهادئ جداً.

أنا أعدّ من جيل العهد الجديد، فحين سقط النظام الاستبدادي السابق وتم احتلال البلاد من قبل الأميركيين كنت في الصف الثالث الابتدائي. ولم يكن حالنا العائلي، على الرغم من يسره سابقاً أيضاً، بهذا الهيلمان الذي وصلنا إليه في العهد الجديد.

كانت سيارة مرسيدس فارهة توصلني يومياً إلى المدرسة التي لم تكن بعيدة، وترجعني بعد انتهاء الدوام إلى البيت أيضاً، حيث لن أخرج بعدها حتى اليوم الثاني.

وكان هذا الأمر كما عرفتُ في ما بعد ضمن حجج والدتي ضد أخوتي الذين اعترضوا على عدم حجابي، بأن سيارة مغلقة تأخذني إلى المدرسة وترجعني أيضاً، فلن يراني أحد وأنا

سافرة. وفي المدرسة كلهن فتيات مثلي ولا رجل هناك، فحتى المستخدمين هم من النساء.

في تلك الفترة بدأت لديّ هواية القراءة. لدينا في البيت مكتبة هائلة، قاعة حقيقة تكتظ بألاف الكتب. وكنت أميل لقراءة الشعر القديم، المعلقات وشعر المتنبى والمعري وأبي نؤاس وكتب السيرة، سيرة الأنبياء والأئمة المعصومين، وكتب المعتزلة والأشاعرة.

ذات يوم. وفي درس الإنشاء، قرأت إحدى الطالبات، وطبعًا من المحجبات، نصها الذي كتبتة، وكان موضوعًا حول الفقراء المساكين. وقد أعجبنى هذا الحس الإنساني بالتعاطف مع الفقراء، وإدانة المستغلين والطفيليين الذين يعيشون على جهد الآخرين من دون أن يفعلوا شيئًا.

كانت هي تقرأ وأنا أفكر بأنها تتحدث عن عائلتنا التي تصلها الهبات والتبرعات والخمس باسم الدين بينما لا يعمل أبي ولا أخوتي شيئًا سوى الإمساك بمؤسسات الطقوس الدينية التي تدر علينا أرباحًا خيالية تتكدس في حسابات العائلة في أوروبا.

صار لديّ فضول لمتابعة هذه الطالبة، وما

تقوله، أو تفعله، سواء أثناء الدرس أو أثناء  
الفرص بين الدروس.

ذات يوم لمحتها تقرأ في كتاب خارجي وضعته  
في وسط كتاب مقرر. كان لدينا درس في التاريخ  
لكن المدرسة لم تأت، فبقينا أحرارًا من الدرس.  
لم ينتبه أحد لما تقرأ. كانت تجلس على مقعد  
أمامي لكن في الصف الجانبي. لذا كنت أرى  
إنها تقرأ في كتاب لا تريد أن يراه أحد. ولا أدري  
كيف حانت منها التفاتة نحوي ورأت بأنني أراها.  
ارتبكت لكنها ابتسمت لي بخجل، فمن وضعي ولا  
حجابي خمنت بأنني مختلفة عن البقية. ولأنه لم  
تكن هناك مدرسة ولا درس فقد سألتها بما يشبه  
الهمس:

ماذا تقرأين؟

ابتسمت لي وقالت بصوت خافت:

سأخبرك لاحقًا.

فألححت لمعرفة عنوان الكتاب وسألتها:

هل هو سر؟ لماذا تخفينه بين الكتاب

المقرر؟.

فاسترخت قليلاً وأجابت:

لا ليس سرًا لكن لا أحد يحبذ قراءة مثل هذه

الكتب؟ وربما سيسبب سوء فهم كبير..؟!.

فابتسمت لها وقلت:  
خمنت ذلك، فلا تخافي مني..!  
أحست بشيء من الأمان وقالت وكأن بيننا  
ولد شيء مشترك :  
أنا لا أخاف منك، بل أخاف من الآخرين.  
فهمستُ لها بتعاطف واضح:  
سرّك في برّ كما يقال.  
صمتت للحظة ثم قالت :  
كنت أقرأ في كتاب يتحدث عن التاريخ الخفي  
للإسلام.

صدمني العنوان، فقلت:  
ماذا؟ التاريخ الخفي؟ هل للإسلام تاريخاً  
خفياً؟

فقالت بثقة:  
نعم..  
رددت عليها فوراً وبيقين:  
هذه كتب مشبوهة يكتبها اليهود لتشويه  
الإسلام.

ابتسمت ابتسامة وكأنها تعرف أكثر مني،  
وقالت:

المؤلف مسيحي. وقد اعتمد على بحوث  
لكبار الباحثين في الفترة ما قبل الإسلام وما



سبق الوحي، والفترة التي عاشها النبي قبل التبشير بالنبوة والإسلام. واعتمد على ما كُتب من قبل المؤرخين المسيحيين واليهود والرومان في تلك الفترة. وهي فترة غامضة لا يوجد من كتب عنها في تاريخنا الإسلامي، فالتدوين بدأ في العصر العباسي، وقبله لم يكن هناك من كتب تاريخاً للإسلام.

صدمتني معلوماته التي كانت جديدة بالكامل عليّ، فأيقظت فضولي، فسألته:  
وماذا يقول الكتاب؟

أحسستُ أنها ارتاحت لسؤالي وغمرها شيء من التفوق المعرفي، فقالت:

يقول الكتاب، بشكل مختصر وموجز، بأن النبي تعرّف على ما جاء في النصوص اليهودية و المسيحية، وتعرّف على قسس مسيحيين في الأديرة أثناء تنقله في التجارة، في إيلاف قريش، في رحلة الشتاء والصيف. وإنه تعرف على طائفة مسيحية متطرفة، كانت تتهم بقية الطوائف بالزيف وبأن نصوصهم مزيفة، وإنها تنتظر ظهور ماسياس، المسيح، وأن النبي تأثر بهذا الأمر، فأعلن نبوته.

صدمني ما قالت، فرددتُ باستنكار:

هذا كفر. كيف تقرأين مثل هذه الكتب  
الخطيرة؟ من أتى لك بهذا الكتاب؟  
ارتبكت، فقالت لا إرادياً:  
أخي. أخي يقرأ مثل هذه الكتب، ليس هذا  
الكتاب وحده وإنما هو يقرأ بعشرات الكتب التي  
تنظر إلى الدين باعتباره مخدرًا للشعوب الفقيرة  
البائسة التي تنتظر الحل من السماء في العالم  
الآخر..!

كانت صدمتي كبيرة. وذلك النقاش كان  
منعطفًا مهمًا في سيرة حياتي. فقد بقيت ليالي  
وأيام أفكر في ذلك الإيجاز المكثف، الذي لم  
يديم التعبير عنه سوى دقائق لكنه نسف، لا إرادياً،  
عشرات الكتب التي قرأتها عن سير الأنبياء وعن  
الإسلام؟ وبصراحة أعجبنى تفسير وسر تمسك  
الفقراء بالدين أضعاف تمسك الأغنياء به..!

وكنت أراه في وضع عائلتي، ووضع الفقراء  
والأغنياء الذين يأتون لنا بالنعيم والخيرات  
والتمور والزيت كهدايا تقرباً من قداسة أبي..!

صار لديّ فضول بأن أتقرب أكثر من تلك  
الفتاة، وهذا ما حصل. ولأن فترة حديثنا  
وصداقتنا في المدرسة فقط، لذا بعد فترة  
أخذت أدعوها إلى بيتنا. استغربت والدتي

وأخواتي، لكن حين رأوا أنها محجبة لم يعترضوا  
قط، وفكروا عسى أنها ستؤثر عليّ وسأتحجب  
بحكم صداقتنا...!..

صار حضورها الأسبوعي مقبولاً عائلياً.  
وكانت تأتيني بالكتب سرّاً. بدأتُ أشعر بإزدواجية  
كبيرة في تفكيري وسلوكي، فأنا متحررة شكلاً  
لكني محافظة فكرياً، وصديقتي محافظة شكلاً  
لكنها متحررة فكرياً...!..

القراءات المشاكسة غيرتني. عرفتُ الخديعة  
التاريخية التي وقعنا فيها، فالإسلام الذي نعرفه،  
بل التاريخ الذي نعرفه هو إسلام عباسي. كتبه  
العباسيون، فما هي مصداقية سيرة النبي التي  
كُتبت بعد ما يقارب 150 مائة وخمسين عاماً؟  
وأحاديث كُتبت وجمعت بعد ثلاثمائة عاماً من  
هجرته...!

وهكذا تسرب الشك إلى عالمي الفكري. ومن  
خلال صديقتي تلك تعرفت على أخيها، الذي  
صار يرسل بيد أخته كتباً ومجاميع شعرية لنزار  
قباني وهي تختلف عن دواين الشعر الكلاسيكي  
التي تمتليء بها مكتبتنا البيتية. وصار يسأل  
أخته عن رأيي بهذا الكتاب أو ذاك وهذه  
المجموعة الشعرية أو تلك الرواية، حتى تشكّل

بيننا انجذاب نفسي لا إرادي. وكم كنت أتمنى أن أراه لكنني كنت أستحي أن أعبر عن أمنيته تلك أمام أخته.

ويبدو أن أخته أدركت ما يجول في نفسي من كثرة أسئلته عنه وعما يفعل أو كيف يفكر...!. فذات يوم فاجئتني بإبراز صورة لشاب وسيم، وقالت هذا هو أخي. وأدركت لحظتها بأنه أرسل الصورة خصيصًا كي أراه، وهو ينتظر، ربما، بالمقابل أن أرسل صورتي...! لكنني، بكل تحري، لا أجرؤ على إرسال صورة لي، فأنا أصلاً لا أملك صور شخصية، فالتصوير محرم في عرف عائلتنا. لكنني اتفقت مع أخته، حينما سألتني بجرأة بأن أخيها يرد رؤيتي، على أن ينتظر بعيدًا عن بوابة المدرسة وقت انتهاء الدوام، ويراني عندما أصعد سيارتي. وهذا ما حدث. حيث وأنا أنوي الصعود إلى سيارتي أوقفتني أخته بحجة طلب شيء أو حجة أخرى، فوقفت معها عند باب السيارة لدقائق كانت كافية له لرؤيتي من بعيد.

وهكذا بدأت أول علاقة عاطفية لي، التي امتدت لأكثر من سنتين. لكن مدينتنا كان تموج وتفور بالأفكار المتطرفة بعد سقوط النظام الاستبدادي. متطرفة في كل الاتجاهات. وفي

تلك الفوضى صار اصطیاد الشباب الذي لا يسلك السلوك الديني عرضة للاقتتاص والاغتيال والموت المجاني. وذات يوم وجدوا جثته الشاب عند ساقية في بستان على أطراف المدينة.

كان اغتياله منعطفًا حقیقًا في حياتي. ولأول مرة شعرتُ بالرعب من الآتي. لاسيما وأن أخته انقطعت عن التواصل معي، بل وعادتي، فقد تسربت شائعات بأن أخوتي وراء اغتياله..! كيف؟ هل كانوا يعرفون بعلاقتنا؟ كيف عرفوا؟ ولماذا لم يكلمني أيًا منهم ويسألني عن صدق ذلك من عدمه؟ أنا لم أراه أو ألتق به قط، بل ولم أكتب له حرفًا، فكيف يمكن لهم أن يهتمونا بوجود علاقة؟

كنتُ أظن إن الجهات المتطرفة التي تشكلت بعد سقوط النظام، التي استولت على أسلحة الجيش الهارب، هي التي أخذت تغتال من يعارض أفكارها وتوجهاتها وتتقم من بعض الناشطين في النظام المباد. وأعرف أن هذا الشاب لا علاقة له بالنظام السابق لكنه معارض لكل هذه الأيولوجيات الدينية المتطرفة التي تريد ابتلاع الدولة، فقد كان يحتكم للدولة المدنية ودولة المواطنة، لذا كان الاحتمال الأكبر في إن هذه الجهات هي من قامت باغتياله، لكن

صدمتي كانت هائلة حينما سمعتُ بأن أخوتي هم وراء ذلك!.

لم أتحدث قط ولم أسأل عنه ولا عن أخته التي قاطعتني، بل حتى أهلي وأخوتي لم يشيروا ولو بكلمة أو جملة ملغزة عما جرى، بل لم تسأل أمي عن سبب انقطاع صديقتي الحميمة عن زيارتي وكأنها كانت تعرف لكنها تصمت.

وأنهيت الثانوية. وتم قبولي في جامعة بغداد. اعترض أخوتي علانية على مواصلي الدراسة الجامعية، لكنني ألححتُ وقابلت أبي منفردة، ووعدني بأنه سيحدث أخوتي. لذلك دعاهم إلى اجتماع عائلي، ليعلن أمامهم موافقته على مواصلة دراستي الجامعية، فلم يجد أخوتي بد من الخضوع على الرغم من اعتراضهم العلني، بيد إنهم أشترطوا لموافقته أن ألبس الحجاب والعباءة أسوة بابنة أحد رجال الدين الكبار والمعروفين جدًا، التي تدرس في بغداد أيضًا، لكنها محجبة. وكنْتُ قد سمعت عنها قصصًا مثيرة على الرغم من حجابها. ولأنني أردتُ التحرر من قبضتهم، لذا وافقت.

ودخلتُ مرحلة جديدة في حياتي. كان تحولًا عظيمًا. لبستُ الحجاب والعباءة، ويبدو أنهما

منحاني ملامح إثارة أشد مما حين كنت سافرة،  
بل ومنحاني حرية أكثر في التحرك، فالحجاب  
حماية من مسي بأي لفظ أو نظرة رافضة.  
استأجر لي أخوتي شقة في منطقة الكرادة  
برعاية مجاميع من طائفتنا. ووفروا لي سيارة  
مرسيدس تقلني من الجامعة إلى البيت أو بعض  
تتقلاتي المحدودة للمتاجر الكبيرة أو المكتبات.  
كنتُ أعرف أنني محاطة بالعيون السرية التي  
تتابعني وتراقب تصرفاتي وتحركاتي. لكنهم لا  
يعرفون إنني أعيش حياة أخرى عبر وسائل  
التواصل الاجتماعي، الفيسبوك، والأنستاغرام  
والتليغرام والواتساب. ومواقع غامضة ومجهولة  
الهوية.

وسائل التواصل الاجتماعي خلقت لي حياة  
افتراضية أشد واقعية من حياتي الشخصية  
اليومية. منحنتي عشرات الأقنعة والأسماء  
والصور. فقد كانت لدي أكثر من عشر حسابات  
شخصية على وسائل التواصل الاجتماعي،  
بأسماء وصور مختلفة..!.

كنتُ أذهب نهاية الأسبوع إلى مدينتي  
المقدسة. ربما حياة الافتراضية السرية جعلتني  
أشد مكرًا في التعامل مع عائلتي والانسجام

معها، بل وأختلاق حالات وقصص تتسجم مع تفكيرهم. وتقرّبتُ من أخواتي وزوجات أخوتي، فسمعتُ قصصًا غريبة عن علاقاتهن بأخوتي وأخوتي بأزواجهن.

إحدى أخواتي التي زُوجت وهي في الخامسة عشر من العمر باحت لي وهي تتألم بأن زوجها عاجز جنسيًا، وأنها تعاني، ولا تستطيع أن تقول شيئًا لأن ذلك سيسيء لها باعتبارها بلا حياء وأنها شبيقة ككلبة. وبأنها زوجة عاقبة تكشف أسرار زوجها التي تمس رجولته، بينما هي وزوجها يتظاهران بالسعادة حينما تسألها أمي أو بقية أخواتي مازحات بأنهم ينتظرون ولي العهد!

كنتُ مستمتًا بسردها لسيرتها، لكنني كنتُ أود أن أعرف كيف جيء بها إلى هذه الزنزانة، ولماذا تضع قناع القرصان الجلدي على عينيها، لذا سألتها مجددًا:

أردتُ أن أعرف كيف جيء بك إلى هنا؟

صمتت للحظات، ثم قالت:

لماذا أنت عجول ولحوح يا آدم. الموتى لا

يلحون، وهم غير عجولين، فأمامهم اللانهاية.

أسف.. إنني أسمعك..!



ابتسمت بحزن وواصلت:

الجامعة فتحت لي عالمًا كنت في منأى عنه.  
كنت متحفظة، بل وكان الآخرون يتجنبونني أيضًا.  
لا أعرف لماذا؟ ربما مهابة من الوضع الذي أنا  
فيه، فقد كنت أصل الجامعة بسيارة المرسيديس  
أسوة ببنت الشخصية الدينية المعروفة الأخرى.  
وربما فضول العراقيين في النبش وراء نسب أي  
شخص ومعرفة أصله وفصله.

بالمناسبة، أهلي لم يتركوني لوحدي، فقد  
كانت تعيش معي امرأتان شابتان مرسلتان من  
قبل أهلي لرعايتي، وتنظيف المنزل وإعداد  
الطعام والقيام بالواجبات المنزلية الأخرى، وكما  
عرفتُ كانت أمي تتصل بهن يوميًا تسفسر عني  
وعن وضعي بشكل عام. وطبعًا هن كن ينقلن كل  
ما يجري، لكنهن من جهة أخرى كن لا يخبرنها  
بأني أقضي وقتًا طويلًا أمام الكمبيوتر والآيباد  
كان يرافقني حتى في سرير النوم.

وحدث ذات يوم ما غير حياتي كلها، إذ كنتُ  
مضطرة لأخذ الأسئلة من أحد الأساتذة في  
درس الفلسفة، فذهبتُ إلى مكتبه لأخذ الأسئلة  
من سكرتيرته، لكنني لم أجدها في المكتب. وفي  
تلك اللحظة خرج الأستاذ من مكتبه فرآني،

فعرض خدماته ومساعدته، فقلت له بأني جئت لاستلام الأسئلة المحتملة في الفحص الفصلي، فدعاني للدخول إلى مكتبه.

ترددت، لكنني وجدت نفسي منجذبة نحوه، فقد كان وسيماً، مليئاً بالرجولة والملامح التي تجذبني في الرجل، إلى جانب أنني كنت معجبة بأفكاره وتحليلاته أثناء المحاضرات، لاسيما وأنه كان أحياناً يخرج عن موضوع المحاضرة ليتحدث عن أفكار بقية الفلاسفة التي تتعارض عن المقرر التقليدي من التاريخ الفلسفي.

فمرة سأله أحد الطلبة المشاكسين عن غياب فلسفة إسلامية واضحة. كان الطالب يحاول أن يتهمكم، لكن الأستاذ، مع ما معروف عنه من تعمق في الفلسفة الغربية، لكنه اتضح أن عارف بتفاصيل حركة الفكر الفلسفي في الإسلام، إذ تحدث بإعجاب شديد عن ابن سينا، وعن ابن عربي، والفارابي، لكنه تحدث عن الملا صدرا الشيرازي في كتابه (الحكمة المتعالية) باعتباره من المؤسسين لما يمكن أن نسميه بالفلسفة الإسلامية، إلى جانب شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي. وأخذ يقارن بين نظرية ابن سينا في الفيض الإلهي وما جاء في الفلسفات

الإغريقية، وفي ما بعد في فلسفة سبينوزا .  
ومنذ تلك المحاضرة وجدتُ تقبلاً نفسياً له .  
وكم مرة، وأنا وحدي في غرفتي، كنتُ استحضره  
لأخوض معه نقاشاً افتراضياً معظمه عن الدين  
وحقيقة التنزيل .

وكان يحدث، وبشكل غريب جداً، أن أفكر في  
موضوع محدد أو أسئلة افتراضية فكرية، وأجده  
في اليوم التالي يقدم محاضرة تمس السؤال  
الذي افترضته . حتى فكرت بأن بيننا شيئاً من  
التواصل التليباثي والاستحضار الروحي .

المهم، حينها دعاني للجلوس على كرسي  
المحادثة أمام طاولة مكتبه . وبمبادرة رشيقة  
منه أزاح الرسمية في تواصلنا إذ جلس على  
الكرسي المقابل لي . تعجبتُ وارتبكتُ قليلاً لأنني  
لم أجلس مع رجل بهذا القرب في حياتي قط .

شعرتُ بالسخونة ترتفع إلى خدي، وبعض  
الارتعاش والدغدغة في أسفل بطني، تحت  
السرة . وبسرعة في خفقان قلبي، وتصاعد  
أنفاسي حتى راودني شعور خفيف بالاختناق .  
ارتبكتُ . ما الذي يجري معي؟ كنتُ خائفة أن  
يدخل أحد ما من الطلبة أو الطالبات، أو حتى  
سكرتيرته فيرى خلوتي معه .

انتبهتُ إلى أنه كان يتأملني، لذا صعِدتُ  
الدماء إلى وجهي. ويبدو أنه عرف ما يدور في  
خاطري، فقال:

لا تقلقي.. السكرتيرة أخذتُ إجازةً زمنيةً.  
لكن لديّ سؤال..؟

تفضل...! قلت بارتباك.

لماذا أنت صامتة لا تسألين أو تناقشين أثناء  
محاضراتي..؟ هل محاضراتي مملة ولا تعجبك؟  
ار تبيكتُ أكثر وشعرتُ بالخجل، لكنني  
استجمعت نفسي وقلت:

لا أبدًا. أنا أستمع جيدًا لمحاضراتك. وكثيرًا  
ما أسترجع في البيت بعض الأفكار المهمة التي  
ترد فيها. فهناك أشياء، بل وأفكار تذكرها لا  
نجدها عادةً في كتب التاريخ الرسمي للإسلام  
وللحراك الفكري فيه على مر العصور.

ابتسم لي بأريحية ابتسامة مسّت روعي،  
وقال:

يسعدني أن أسمع ذلك. لكن بعض الطلبة  
يشيعون عني بأنني أحاول أن أزرع أفكارًا خارجة  
عن الشريعة، وتهز الثوابت العقائدية لهم. فقد  
عاتبني العميد بأنني أخرج عن موضوع  
المحاضرات كثيرًا وألقي على الطلبة أفكارًا

ومفاهيم تسبب لهم بعض الإرباك العقائدي.  
لكني لم ألحظ ذلك. كنت بحماس وبنبرة  
استتكار.  
ابتسم ابتسامة عريضة حتى بانت نواجذه،  
وقال:

مع إنك ابنة رجل دين مشهور، فقد كان الأولى  
بك أن تكوني من أول المعترضين وفق النظرة  
التقليدية، لكنك كما يبدو لي تفكرين بطريقة  
مختلفة. أريد أن أسألك سؤالاً.

ارتبكتُ لكن غمرتني موجة من الفرح لمديحه  
المباشر لي، فقلت:  
تفضل.

أنت تؤمنين بأن النبي هو آخر الأنبياء  
وخاتمهم، كما قال هو عن نفسه.  
صح.. أوومن بذلك. وهل لديك شك في  
ذلك..؟

فواصل أسئلته:  
وتؤمنين بأن الله إذا أراد شيئاً يقول كن  
فيكن..!

صح.. هو قادر على كل شيء قدير.  
هل تعتقدين لو شاء الله أن يرسل نبياً بعد  
نبي الإسلام لأرسل..!

صح.. ونعم بالله. الله قادر. وهو على كل شيء قدير.

يعني يمكن لو شاء الله أن يرسل نبيًا بعد محمد فلا يكون هو خاتم الأنبياء.  
هذا صحيح.

هل تعتقدين إنك كفرتِ وارتددتِ عن الإسلام؟  
لا أبدًا.. بل ينسجم مع العقل والدين.. لكن  
لِمَ سألتني هكذا؟

هذه الأسئلة هي نفسها التي سألتها فقهاء الإسلام لشيخ الإشراف شهاب الدين السهروردي،  
وحيث أجاب مثل إجابتك حكموا عليه بالردة،  
وأنه يعارض كلام النبي بأنه لا نبي بعدي.

لكنهم بذلك يقللون من قدرة الخالق الذي هو  
قادر على كل شيء...وماذا فعلوا به..؟

يقال تركوه في زنزانية بقلعة حلب حتى مات  
عطشًا وجوعًا. ويقال إنهم خنقوه بحبل حرير.  
ما هذا؟ قلت مستكرة.

هذا هو جزء من تاريخنا الفكري.  
وأخذ يحدثني عن ابن سينا وكيف سمموه.  
كنت أعيش أحلام يقظتي بينما هو يتحدث.  
وتطرق ليروي لي بعض جوانب حياته. ومر  
الوقت. انتهت إلى أننا تحدثنا أكثر من ساعة

وربع. لم يكن الحوار والحديث بين أستاذ وطالبة.  
لا أعرف كيف أطلق على تلك المشاعر والعلاقة  
اسمًا. وأخيرا بكل جرأة سألني إن كنت لا أمانع  
بأن نتواصل هاتفيًا، وأعطاني معرف صفحته  
على الفيسبوك والتليغرام. وتبادلنا الأرقام  
الهاتفية والرموز... ذلك اليوم كان بداية لحياة  
جديدة.

في مساء ذلك اليوم كنت متلهفة ومنتظرة  
اتصاله. كنت كالمراهقة. خلال ساعة نظرت  
وفتشت في هاتفي النقال عشرات المرات.  
ودخلتُ على صفحته الفيسبوكية فوجدتها شبه  
رسمية. ربما هو يتجنب سوء الفهم. والحقيقة  
خاب ظني بها. حتى قائمة الأصدقاء محدودة  
جداً.

اجتاحتي كآبة غير منتظرة. كنت أعرف أن  
كآبتي هي بسبب عدم اتصاله، حتى أن المرأتين  
اللتان معي انتبهتا لحالتي، فسألتي إحداهما  
عما بي؟ فتحججت بقدوم الامتحانات التي  
تتطلب مني الدراسة والبحث في مكتبة الجامعة.  
ولا أعرف لماذا قلت ذلك، لأن هذا الأمر ساعدني  
في ما بعد كثيرًا.

حين انفردتُ بنفسي في آخر المساء بغرفتي

وأخذت أتجول في عالم الفيسبوك، وصلتني رسالة غريبة على المسنجر، الاسم غريب عليّ، لكن مضمونها أفرحني. فقد جاء النص يشير إلى أن صاحبها هو الدكتور آدم المدني. وهذا أيضًا حسابه لكن غير الرسمي والمقتنع.

ترددتُ في البداية بأن أجيب عليها، لكنني لم أطق صبرًا، فكتبت له سائلة كيف لي أن أعرف بأنه هو؟ فطلب أن نفتح الكاميرا، لكنني مع ذلك لم آمن لهذه المغامرة على المسنجر، فقلت له لنتحدث على الواتساب، فاتصل بي مباشرة من هناك، من الرقم الذي لديّ والذي سجلته باسم أنثى تحسبًا من أي طارئ. وكان هو. لكنني أسرعتُ فلبست حجابي.

لا أعرف كيف أصف ذلك الحوار في تلك الليلة. تطرقنا إلى كل شيء. كنت أشعر بالحرية معه، كأنني أعرفه منذ سنوات. حدثته عن نفسي بشكل مفصل، عن عائلتي بشكل مقتضب، لكنه أخذ يتوغل في عالمي النفسي، في البداية كنت حذرة ومتحفظة قليلًا، لكنني استرخيت في ما بعد.

تحدثنا لأكثر من أربع ساعات. وصار بيننا ألفة لم أعرفها في حياتي مع أحد. لا مع رجل



ولا مع امرأة، لكنه فاجئني بطلبه أن يراني من دون حجاب. ترددت أول الأمر، لكنني وجدتُ في نفسي الرغبة فعلا بأن يراني من دون حجاب. فنزعته.

لا أعرف ما الذي جرى له، فقد رأيتُ الدهشة والإعجاب، بل والوله في نظراته. وصار تواصلنا ليلاً، لكننا في الجامعة نتعامل رسمياً. لكنه صار عاشقاً مراهقاً، فأحياناً يقطع المحاضرة بدعوة أنه نسي إرسال شيء مهم، فيكتب لي كلمات على الواتساب ويرسلها، فأقرأها، وأنا في قاعة المحاضرات. كنا متعلقين ببعضنا بشكل مهووس.

ولأكن صريحة معك. لم أشعر يوماً بمراهقتي، ولا بأنوثتي قط. مع أن أن جسدي يحمل كنوز الأنثى بكل نضجها وجمالها. لكن لم أمر بشبق المراهقات ولهفتهن للتجربة الجنسية، لكن معه، معه فقط، بدأت أشعر بأنوثتي، وسريان الرغبة في جزئي السفلي، الذي انتبهت لبركانه المتقد الذي يفيض سيلاً من ماء الحياة كلما حدثته أو فتحنا الكاميرات آخر الليل.

ومع مرور الوقت تمادى هو في رؤيتي، فكان يريد من أن يراني بكامل قامتي وفي ثوبي البيتي. في البداية ترددت، لكنني كنت أشعر بأنه الرجل

الوحيد الذي من حقه أن يراني، واستجبتُ  
لرغبته. وتمادى أكثر، لكنني كنت منجرفة معه في  
تلبية رغباته، علما أن ذلك كان يفرحني أيضًا.  
في البداية كان ذلك يخلف لديّ تأنيب ضمير  
وشعورًا بالذنب، لكن في ما بعد صار الأمر  
اعتياديا وتلقائيًا وتجربة مثيرة.

لكن حدث ذات يوم وأنا في الجامعة أشتقت  
لرؤيته. لم تكن لديه محاضرات فذهبت لرؤيته  
في مكتبه. كنت أعرف أنه فترة استراحة الغداء،  
ومن المحتمل جدًا ألا تكون السكرتيرة موجودة،  
مع أنني تجنببت زيارته منذ بدء علاقتنا الليلية  
كي لا أثير الشكوك والقييل والقال. وفعلاً لم تكن  
السكرتيرة هناك، فدخلت مكتبه مباشرة، لكنني  
فوجئت بوجود امرأة أربعينية أنيقة تجلس على  
كرسي المداولة.

فوجئت، ولأول مرة في حياتي أشعر بالغيرة  
القاتلة، بل الغيرة المجنونة. لكن ما دعاني إلى  
السيطرة على نفسي هو عدم ارتبائه، وكأن  
وجودها عادي جدًا، بل قام مرحبًا بي، داعيًا  
إياي أن أدخل وأجلس. وبادر إلى أن يعرفنا  
بعضنا.

وعرّفها لي بأنها السيدة حواء العدوانية، وهذا

اللقب اتخذته تيمناً بالمتصوفة رابعة العدوية، وهذه السيدة كما قدمها الأستاذ، صاحبة مشاريع وأعمال، ومثقفة، تهتم بالثقافة جداً، ولديها صالون ثقافي في بيتها بالمنصور. وقد جاءت بنفسها لدعوته إلى صالونها من أجل تقديم محاضرة فكرية عن واقع الثقافة العراقية بعد الزلزال السياسي والاجتماعي الذي جرى في العام 2003.

هدأت نفسي. لكن المرأة لم تكن تبدو كسيدة أعمال، بل تبدو وكأنها كانت زوجة لتاجر فاحش الثراء، لكنها ورثته، بكل ما لديه من شركات واستثمارات. ولأنها أرادت التمايز، لذلك أعجبها أن تكون مثقفة وصاحبة صالون ثقافي يشار له في الأوساط الثقافية، لكن بريق هيئتها لا يشي بكونها مثقفة، ولا تشع شخصيتها بذلك الإشعاع والهالة التي ترافق شخصية المثقف الأصيل.

كانت امرأة جذابة ومثيرة، تشع بأنوثة طاغية، قلَّ من لا ينتبه لها، سواء من الرجال أو النساء. ذات شخصية مهيبة من دون أن تصطنع المهابة. واثقة من نفسها من دون قناع، تنظر إلى الأشياء وإلى الآخرين بوضوح ومباشرة.

بل كانت تنظر بحدّة بحيث تعطي المقابل

انطباعًا غير مريح عنها بأنها متكبرة ومتعالية، أو أنها تستخف بالمقابل وأنها متكبرة، بل ومتعالية. لكنها ولا أعرف إن كان ذلك مجاملة أو أصالة عبرت عن إعجابها بأناقتي وحجابي، ولم أسألها ما معنى المختلف.

الغريب أنها، وهي تغادر مكتب الدكتور، دعيتي لصالونها. وطلبتُ من الدكتور آدم المدني أن يأتي بي معه. بيد إن ما أعجبني في الدكتور آدم المدني أنه لم يكشف عن هويتي ونسبي الديني المتعالي.

حين همّمت بالخروج وقامت لتغادر، قام الدكتور آدم من مكانه وجاء إلى أمام المكتب، فقامت أنا أيضًا احترامًا لهما. أوصلها الدكتور إلى الباب الأخرى للمكتب. وحين عاد إلى مكتبه أغلق الباب. كنت ما أزال واقفة. وبشكل مفاجئ لي، جاءني واحتضنني. جفئتُ. فلم أتوقع منه هذه الحركة. لم استجب أول الأمر، لكنني شممت عطره، فأعجبني جدًا واسترخيت، وفاجئني أكثر حين قبل جبيني وعيني. ثم انسحب إلى مكانه حول طاولة المكتب.

والحقيقة، أنه على الرغم من ارتباكي الشديد، لكنني أحسستُ بدغدغة تسري في جسدي حين

ضغطني إلي جسده، وأحسستُ بسرّيان لذة لم أعرفها تسري في نهديّ، بل وبارتعاشات لذيذة تسري في منطقة ما تحت السرة إلى ما بين فخذيّ.

وشعرتُ بالخوف. فها هي الخطيئة التي تحذر الأديان منها. لكنني كنت مرتاحة جسديًا. شعرتُ بخفة جسدي، وتوقه لإعادة الكرة. لكنني من جانب آخر انتقدته مع نفسي لتجاوزه الأخلاقي، فنحن لم نصل بعد إلى هذه المرحلة. لكنني سمعتُ صوتًا داخليًا يسألني: «إذا لم تكوني تريدين ذلك فلماذا شعرتي بالغيرة حين رأيتِ امرأة أخرى في المكتب؟».

جرأت الدكتور آدم المدني حطمت الجدران الوهمية التي بيننا. واعترفتُ مع نفسي بأنني أحبه وأريده. نعم أريده. صحيح أنني بلا تجارب جسدية، بل وما زالت أمامي قيود وسلاسل لتجربة ذلك، لكنني قرأت كثيرًا عن عالم الجسد والرغبات وتفاصيلها. بل، شاهدت فيدوات إباحية لغرض معرفة ما يجري حقًا. وتذكرتُ كل تفاصيل طفولتي ومراهقتي، زوجات أخواني، وأخواتي وحياتهن السرية الخاصة. وأدركت شوقي المتأجج. ومع ذلك كنت أسيطر على

نفسي وألجم رغبات جسدي.

ولكيلا نتحدث بما قام به الدكتور، الذي اعتبرته من لحظة احتضاني بأنه حبيبي، فقد أخذتُ أسأله عن تلك المرأة. كانت أسئلتني نابغة من غيرة خفية ومن محاولة للهروب من الحديث عما فعله قبل قليل، مع أن جسدي كان لا يزال يعيش خدرًا لذيذا وشهوتي تكاد تتفجر.

وتكررتُ هذه اللقاءات الخفية في مكتبه. وتكرر الاحتضان، بل صار أكثر جرأة، فمرة كنت في كافتريا الكلية، ورأيت سكرتيرته وهي تحمل صينية الطعام، فتركتُ ما كنت قادمة من أجله، وأسرعتُ إلى مكتبه. وما أن دخلت عليه حتى احتضنني، وفي تلك المرة قبلني من شفتي قبلة حارة وشبقة. ومد يده لتعصر نهدي وباقي أجزائي. شعرت بأني أكاد أنهار من شدة الشبق، لذا تماسكت ولذتُ بالفرار من مكتبه، لكنني كنت أعرف بأني سأعيد الكرة وبجرأة أكبر..!.

كان لديّ شعور غامض بأن ثمة أسرار بين حواء العدوية وحبيبي الدكتور آدم المدني. لكن كل حديثه عنها كان محايدًا ولا يشي بأي شيء خاص بينهما. وذات ليلة طلبتُ منه، أثناء تواصلنا، أن يحدثني عنها أكثر لاسيما هو كرر دعوتها لي

وضرورة زيارتها، وأكدت له بأني لا أستطيع الذهاب إلى بيت امرأة لا أعرفها.

أخبرني بأنها امرأة فاضلة. درست الفلسفة في الجامعة، لكنها لم تستطع أن تجد عملاً في هذا الاختصاص. كان لديها حبيب معها في الجامعة وكانا متفقين على الزواج، ومنحته نفسها، لكنه بعد التخرج تركها وتزوج ابنة عمه تحت ضغط العائلة. وحين حاجته، بأنها أحبته حتى أنها منحته نفسها، كشف عن وجهه القبيح، إذ اتهمها بالرخص لأنها منحته نفسها، وهذا يهز ثقته فيها كزوجة.

لذا سقطت منظومتها القيمية في هذا المجتمع المنافق. وقررت الانتقام من تجار الفضيلة. ومن أجل ضمان حياتها، تنقلت بين الصحافة والسكرتارية، إلى أن افتتحت لنفسها معرضاً للملابس النسائية.

وبعد فترة ليست بالطويلة تعرفت بالمصادفة على شخص فاحش الثراء، كبير في السن، عشقها. وصارت عشيقته. لكنه تعلق بها جداً فتزوجها. وتحولت إلى سيدة مجتمع. وانقلبت في طبيعة علاقتها بالرجال.

بعد سنة تم اختطاف زوجها من قبل إحدى

المليشيات المسلحة، وعلى الرغم من أنها دفعت مبلغًا كبيرًا جدًا وصل إلى مليون دولار، إلا إنه وُجد مقتولًا في إحدى الشقق التي كان يفترض أن يطلق سراحه منها.

ليس لديها أطفال. ولا يبدو أنها على علاقة برجل، بل هي صارمة في هذا الجانب. وهذا ما أحاطها بهالة من الفضيلة الصارمة، بحيث صار الرجال والنساء يهابونها ويجلوونها، بل ويتملقونها خوفًا من أحكامها الأخلاقية. بل صارت، مرجعًا لتزكية النساء والرجال أخلاقيًا.

والغريب أن بيتها وصالونها صار ملتقى للرجال والنساء الفاضلات اللاتي لا يخرجن من بيوتهن، بل صار فرصة لهاتيك النساء الفاضلات كي يختلطن بالرجال، بل ونشأت بينهن وبين الرجال علاقات حميمة خاصة جدًا ومستورة بأغطية الفضيلة، تقام كلها برعاية هذه السيدة.

لكنها مع ذلك فهي غريبة الأطوار في أحكامها. فقد كانت تدافع عن نساء مشبوهات اجتماعيًا وأخلاقيًا في وسائل التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام، بينما كانت تلوث سمعة نساء فاضلات حقيقيات يشقن طريقهن في المشهد الاجتماعي والسياسي بعيدًا عنها، بل هي سعت



لاجتذابهن لكهن رفضن ذلك فهن لا يوَدْنَ أن يكن  
من مريداتها. ومع ذلك فهو يدعوني لكسب  
ودّها.

أخبرت حبيبي بأنه يمكنني زيارة السيدة  
الفاضلة في وقت أرتبه أنا، فأنا لا أستطيع  
التحرك خارج حركة الجامعة والبيت. وياليتني لم  
أذهب...!.

حين نكون مشغولين بعالمنا الداخلي  
ومشاعرنا، نسهو عما يدور حولنا. وهذا ما صار  
معي. فقد سهوت عن كوني مراقبة من قبل  
جهات وأحزاب وميلشيات في المنطقة التي  
أسكنها، وبعضهم مكلف من قبل والدي وأخوتي  
بمراقبتي بشكل مباشر.

رتبتُ وضعي في البيت ذات يوم. أخبرت  
الرقيبات البيتيات بأني أستعد للامتحانات وأنتي  
سأتأخر في مكتبة الجامعة. واتفقت مع حبيبي  
الدكتور بأني سأذهب معه في سيارته، وإن عليه  
ألا يؤخرني هناك.

حين وصلنا أدركتُ بأن حبيبي نسق معها كل  
شيء. فلم يكن هناك أحد في البيت، فقد منحتُ  
تلك السيدة الفاضلة المساعدين في المنزل  
إجازة. أربكني ذلك وملأتي ريبة، لكنها طمأنتني

بأنها أعطتهم إجازة كي لا يراني أحد منهم في بيتها .

المفاجأة الكبرى حينما قالت إنها إكرامًا لي ستحتفل بأول زيارة لي إليها . وفتحت قنينة من الشمبانيا . كما أتضح أنها قد هيات الكثير من الطعام والمقبلات .

ترددتُ كثيرًا في قبول شرب الشمبانيا، لكنهما هي وحببي، أخذا يمزحان معي، ويشيران إلى أنني محافظة، وأن تربيتي الدينية وراء ذلك . شعرت بنوع من التحدي فأخذت كأس الشمبانيا وارتشفته بالكامل في رشفة واحدة..! استغريا ذلك، لكنني شعرت بالسخونة تصعد إلى خدي، وما يشبه الدغدغة تسري في رأسي . وتكرر الأمر . وكلما ارتشفت كمية تفتح شهيتي كي أعبّ المزيد .

وأدركتُ بأنني في حالة من الخفة والدوار . وأنني أفقد ثباتي الفكري ووضوحي .

وتأكيدًا على تنفيذ خطتهما المدبرة فتحت السيدة الفاضلة حواء العدوية قنينة من النبيذ وأخرى من الفودكا . وجربتُ كل شيء . وشعرتُ بالخدر والمرح ولم أعد قادرة على التفكير السليم . وبعد فترة قالت السيدة الفاضلة تعالا

أريكما بيتي وعالمي الخاص وطابقي الذي لا  
أسمح لأحد من ضيوفتي وأصدقائي أن يزوره.  
ولأنها تحببنا لذا تريدنا أن نراه.

وصعدنا إلى الطابق الأعلى. كنت غير قادرة  
بالكامل على أن أصعد، فأحاطني حبيبي بذراعه  
وصعد بي. وقادتنا إلى غرفة النوم.

لا أدري ماذا جرى. كنت أريد النوم، بل ولم  
أكن أنا. وما أن دخلنا غرفة النوم ورأيت السرير  
الوثير العريض حتى جاءتني رغبة في النوم  
والاستلقاء. لكن حبيبي احتضنني وأخذ يقبلني،  
وأزاح حجابي فتدلى شعري الطويل الأسود  
الكثيف.

ويبدو من خبرته أنه عرف كيف يثيرني،  
واكتشف مفتاح جسدي. فقد أخذ يقبلني من  
رقبتي وصعد إلى شحمة أذني، ومد يده بين  
فخذي فشعرت بالانهيار. وفجأة، تحول إلى رجل  
عنيف وشرس. فقد ألقاني على السرير ورفع  
ثوبي إلى كتفي، وسحب سروالي. وأدخل رأسه  
إلى هناك. هلكني بلسانه. شعرتُ بالانهيار  
الكامل.

حين التفتُ بشكل عفوي من شدة اللذة، رأيت  
السيدة الفاضلة تتعري وتتجرد عن ثيابها بشكل

كامل. كانت هائلة الجسد، مثيرة، ومكتظة بكنوز اللذة.

وحين نظرت إلى حبيبي وجدته عارياً..! كيف ومتى تعرى؟ ورأيت يدا عيني بقضيبه، وأولجه فيّ. شعرت بوخزة ضعيفة، وغمرني الخدر. ورأيت السيدة الفاضلة تقترب مني على السرير، بل وبدأت تقبلني، وأزاحت حبيبي عن جسدي ونامت هي عليّ. وأخذت تجامعني كأني رجل.

الذي كان ضربة كارثية بالنسبة لي أن حبيبي أدارني بشكل كلبني، واخترقني من الخلف. شعرت بألم قاتل لكنني بعد أن أخذ يهز نفسه في داخلي شعرت باللذة.

وحين التفتُ جانباً وجدتُ السيدة الفاضلة تمسك بكاميرا فيديو وهي تصور كل شيء، كل شيء. بل كانت كمصورة سينمائية محترفة، فقد اقتربت من مواضع الالتحام وصورتها بشكل مركز، وواجهتني لتصور وجهي وهو يفيض شبقاً ولهاثاً.

كنتُ مسلوحة الإرادة. لا أستطيع أن أتماسك بوعي، لديّ رغبة قوية في النوم ورغبة قوية في الإباحة. وما بين النوم واليقظة رأيت السيدة الفاضلة تجلس بكامل جسدها على وسط جسد

الدكتور الذي أدركتُ أنه ليس حبيبي. كانت تهز نفسها وتصعد وتتنزل.

وغفوتُ. حين صحوتُ كانت المساء قد حل. والظلام زحف على المدينة. رأيتُ ذلك من خلال نافذة غرفة النوم. أفقتُ على هول ما اقترفتُ.

كانت الغرفة خالية. ولا صوت أو نأمة أو حركة تُسمع. فجأة، تعالتْ أصوات قهقهات آتية من الطابق الأرضي. نزلتُ عن سريري. انتبهت لكمية قليلة من الدم بين فخذي. إذن لقد استغفني النذل وفضني وأخذ بكارتي. وشعرت بحرقه في دبري أيضًا. ياإلهي، ما الذي فعلته بنفسي..5.

تسللتُ إلى الحمام. كنتُ عارية بالكامل. دخلت تحت دوش الماء الدافئ، وتركته ينهمر عليّ. لا أعرف كم بقيت تحت دوش الماء المنهمر. سمعتُ حركة في الغرفة. فكرت ثمّة من جاء، لكن سرعان ما عمّ السكون ثانية.

حين خرجتُ، ارتديت ملابسني. ووضعتُ حجابي. كنتُ صاحبة إلا من بعض الصداع الخفيف، فقد ذهبّت النشوة وبدأت الصحوّة. وأدركتُ بأنني قد ضعتُ. كل كبريائي الشخصي واعتزازي العالي بنفسني لم يعد موجودًا، بل

وصار لا معنى له .

نزلتُ السَّلْمَ وأنا أشعر بالخذلان . لا أستطيع لوم أحد . أنا جئت بنفسي ، لم يجبرني أحد . أنا التي تعاملتُ برودة الفعل والتحدي الفارغ فشربتُ الشمبانيا والبودكا والنيبذ بكثرة . أنا التي استمتعتُ بكل التفاصيل التي جرتْ معي . لكني لم أتوقع أن هذه السيدة الفاضلة قد خططتْ لكل شيء مع حبيبي النذل ، ولم أتوقع بأنها عشيقته أيضًا .

حينَ صرْتُ في الصلاة حيث يجلسون فوجئتُ . لم يكن حبيبي النذل موجودًا . بل رأيت السيدة الفاضلة مع رجل ملتح ، يضع عمامة على رأسه ويرتدي جلباب رجال الدين . ما أن رأني نازلة حتى أخذ يكبر إعجابًا .

الله أكبر .. الله أكبر .. ما شاء الله .. ما شاء الله من خالق . ما هذا الحسن والكمال . وسمعتُ السيدة الفاضلة تقول له :

كما قلت لك إنها آية من آيات الحُسن . سليلة الحسب والنسب . مبارك عليك شيخنا .

لم أفهم كلمة «مبارك» . وقامت السيدة الفاضلة لاستقبالي . أخذتني من يدي وأجلستني على الأريكة التي يجلس عليها الرجل المعمم . لم

أفهم ما يجري.

صحيح أنا كنتُ صاحبة مع صداع خفيف،  
لكني ما زلت ضعيفة من أثر الشرب. تلفتُ

حولي وسألت السيدة الفاضلة:

أين الدكتور آدم المدني..؟

ابتسمتُ لي بود وقالت:

لقد انتظرك لكنك كنتِ نائمة بعمق. حاول  
إيقاظك لكن من دون جدوى. فغادر.

كم الساعة الآن؟

التاسعة مساءً.

حين سمعتُ أنها التاسعة مساءً شعرت  
بالرعب يشلني. كيف؟ ماذا ستقول الرقيبتان في  
شقتي؟ من المؤكد أنهما اتصلتا بأهلي وبينتا  
بأنني خرجت ولم أعد..! ومن المؤكد أنهم  
اتصلوا بكل الجهات التي يعرفونها للسؤال  
والاستفسار. لكن من المؤكد أيضا بأن أخوتي  
وأهلي عمومًا لن يعلنوا شيئًا خوفًا على سمعتهم،  
حتى لو وُجدتُ مقتولة. أعرفهم.

وفجأة. وقفتُ مرعوبة وقلت:

عليّ الذهاب. هل تتكلمين بإيصالي إلي

شقتي..؟

ابتسمتُ السيدة الفاضلة بشكل مبتذل وقالت

بشكل وقح كأية قوادة محترفة:

دخول الحمام ليس مثل خروجه يامدام.  
الشيخ هنا يريد أن يعقد عليك عقد زواج مؤقت،  
زواج متعة، لمدة ساعة. بعد ذلك يمكنك أن  
تذهبي إلى البيت.

ماذا تقولين؟ كيف تتجراين على قول ذلك؟

هل تعرفين من أنا وإلى أية عائلة أنتمي..؟

فضحكت ضحكة داعرة وقالت:

يا عيني على بنت الحسب والنسب والعائلة  
الكريمة. أعرف من أنت، وبنيت من من كبار  
العلماء الأفاضل، وأعرف مكانة عائلتك في  
الطائفة، لكنني أعرف أيضا وبالفيديوات والصور  
كيف كنت تلهثين شبقًا والدكتور ينيك فيك. لم  
يترك ثقبًا فيك لم يخترقه يابنت الحسب  
والنسب. لذا اسمعيني جيدًا. هي ساعة واحدة  
وتخلصين من هذا الأمر وتجدين نفسك في  
شقتك. وإلا لن تخرجي من هنا، بل سأنشر ما  
لدي من فيديوات على اليوتوب والانستغرام  
وأرسلها لأهلك وأخوانك..! أنت لست الآن سوى  
قحبة ذات حسب ونسب. الأمر متروك لك..!

لم أصدق ما سمعتُ. لكنني انتبهت إلى إن

الإنسان حين يصل إلى ذرى اليأس فإنه ينقلب



إلى شخص عبثي، لا مبال، لا يهمله شيء ولا يعنيه شيء ولا يقيم وزنًا لأي شيء. فكل شيء باطل وقبض ريح. وراودني شعور بأن عليّ الخروج من هذا المكان بأي شكل، وما دام ليس أمامي سوى أن أدع هذا الشيخ المعمم ينام معي فليكن. هي ساعة وأخلص. مع يقيني بأنني قد ضعت. وهل وافقت؟ سألتها.

ابتسمت لي بحزن على الرغم من ذلك،  
وقالت:

وهل كان أمامي طريق آخر غير هذا؟ طبعًا وافقت. أردت أن أتخلص من كل هذا الوضع الذي أنا فيه. خيبتني في الأستاذ الجامعي، المفكر، المتعاون مع أجهزة المخابرات، كانت أكبر من أن يستوعبها إنسان. فقد كنتُ أعيش أحلامًا رومانسية، بأنني وجدت حبيبًا مثقفًا، مفكرًا، طيبًا. ولم أكن أعرف أنني أحببت رجلًا نذلًا، منحطًا، قوادًا خبيثًا، خنزيرًا بربطة عنق وبدلة أنيقة، ويتحدث بالفكر والفلسفة. أهؤلاء هم مثقفو العهد الجديد؟ أهؤلاء هم النخبة الإسلامية التي تريد أن تقيم عهدًا جديدًا من الحكم؟ أهؤلاء يريدون بناء دولة العدل الإلهي؟ هذا الخنزير المتفلسف وهذه السيدة الفاضلة

قوادة العهد الجديد وهذا الشيخ المعمم الذي يصلح أن يكون نادلاً في ماخورهم ممثلو سلطة العهد الجديد؟ تخلصنا من مجموعة القتلة فجائت مجموعة من الخنازير التي تعيث في حديقة ورد. أي ثقب أسود هوى العراق فيه..؟  
جلستُ صاغرة إلى جانب ذلك الشيخ المعمم. وجعلني أردد جملاً هي كافية في نظره لأكون قحبه لمدة ساعة من الزمان، مقابل خمسة وعشرين ألف دينار صداقاً. وكل هذا باسم الشريعة الدينية السمحاء..!

ابتسمتُ السيدة الفاضلة- القوادة وقالت:  
مبارك عليك أيتها العروسة. الشيخ الجليل شخصية معروفة وقائد أحد الأحزاب الكبرى في البلاد، وسوف تفتح أمامك الأبواب، فقط عليك أن تمتعيه كما يجب..!

ابتسم الشيخ الجليل لها وقال:  
مشروعك مضمون أيتها العدوية. اعتبريه قد تم.

ثم التفت إلي، أخذني من ذراعي وقال لي بلطف:

لنصعد أيتها الحسنة إلى غرفتنا.  
وبينما نحن نصعد السلم قال لي جملة بثت

الخوف في نفسي:

أعرف والدك. درستُ علوم الفقة على يديه. كما أن بعض أخوتك ينتمون لحزبنا، وهم قادة مهمون في الحزب. أنتِ أيضًا يمكنني أن أجعلك قائدة مهمة في تنظيمنا وفي أبسط الأحوال أجعلك عضوة في البرلمان أو وزيرة في الحكومة.

حين صرنا وحدنا في غرفة النوم. وهي غير التي كنا ثلاثتنا فيها نهارًا، أقبل عليّ بعد أن نزع عمامته وجلبابه، وبقي بلباس طويل يشبه الشروال الكوردي لكنه مفتوح من الأمام. ثم هجم عليّ وكأنه وحش، أو سجين محروم من النساء لسنوات. كاد يمزق ملابسني لولا أنني أوقفته وقلت له سأنزع. ونزعتُ.

أتعرف، إن في أعماق الإنسان ثمة حيوان مبتذل يخرج في لحظات غياب الوعي وسقوط القيم أو العبث الأخلاقي واللامبالاة. لذا تركته يفعل بي ما يشاء وبشكل منحط أيضًا. كان قويًا، ونشيطًا، إلى الحد الذي أثارني من دون رغبة مني. واكتشفتُ بأنني شاذة أيضًا.

اكتشفتُ رغبات غامضة في نفسي. وتمتعتُ بأشياء لم أكن أعرف نفسي بأني أرغب فيها أو أتمتع بها، بل على العكس كنت اعتبرها شذوذًا

وانحطاطًا. لكنه أثناء غوره وتوغله في جسدي  
توقف فجأة، ثم قام وأخرج من جلبابه عصًا  
قصيرة، بطول شبر يد إنسان ناضج. عصا  
ملساء جدًا، غليظة لحد ما. وطلب مني أن  
أولجها في دبره. استغربت طلبه، لكنني كنت قد  
وصلتُ إلى قاع الانحطاط، وهويت إلى أسفل  
سافلين، فلم أجد مانعًا من فعل ذلك.

لم يكتف هو بذلك بل أخرج من جلبابه عليه  
مرهم مسهل للإيلاج، ودهن دبره وحوافه وكذلك  
مسح العصا، وطلب مني أن أولجها فيه. تربح  
في وضع كلبني كما فعل الخنزير أستاذ الفلسفة  
آدم المدني معي، فداعبتُ دبره بالعصا الملساء  
ثم دفعتها فيه فدخلت بسهولة حتى آخرها، بينما  
كان هو يتأوه كأنثى شبيقة.

كان هو يتأوه مستمتعًا، وطلب مني أن أدفع  
أكثر، لكن لم يبق من العصا شيئًا فكلها دخلتُ  
في دبره. وطلب مني أن أسحبها وأولجها مرات  
ومرات إلى أن يشعر باللذة الكاملة. وقال لي  
بعدها هدأت رغبته:

تمنيتك رجلًا. لتركك تفعلين بي دائمًا، لكن  
لا ضير.. ستكونين معي، هذا السر الآن بين  
يديك، فإذا بحث به حتى لنفسك فسوف أفضح

والدك العلامة الجليل. أنتِ من هذه اللحظة لن  
تفارقيني. ستكوني زوجتي المؤقتة دائماً. أنا  
أخاف الزنا وأخاف جهنم، لذا ستتكثر ساعات  
زواجنا المؤقت. والآن اذهبي. لا. لا. اسمعي.. أنا  
أعرفُ عنك كل شيء. أعرف أين تعيشين، ومن  
معك في البيت، وأعرف تاريخك وأصلك  
وفصلك. ولدي الفيديوهات التي صورتها حواء  
العدوية. لذا لا تحاولي أن تتمردي عليّ. لن  
أجعلك قحبة مبتذلة ينام معك من هب ودب،  
ستكوني قحبتني فقط. مفهوم..

وتمتت من أجل أن أنهي هذه الموقف  
المنحط:

مفهوم..

لكنه استوقفني وواصل:

بالمناسبة.. هذا الدكتور التافه، المتعجرف،  
والمتفيقه، الذي يستعرض أسماء فلاسفة  
ومفكرين دائماً ليكشف عن إطلاعه وثقافته،  
سأسحقه مثل أية حشرة. سأسقط قناعه  
الخنزيري، سأمحيه من الوجود، وستبقين أنت  
لي.

لن أتوقف عن تذكّر ذاك اليوم قط. لكني  
رويت كل شيء لأنه مثل شريط سينمائي مطبوع

على شاشة ذاكرتي. المهم، حين عدت للبيت كانت هناك مفاجأة تنتظرني.

كانت أمي مع أخي الأصغر ينتظراني في البيت. لكن أمي جاءت برفقة أخي لمراجعة أحد الأطباء المشهورين في بغداد. فقد وجدت طبيبتها النسائية أوراما في صدرها. كانت قلقة جدًا وخائفة. لكن على الرغم من هول الصدمة بأورامها كان عليّ أن أجد حجة مقنعة تبرر غيابي فورًا.

احتضنتني أمي وجسدها يرتعش خوفًا. الرقيبتان كانتا قلقتين أيضًا. قلتُ لهن كُنْتُ في المكتبة، ولا أعرف ما الذي جرى لي، فقد أغمي عليّ، ونقلوني بسيارة إسعاف الجامعة، وزرقوني بمحلول الأملاح المغذية، وشخص الأطباء الأمر بأنه إرهاق، ربما بسبب الدراسة. لذا تأخرت إلى أن سمحوا لي بالمغادرة. أرادوا أن يتصلوا بكم لكني طلبت منهم الآ يفعلوا ذلك ويقلقوكم.

أمي كانت متعاطفة معي وكادت تبكي لاسيما حينما رأته شاحبة الوجه ومتعبة، بينما ظل أخي ساهمًا وكأنه لم يصدقني، لكنه لم يعترض.

بقيتُ لأيام في البيت. لم أخرج إلا لمرافقة أمي إلى الأطباء وإجراء التحليلات. وأخذ منها

خزعة من الورم أرسلوها إلى المختبر. وكنت قد عملت بلوك للمثقف النذل. ولم أكن قد تبادلت الأرقام مع السيدة الفاضلة القوادة، ولا مع الشيخ الجليل القائد الحزبي في العهد الجديد.

لا أدري إن كان من في البيت معي قد صدقوني؟ الرقيبتان كانتا تنظران إلي باستفهام وكأنهما تقولان لي نحن لا نصدق ما رويته. أمي كانت مشغولة بالورم في صدرها، وأخي كان ساهمًا، وكان يخرج أحيانًا من دون أن نعرف إلى أين يذهب ولا مع من يلتقي.

كنت مُحطمةً نفسيًا، لكني كنت لا أبين ذلك أمام أحد. بيد إنني فكرت مع نفسي بأن ما حدث قد حدث. لكن هل كان يمكن ألا يحدث ما كان قد حدث؟ ماذا لو لم أذهب مع الدكتور النذل إلى صالون السيدة الفاضلة؟ ماذا لو لم أذهب أصلاً إلى مكتبه؟ ما كان قد كان، لكن هل ما سيكون سيكون على الرغم من إرادتنا ورغباتنا بالأ يكون؟

هل حركة البندول هي نفسها، يمينًا ويسارًا، بنفس التكرار، أم أن كل حركة لرقاص البندول تختلف عن الأخرى؟ هل يمكنني أن أغير ما سيكون وفقًا لحركة بندول الماضي، أم سَأبقى

أتحرك يمينًا ويسارًا. لا..لا.. ما كان قد كان، وما سيكون يجب أن يكون...!

الحياة نفسها تكرر نفسها. والإنسان يكرر نفسه. والأيام تكرر نفسها. والشروق والغروب يكرران نفسيهما. والليل والنهار يتكرران، بل حتى الموت يكرر نفسه. التكرار جذر السأم.

ولكي لا أثير الشك أكثر، واصلتُ الذهاب إلى الجامعة بعد أسبوع من البقاء في البيت. وكانت الأحداث تتصاعد في الشارع، فقد تصاعدت انتفاضة تشرين، وسقط الشهيد تلو الآخر، حتى صاروا بالمئات، بل خرج الطلبة في تظاهرات تضامناً مع المتظاهرين في ساحة التحرير. وعرفتُ من بقية الطلبة بأن الدكتور النذل وقف ضد المنتفضين متهمًا إياهم بأبناء السفارات وأبناء الرفيقات، وبأنهم مجموعة من الشذاذ والعاهرات ومن متعاطي المخدرات والحشاشين الذين يريدون، تحت غطاء التظاهر، وحب الوطن، وشعار «نريد وطن» أن يمارسوا الرذيلة، وينشروا الخراب في البلاد.

بعد أيام رجعتُ أمي وأخي إلى مدينتنا المقدسة. لكنني انتبهتُ إلى أن أخي كان باردًا في تعامله معي. وكان ينظر لي نظرات مستفسرة



ومستقرئة. وانتقدتُ نفسي بأنني ربما صرت  
مفرطة الحساسية لذا أبالغ في تفسير الأمور.  
وبعد يوم من مغادرة أمي وأخي ذهبتُ إلى  
ساحة التحرير. رأيتُ الحشود. مئات الألوف من  
الموتى بلا قبور، الذين انتفضوا بحثًا عن وطن.  
بودي أن أسألك..» هل مررتَ بالنفق كله من  
بدايته؟ ألم ترَ الزومبي يجتاز شارع الرشيد  
متجها إلى ساحة التحرير؟».

نعم، رأيت.. رأيتهم قبل أن أدخل النفق، رأيتهم  
بعد مغادرتي مشرحة بغداد أنا وألصبي آدم  
الصغير. وفي النفق رأيت مجموعة من الموتى  
بلا قبور والذين يريدون وطن..! لكن كيف أنتِ  
هنا؟ لحد الآن لم تخبريني؟

صمتت للحظات قصيرة وواصلت الحديث:  
انتفاضة تشرين كانت زلزالاً اجتماعياً  
وسياسياً ونفسياً. سقطت الأوهام، وانطلقت  
الأرواح تعانق السماء. كشفت انتفاضة تشرين  
زيف تلك الطبقة الإسلامية الفاسدة التي ادّعت  
المظلومية التاريخية وبالغت في رفع شعار بناء  
دولة العدل الإلهي، وأثبتت على أنها طبقة  
سياسية خسيصة ومنحطة وأنها لا تختلف في  
انحطاطها وزيفها وخستها عن كل الحكومات

التي مر بها العراق إذا لم نقل أنها فاقت في اللصوصية والفساد. هذه الطبقة السياسية التي ليست سوى مجموعة من الانتهازيين والوصوليين والمزيفيين بينهم قادة أمثال الدكتور النذل والرجل المعمم المأبون والسيدة الفاضلة القوادة. الانتفاضة ساعدتني على أن أولد من جديد. ولدتُ حين رأيتُ مئات الفتيات اللواتي بعمرى يخرجن وهن يحملن علم العراق ويهتفن «نريد وطن». أحسستُ أنهن يهتفن ضد سلب كرامتهن واغتصابهن وسجنهن بتقاليد مظلمة، وضد سد أفق حياتهن. فتيات اعتدن، منذ لحظة مشاركتهن في الانتفاضة، على شم الغازات السامة التي يطلقها الرجال الملثمون وقطعات القوات المسلحة الرابضة على الجسور، بدلاً من شم عطور فيرساتجي وديور. فتيات يلبسن الجنس وينامن في الخيم مع زملائهن ويحلمن بوطن يحفظ كرامتهن ويحقق أحلامهن.

اتفقت مع الرقيبتين في الشقة أن تأتيا معي إلى ساحة التحرير، ووافقتا، لكنني اشتراطتُ عليهن ألا يتصلن بأهلي ولا ينبسن بكلمة عن هذا الأمر.

كنا ذات مساء هناك. رأيت زميلتين لي من صفي في الكلية. اندهشتا حينما شاهدتاني وأنا أحمل العلم العراقي بيدي. وأضع كمامة على فمي وأنفي. احتضنتاني بمحبة، وكأنا صديقات حميمات. وأخذن يرشدنني بتعليمات السلامة لكل المشاركين في التظاهرات. حذرنني من التاكسيات ومن التفوه بالحديث مع أي غريب والانتباه لمن يصورنا من دون علمنا. وطلبن مني أن أغير من هيئتي كلما جئت إلى الساحة.

المرأتان اللتان معي كانتا مرعوبتين في أول الأمر، لكنهما انسجمتا مع آلاف الناس الذين كانوا يحتفلون ولادة وطن بذرته تسقى بدماء الشباب الطاهرة.

وفعلاً، كنا نختار طرقاً ملتوية للوصول إلى الكرادة، حيث نسكن. لكن حدث ذات ليلة، حيث تكثفت الهجمات على الشباب المنتفض، واختنقنا بالغازات السامة، إن وجدت نفسي مع مجموعة من الفتيات والشبان نتوجه إلى ما سمي بالمطعم التركي.

تهت عن الرقيبتيين. وهناك رأيت الأهوال. فقد رأيت هجومًا بالسكاكين والهرارات على المعتصمين في الفندق.

كان من الصعب عليّ مغادرة المكان، ورأيت  
إحدى زميلاتني، تلك التي شجعتني على البقاء،  
وألحّت عليّ بالبقاء معها لكنني أردت الرجوع إلى  
البيت. فقد كان الموقف مرعبًا. لاسيما حينما  
رأيت من بعيد وأنا أنظر إلى المطعم التركي  
اثنين من الملثمين يمسكان بأحدهم، يهزونه  
يمينًا وشمالًا ثم يرمونه من أعلى طوابق المبنى  
إلى الأرض. أحسست بانقباض في نفسي، وخوف  
شل أعماقي. لذا حاولت بطرقٍ مغامرة، فيها  
بعض التهور، العودة إلى شقتي، فبحثت عن  
المرأتين الرقيبتين، لكنني لم أجد لهما أثرًا.

حين دخلتُ خيمة الطبابة الصحية رأيت  
إحداهن وهي في حالة يرثى لها. كانت مختنقة  
من الغازات، ولولا وجود الأطباء من شباب  
الانتفاضة لكانت قد ماتت اختناقًا. أما المرأة  
الأخرى فلم أعر لها على أثر.

كنتُ في تلك الليلة قد خلعت العباءة والحجاب  
ولبست بنطالًا أسود وبلوزة سوداء ووضعت  
منديلًا حول شعري. ولا أخفي شيئًا إذا ما قلت  
بأنني كنت موضعًا لبعض الغزليات البريئة من  
قبل بعض الشباب والرجال الناضجين أيضًا.

الغريب إنني رأيتُ الرجل الملتحي، ذا العمامة

وجلباب رجل الدين، المأبون الذي اغتصبني باسم الشريعة وباسم زواج المتعة. كان يلبس ملابس شبه عسكرية ولكنه لم يخلع عمامته. وكان حوله مجموعة من الشباب وهو يحدثهم عن الوطن، وعن محاربة الفاسدين الذين دمروا البلاد وأذلوا العباد وسرقوا المال العام، فارتعشت روحي أمام هذا النفاق الفاقع. وخفتُ على الانتفاضة وعلى الشباب الذين يتساقطون مثل أوراق الخريف أمام ريح عاصفة.

وفي خيمة أخرى رأيت شبابًا يتحدثون عن اختطاف بعض زملائهم. يتحدثون عن سيارات التاكسي المرية التي ترابض في محيط الساحة، بل وحتى سيارات الإسعاف الوهمية. خفتُ، وفي الوقت نفسه شعرت بعظمة هؤلاء الشباب الذين يعرفون أن الحكومة المرعوبة وأعاونها مدججون بالسلاح وبكل وسائل القمع والاختطاف والتتكيل.

في خضم تلك المعمة وصلتي رسالة على الواتساب مع فيديو: «إياك أيتها الساقطة أن تلعبى دور المناضلة الثورية يا قحبة. إذا لم تغادري الساحة الآن فسننشر هذا الفيديو على اليوتيوب وعلى كل المشتركين في الواتساب والانسستغرام. مع الإشارة إلى أنك مندسة بين

الشباب المنتفض. وسنجعلهم ينبذوك، بل وبالتأكيد سيصل كل شيء إلى والدك وأخوتك، وقد أعذر من أنذر».

وحين فتحت الفيديو المرسل رأيت مشهداً إباحياً مهيناً. تمت منتجته بحرفية. لقطات وأنا التقم قضيب الدكتور الخنزير، ولقطة أخرى وهو يلجني من الخلف وأنا ألهث والكاميرا تبرز وجهي بوضوح. ولقطة ثالثة وأنا مستلقية على ظهري وأحدهم، ويبدو أنه الرجل الملتحي، يولجه فيّ وأنا ألهث من اللذة وأمسك بذراعه، ولم أعرف أن تلك الغرفة كانت مزودة بكاميرات خفية. ثم أخذت اللقطات والتحذيرات تتوالى.

خفتُ جداً. أردتُ مغادرة الساحة. وحين وصلتُ لحدودها قرب شارع السعدون، رأيت صفاً من الزومبي يقف هناك منتظراً أيّ ممن يغادر الساحة منفرداً.

وفجأة، اقتربتُ سيارة تاكسي إلى جانبي. مد سائقها رأسه عبر النافذة وقال لي:

إلى أين تريدان الذهاب أختي الفاضلة..؟

إلى الكرادة..

إصعدي..

لكنني تذكرتُ التحذيرات المتكررة والتي يعلن

عنها في الساحة من قبل الشباب المنتفضين  
بألا نصعد أي سيارة تاكسي. لذا لم أجب السائق  
وأنما رجعتُ عن مكاني إلى الساحة خائفة.  
واختفيتُ في الزحام.

لكنني وأنا أتيه في الزحام تذكرتُ وجه  
السائق. وانتقدت نفسي!! كيف لم أعرفه  
مباشرة..؟ إنه الدكتور النذل وقد غير من شكله  
وهيئته، ووضع على رأسه باروكة شعر مستعار..!!

وسألتُ نفسي: «هل يعمل هذا الأستاذ مع  
أجهزة السلطة والمليشيات، والرجال الملتزمين؟  
هل هو من الزومبي؟ لو كان كذلك فكيف يتحدث  
بحرية عن فلاسفة الإسلام والغرب؟ أيريد أن  
يكشف بذلك عن الطلبة الذين يفكرون بعيداً عن  
القطيع؟ نعم. نعم. نعم.. لقد انتبهتُ الآن، فلقد  
اختفى عن المحاضرت معظم الطلبة المتتورين  
الذين كانوا يناقشونه في أسئلة الفلسفة..! نعم..  
كان هو يبلغ عن هؤلاء الطلبة فيختفون بطريقة  
مريبة وغامضة..!.

قررتُ الذهاب إلى خيمة العيادة الطبية حيث  
رقيبتني ومساعدتي في شؤون البيت ترقد هناك.  
وفكرتُ بأنها ستكون حجة طيبة بأن أبقى معها  
هذه الليلة. أنام في الساحة مع هذه الآلاف من

الجموع المنتفضة.. وهذا ما حصل. لكن النوم في الساحة كانت تجربة لن تنسى، فالحياة هنا كانت مهرجانَ فكرٍ وأدب وثقافة وغناء ومناقشات سياسية. كنت أتقل من خيمة إلى أخرى غير مصدقة بأن هذا الجانب من الحياة موجود في بلادي، بل أعادت الساحة ثقتي بالناس وبهذه الحشود التي يطلق عليها اسم «الشعب».

ومع هذا الجانب المشرق، فلقد انتبهت لبعض الوجوه المرعبة والحركات الأكثر غرابة، لذا خمّنت لحظتها بأن هناك من اندس بين المتظاهرين.

رأيت هنا من يصور الأشياء كلها ويوثقها مع أنه ليس هناك من شيء أو حدث يمكن تصويره..! فلمن يصور هؤلاء؟ أدركتُ أن هناك العديد من الزومبي المتخفين بين الحشود، وهناك جثث هاربة من المشرحة الكبرى، بل وهناك كائنات غريبة أخرى ملثمة ومرعبة، بل وهناك بعض النساء المربيات!! وبعض المروجين للمخدرات، وبعض بائعات الهوى. سيل، بل نهر متفجر فيه قوة التيار وفيه الأوشال..! وأدركت أن الحكومة وأعوانها تريد اختراق الانتفاضة وتوشيها.

وعلى الرغم من هذا، فما كان يفرحني هو



شعوري بالحرية، وبتخففي من عبء أفكار اجتماعية مسبقة عن العلاقات بين الناس، وثقل الممنوعات والتحريمات والنجاسات والعقوبات والوعد والوعيد.

وسمعتُ نحيباً وأنيباً يخرج من قاع القلب. رأيتُ امرأة خمسينية مجللة بالسواد ومع ذلك تضع العلم العراقي حول كتفيها، تجلس أمام تابوت ابنها وهي تتعاه بكلمات موجعة. ابنها الذي سقط شهيداً بعبوة غازية اخترقت جبينه. رأيتُ التابوت محاطاً بالشموع التي أشعلها رفاقه وهم يحيطون الأم بحلقة دائرية.

كانت الهتافات تتصاعد من كل مكان. كانت الوجوه على الرغم من الحزن تتقد بالإرادة العظيمة. لقد نهض الموتى وانسلوا من قبورهم الجماعية ليقتصوا من القتلة، لكن القتلة مدججون بالسلاح وبالعبوات الغازية و القذائف الدخانية.

تلك الليلة لم ينقطع إطلاق القذائف الدخانية التي كانت تأتي من فوق سائر جسر الجمهورية. ومن فوق المطعم المقابل الذي اعتصم به المئات من الشباب.

ومن بعيد رأيت كيف اقتحم الزومبي المكان،

وكيف رموا ببعض المنتفضين من سطح المبنى إلى الأرض.

في تلك الليلة لم أعرف كيف أنام. إحدى الأمهات أو الجدّات المسنّات انتبّهت لحيرتي فنادتني بأن التحق بها، فهي قد أعدت شايًا. وقربها، بل إلى جانبها نمت متمددة على الأرض، وقد كان كلانا تحت بطانية واحدة.

ربما هي قيامة شعب، ونشور جديد للموتى الذين استيقظوا من مقبرتهم الجماعية، المقبرة التي بحجم العراق، ليمنحوا هوية لأرواحهم ولبلادهم ولأحلامهم التي سُرقت في غفلة من التاريخ.

فجرًا. استيقظتُ على أصوات مئات بل آلاف النوارس التي غطت سماء الساحة، بل وسماء المدينة كلها. كانت سماء من النوارس البيض. وكأن النوارس كانت تريد أن تحمي النائمين من مباغثة القذائف والدخان المسموم. لكن الرعب كان على الأرض.

النوارس في السماء والزومبي بملابسهم السود على الأرض. الزومبي الذي كان يحيط بالساحة وبالشوارع التي تقود إليها. وفجأة، توجهت القذائف الدخانية نحو

النوارس في السماء. كان الملتزمون والقوات وراء  
الساتر الأسمنتي على الجسر يوجهون أسلحتهم  
نحو السماء. وتساقطت مئات النوارس مضرجة  
بالدماء.

النوارس القتيلة غطت دجلة وساحة التحرير،  
شارع السعدون، ساحة الطيران والشوارع الجانبية  
الأخرى.

شعرتُ بالرعب. لذا قرّرت أن أغادر المكان  
مستغلة الفوضى التي سببها الدخان المسموم  
وعبوات الغازات والقذائف الدخانية. وفكرت  
بالتعليمات التي سمعتها من البعض لمن يريد أن  
يغادر الساحة.

ذهبتُ إلى طرف الساحة الآخر، رأيت الحياة  
في أوج تألقها وحماسها، على الرغم من أن  
الكثيرين ما زالوا في خيامهم يغطون في النوم  
بعد تعب السهر والتناوب على الحراسات.

فجأة انطلق سيلٌ آخر من القاذفات الدخانية  
والعبوات الغازية تنهمر على الساحة من جهة  
الجسر ومن جهات أخرى، وكأن الملتزمين قد  
قرروا حرق الساحة بمن فيها..!

وأثناء تلك الضجة العالية بسبب سقوط  
القذائف الدخانية انسلتُ عابرةً الشارع إلى فرع

جانبي مقابل الساحة .

كان ذلك الزقاق خاليًا من العسس والزومبي .  
قلتُ لنفسي هذه من بركات المرأة المسنّنة التي  
كانت تدعو لي بالموفقية والسلامة الليلَ كله .

حينَ صرْتُ في الشارع أخذتُ أسرع الخطى .  
كنت أريد الوصول إلى شقتي كي أتحمم، أو أنام  
في فراشي الوثير لساعات . وفكّرتُ بأن أحمل  
كل مدخراتي وما لدي من مال كي أتبرع به  
لبعض اللجان المسؤولة عن الطعام وشراء  
الأفرشة والمشروبات والشاي والقهوة وبناء  
مرافق صحية .

كانتُ روعي تولد من جديد . ووجدتُ نفسي  
بعيدة عن عالم عائلتي . لا أدري إن كنت أتمتع  
بقدره على الإيحاء والتليباثي، فحين كنتُ أفكر  
في عائلتي، فبينما كنتُ أعبر زقاقًا جانبيًا لمحتُ  
أخي الأصغر مع مجموعة من الرجال الملتهمين،  
وهو يقول لهم: «هي محجبة، وربما غيّرت من  
هيئتها الآن . فقد سمعت بأنها ألقّت الحجاب  
ولبست بنطالًا وبلوزة حريرية سوداء» .

ارتعبتُ . عبرت فتحة الزقاق كالبرق وأخذت  
أهرول . دخلتُ في متاهة الأزقة، إذ وجدتُ نفسي  
عند ساحة النصر . ومن هناك أسرعت إلى

منطقتي بسرعة هائلة.

كنتُ غير متأكدة إن كان أخي في شقتي أثناء غيابي. لقد تعودتُ أن أضع إشارات محددة في غرفتي، لأتأكد من تلاعب المرأتين الرقيبتين بأشياءي، فمثلاً أضع كتاباً ما في وضع معين أعرفه أنا فقط، فإن وجدته بعد عودتي في وضع آخر فهذا يعني هناك من فتش بين كتبي وأوراقي. وكذا مع ملابسني، بل وحتى وضع جهاز الكمبيوتر المحمول أطويه بطريقة ما ليست كاملة لكني أنا أعرفها فقط، فإن رأيته مطوياً بدرجة مختلفة ولو قليلاً فهذا يعني هناك من دخل إلى حسابي مفتشاً.

حين دخلتُ الشقة لم أجد أحداً. ذهبتُ إلى غرفتي مباشرة. لم يتغير فيها أي شيء قط. أيقنت بأن أخي لم يكن في الشقة. حملت بعض ملابسني وتوجهت إلى غرفة الحمام.

شعرتُ بالراحة النفسية وأنى أحس بالماء المنهمر من الدوش وهو يغمر جسدي ويبيث الخدر والراحة فيه. حيث خرجت وعدت إلى غرفتي وجدت على طاولتي صينية عليها فنجان القهوة وكأس الماء.

استغربت. وإذا بالباب يُطرق. فوجئت، وحينما

سمحت للطارق أطلت عليّ المرأة الأخرى التي  
اختفت في الساحة.

أنت هنا؟ سألتُ.

نعم.. أنا هنا.

ألم تكوني في الساحة؟ سألتُ

نعم..

إذن كيف أنت هنا؟

لقد جاء بي أخوك آدم، لستُ أنا فحسب

وأنما الأخرى أيضاً.

أخي الأصغر؟

نعم هو..! لولاه لاعتقلنا المثلثون..! أوصلنا

إلى باب الشقة، وسأل عنك، فقلنا له بأنك نائمة

في غرفتك. كان مستعجلاً لذلك لم يدخل..!

كيف ذهبتن إلى هناك؟

أنت أخذتنا معك..

وأدركتُ أنني أعيش في الواقع، فلو قلن غير

ذلك لاعتقدت بأنني أتوهم كل شيء. ولا إرادياً

سألت:

هل تريدان الذهاب إلى الساحة مرة أخرى.

نعم.. حتى إذا لم نذهب معك فسنذهب نحن.

لكن ألم يفضب أخي وهو يراكن هناك؟

ارتبكت الرقيبة لكنها تعرف بانني على خلاف

واختلاف مع أخوتي وأهلي كلهم، لذا قالت  
بجراحة:

بلى.. شتمنا بأقذع الألفاظ. اعتذرنا له وقلنا  
له لقد جئنا لنشاهد هذه التظاهرات التي تنقلها  
شاشات التلفزيون لا أكثر. لكن ما جعله هادئاً  
قولنا إنك نائمة في البيت. لا أدري إن كان قد  
صدقنا أم لا..! كان منشغلاً مع الرجال الملتهمين،  
وكان يوجههم لاعتقال أو قتل أشخاص بعينهم.  
يعطيهم المواصفات في الهيئة والشكل. وكان  
يركز على فتاة بعينها. يريد لها أي شكل. لا أدري  
إن كان يقصدك أنت بالذات.

ارتشفتُ شيئاً من قهوتي، ثم فتحت جهاز  
اللابتوب. وأخذت أتتقل بين المواقع الإلكترونية  
المساندة للانتفاضة، والمواقع المعادية لها والتي  
تشوه سمعة المنتفضين. لكن صدمتي كانت حين  
رأيت السيدة الفاضلة القوادة، على شاشات أكثر  
من قناة، تدعي أنها تساند المنتفضين وتريد  
وطناً. ما الذي يجري؟

وفي فيديو آخر رأيت الدكتور الذي كان قد  
تخفى في هيئة سائق تاكسي، رأيته يشارك في  
برنامج سياسي حوارى تلفزيوني ويتحدث عن  
حق العراقيين في الحياة الكريمة. وأدركتُ بأن

هؤلاء يريدون ذبح الانتفاضة من خلال الادعاء بانتمائهم إليها والتدث باسمها والتنظير لها...!.

فكّرتُ مع نفسي بأن أخي ربما اتفق مع المرأتين بأن تتجسا عليّ وتخبرانه بكل تحركاتي، فقد صرّتُ أرتاب في كل شيء، لذا قررتُ أن أنسل خفية للذهاب إلى الساحة من دون علمهما. وهذا ما فعلته.

فكّرتُ بأن أغير الدرب حين أتوجه نحو الساحة، لذا دخلت متاهة الأزقة الخلفية في البتاوين. وفي أحد تلك الأزقة رأيت، على مبعده مئة متر مني، سيارة سوداء كبيرة، بابها الواسع في الوسط.

توقفتُ عن المشي خوفًا، لكن الفضول أخذني لمعرفة ما يجري. كانوا ثلاثة رجال يحيطون بفتاة شابة تلبس الجينز وتضع كامرة عليها علم العراق لتغطي فمها من الغازات كما يبدو.

كانت تقاومهم وهم يدفعونها إلى داخل السيارة، وكان أحدهم يحاول نزع بنطالها الجينز عنها، بينما كانت هي تقاوم بشراسة. استمر الصراع بينهم بضعة دقائق، لكنهم تكمنوا منها وأدخلوها إلى السيارة بالقوة. صعد اثنان منهم خلفها، وأغلق الثالث الباب وبقي يحرس المكان.



كان صراخ الفتاة عاليًا وهي تشتتمهم، وتصفهم بالخنازير النتنة، وخفت الصوت فجأة. وحينها دخل الرجل الثالث أيضا وأغلق الباب. وتحركت السيارة.

ومع أن الدرب صار خاليًا منهم، لكنني خفت من وجود غيرهم، لذا التفتت ودخلت زقاقًا جانبيًا آخر، لكن لييتي ما دخلت ذلك الزقاق. فقد رأيت رجالًا ملثمين ينهالون بقضبان مطاطية سميكة على شابين لطخت الدماء ثيابهما ووجهيهما. كان الشابان شبه مغمى عليهما، كانا عاجزين، فرفعوهما ورموهما مثل الأكياس المهملة إلى داخل السيارة، ثم أخرجنا اثنين آخرين وانهالوا عليهما بالضرب أيضًا. ليس بالهراوات وحسب وإنما باللكمات على الوجه والأنف والضم. ورأيت الدماء تسيل وتلوث قمصانهما.

كنتُ مشلولة لا أستطيع أن أمر داخلية إلى الزقاق ولا أن أرجع عنه. لكن، لا أعرف كيف لمحني أحدهم. فما أن هممتُ بالرجوع عن ذلك الزقاق حتى صرخ بي أحدهم:

أنتِ.. تعالي إلى هنا؟

لم أجبه. لثوانٍ بقيتُ واقفة، لكن وفي ثانية

أخرى حسمت أمري واستدرت هاربة من الزقاق.  
وسمعته يركض نحوي. ويصيح:  
هيه.. أنتِ.. قفي مكانك..!  
وسمعته يخاطب ملثما آخر:  
هذه واحدة منهم. لنقبض عليها.

ويبدو أنهما ركضا خلفي. لكن الخوف، بل  
غريزة الحياة تمنح الروح طاقة هائلة، فركضتُ  
كالغزال كما يقال. انعطفتُ إلى زقاق آخر. لكني  
وجدتُ أمامي سيارتين سوداوتين وبضعة رجال  
مسنين، كما رأيت قرب السيارة شلة من الرجال  
الملثمين.

كان قلبي يخفق بشدة. كنت أركض في بداية  
الأمر من دون أن انتبه لما في الزقاق، فذهني  
كله كان عند الذين يركضون خلفي ويريدون  
اللحاق والإمساك بي. وحين رأيت السيارتين  
أردتُ الرجوع، لكن ذلك كان يعني أن ألقى بنفسي  
في أيديهم. ففكرت أن أمشي أو أجتاز الواقفين  
راكضة فلربما لا ينتبهوا إلى أنني هاربة من  
زملائهم. لكنني كنت مخطئة. فما أن اقتربت من  
السيارتين حتى قطع الرجال الملثمون عليَّ  
الطريق وأوقفوني. وسألني أحدهم:  
ما بك؟ لماذا تركضين؟

لا أدري من أين جاءني الجواب، إذ قلت:  
جئت راكضة لأن أُمي تعرضتُ لجلطة دماغية،  
ونحن نسكن في نهاية الزقاق. يمكنكم التأكد..  
فانبرى بعض المسنين الجالسين لتأكيد  
كلامي، إذ قال أحدهم:

هي محقة.. نحن نعرفها. بيتهم في نهاية  
الزقاق. وهي تزور أمها العجوز دائمًا.

إحتار الرجال الملثمون. الرجال المسنون هم  
بادروا بالتأكيد على كلامي، لذلك أحسستُ بأن  
الملثمين صدقوني. فقال لي أحدهم:

أسرعي إذن..!

لم أصدق ما سمعت، فواصلت الركض بسرعة  
لا أعرف من أين جاءتني. ظل الملثمون لدقائق  
ينظرون إلي وأنا أركض. وكان الزقاق طويلًا لحد  
ما. وقبل نهايته ظهر لي منعطف جديد فدخلت  
فيه ومنه التففتُ إلى منعطف آخر، ثم عبرت  
إلى الشارع الرئيسي الآخر. لكن يبدو أن الملثمين  
انتبهوا لي، لأن مَنْ كانوا يلحقون بي قد وصلوا  
إليهم وسألوهم عني، لأنني كنتُ في منعطف  
جديد رأيت السيارتين تسرعان بمغادرة الزقاق.

لم تعد المدينة آمنة. الشك صار مباحًا في  
كل شيء. في كل شيء. أي شخص يواجهك تشك

به، أو شخص يمشي خلفك تشك به. أية دراجة هوائية أو نارية خلفك أو إلى جانبك تشك براكبها، أية سيارة تاكسي أو «تكتوك» خارج الساحة تشك به. ثم، لماذا الحكومة مرعوبة هكذا؟ لماذا تخاف الحناجر الصداحة بالأمل والتغني بالبلاد.؟؟!!.

التفتتُ ما بين الأزقة. ووصلتُ سالمة إلى ساحة الطيران. ضجة الناس وازدحامهم منحاني الأمان. وانسلتُ بين مجموعة من العابرين ودخلتُ إلى ميدان الانتفاضة، دخلتُ الساحة. توجهت مباشرة إلى جهة نصب الحرية. وباليستي بقيت في جهة ساحة الطيران، إذ ما أن وصلت حتى أقبل صاحب تكتوك. ما أن توقف حتى خرج اثنان وهما يحملان شهيداً قد فلقَتْ إحدى العبوات الغازية جمجمته. كان فتى في العشرين وربما أقل من ذلك. لا أدري لِمَ فكرتُ بأن هذا الفتى جاء الساحة منتفضاً من دون أن تعرف عائلته بذلك، عائلته التي تنتظر عودته إلى الغداء أو العشاء. وشعرتُ بانقباض في قلبي على أمه وأبيه..!

أعرف أنني عاطفية جداً. وقلبي ينسحق ألمًا حين أفكر بأمهات الشهداء الذين يتساقطون

بشكل مخيف. وفكرتُ في نفسي. ولم أتألم سوى على أمي وأبي، فأخوتي سوف يخفون موتي إذا ما حصل ذلك، بل إنهم سيترأون مني ومن مشاركتي في الانتفاضة حفاظًا على مصالحهم ومكانتهم في الأحزاب التي منحتهم وجاهة وسلطة في المدينة.

كانت الأوراق الإعلانية والصحف البسيطة توزع في الساحة، وهناك إذاعة تبث علانية كل الأخبار. لذا سمعتُ باختطاف بعض الشبان والشابات. وهناك تحذيرات لكل المنتفضين بأن يحترسوا عند الخروج من الساحة لوحدهم.

وكما أخبرتك يا آدم. وأكرر هنا، بأنني لستُ سياسية. لا أنتمي لتوجه فكري. ولدتُ وترعرعت في مدينة مقدسة، لكنها أبعد ما تكون عن القداسة لولا وجود مقام كريم فيها. أبي رجل دين وعالم كبير يُحسب له الحساب في المشهد الروحاني الطائفي. لدي أخوة وأخوات كلهم من أزواج أخواتي تجار دين وشعارات أخلاقية، اشتروا الدنيا وهيلمانها من دون أن يدفعوا مقابل ذلك شيئًا سوى استخدام سمعة والدي، وشعاراتهم الطائفية.

كنت متمردة منذ صغري، فلم أرتد الحجاب.

تعرضتُ لضغط أخوتي لكن والدي مع أنه رجل معمم وعالم دين كبير، كان أكثر تفهمًا من أخوتي الذين لم يلبس أي منهم عمامة، مع أنهم قادة متنفذون في الأحزاب الإسلامية. عشت تجربة عاطفية في مراهقتي، لكن الفتى المسكين اغتيل وتم قتله، وقد شاع أن أخوتي كانوا وراء الاغتيال. لكن لا دليل ضدهم.

وكما قلت لك يا آدم. لم أرتد الحجاب إلا بعد أن قرروا حرمانني من مواصلة دراستي الجامعية. وجئت بغداد. و كما رويت لك عشت تجربة عاطفية، لأسميها مشاعر حب مع أستاذ الفلسفة، الدكتور النذل، الذي اتفق مع سيدة قوادة، قدمها لي بأنها سيدة فاضلة. وجرى ما جرى. جروني بشكل غامض وبطريقة دفعتني أن أذهب برجلي إلى الفخ. ووجدت نفسي خلال ساعات وقد صرت في قاع الانحطاط، وصرت فتاة متعة.

لكنني وجدت في الانتفاضة ما أيقظ الروح فيّ وأعاد الحياة لإرادتي التي اعتقدت أنها اختفت للأبد. لم أفكر بأية مصلحة وأنا أشارك المنتفضين في الساحة. لكن خفت على هؤلاء الشباب حينما رأيت أستاذي النذل، مغتصبي، يحاضر كقائد وموجه لمجموعة من الشباب،

بينما رأيته قبل ذلك متخفيًا تحت باروكة في  
تاكسي لاخطاف المشاركين. كما رأيت الرجل  
المعمم، الذي تمتع بجسدي لساعة وفق عقد  
منح له شريعته السمحاء وهو وسط مجموعة من  
الشباب الذي كانوا يحيطون به. مثلما رأيت  
القوادة مشاركة في تقرير تلفزيوني وهي تتحدث  
عن الانتفاضة. أقولها بصراحة لقد تم اختراق  
المنتفضين.

لا أفقه في السياسة لكني أفقه شيئًا واحدًا  
هو أننا نريد وطنًا حرًا، كريمًا، يحترم كرامتنا،  
ويوفر لنا الحياة الكريمة. هل هذه الأمانى  
بالضرورة يجب أن تكون مرجعيتها سياسية أو  
فئوية وطائفية.

لكنك إلى الآن لم تخبريني كيف وصلت إلى  
هنا؟ سألتها مستفسرًا.  
ابتسمت. وقالت:

إنك لا تتسى مع أنه لا ذاكرة للموتى الأحياء.  
بلى..إنهم يتذكرون الحياة التي كانت في مكان  
آخر ذات يوم.

حسنًا سأجيب على سؤالك.  
وأنا أسمعك.

بقيت في الساحة. فتشتُ عن المرأة المسنة

التي نمت إلى جانبها تحت بطانية مشتركة. وجدتها تطبخ شوربة عدس للمنتفضين. ذهبْتُ إليها وشاركتها العمل. وبقيت معها للأيام التالية. لكن حدث أن تعرضتُ إحدى الفتيات لآلام مفاجئة في بطنها. هي كانت تعمل معنا قرب المكان الذي كانت المرأة المسنة تعد الطعام فيه. أخذناها إلى خيمة الأطباء، فقالوا من المحتمل أن تكون قد تعرضت لإلتهاب الزائدة الدودية، ومن الضروري نقلها إلى المستشفى. اللجان المؤلفة من الشباب اتصلوا بالإسعاف والطوارئ. لكن آلامها كانت قوية.

كان مكان إعدادنا للطعام على حافة الساحة. لمحنا سيارة إسعاف واقفة هناك. وكانت آلامها قوية جدًا، فتناسينا كل التحذيرات. وأخذتها وهي تتكئ على إلى الإسعاف، فرحبوا بنا، وأصعدونا إلى السيارة وانطلقت بنا. كان ذلك هو الخطأ المييت الفادح. غلطة الشاطر كما يقال.

انطلقت السيارة بكل سرعتها. لم تتعطف على الشوارع الرئيسية للمدينة والتي تقود إلى المناطق التي فيها مستشفيات، بل توجهت إلى الطريق الذي يقود إلى خارج المدينة وإلى أطرافها البعيدة. كان معي اثنان من الرجال في القسم



الخلفي من السيارة، والفتاة مستلقية وهي تتلوى على سرير السيارة الطبي.

وسمعتُ الرجل الذي يجلس إلى جانب السائق يتحدث مع شخص آخر: «سيدي ومولاي. الأمانة وصلت واستلمناها. هي معنا في السيارة. مبارك لكم. عاش العراق». حينها أدركتُ أنني جئت بنفسني إليهم. وسيارة الإسعاف هذه جزء من الفخ المنصوب. واستغربت بأنني أمانتهم التي يتحدثون عنها. أكانوا يترصدوني من دون أن انتبه؟ ومن هو هذا السيد المولا الذي يباركونه بالصيد الثمين؟

وصلنا إلى بيت لديه بوابات عريضة. أدركت ذلك من توقف سيارة الإسعاف ومن هدير البوابة وهي تُفتح. توجهتُ السيارة إلى كراج تحت المبنى، هذا ما شعرتُ به من خلال انحدار السيارة متجهة إلى الأسفل. وحين وقفتُ خرج أحد الذين في مقدمة السيارة وفتح الباب لنا.

نزل الرجلان اللذان كانا معنا. أنزلا السرير الطبي الذي عليه زميلتي التي كانت مبتلة بشكل مريب بعرقها. لم تعد تصرخ وأنما تلوي رأسها يميناً وشمالاً وكأنها تحتضر، وشحبَ لونها حتى صار أقرب للإخضرار.

أما أنا فشدوا عيني بقطعة من القماش  
السميك. ساقوني إلى مكان عرفت أنه بعيد عن  
سيارة الإسعاف. وسمعتهم يتحاورون فيما بينهم:  
هذه تحتضر. ستموت.

إلى جهنم وبئس المصير.  
سمعتُ قلقة فتح باب حديدي. ودفعوا بي إلى  
الداخل. وأحسستهم يدخلون خلفي ويغلقون  
الباب من الداخل. وأحدهم يزيل الغمامة عن  
عيني.

وجدتُ نفسي في صالة طويلة، وكأنني في  
مجزرة لذبح الأبقار. تتدلى من السقف عشرات  
السلاسل مع رافعات للتعليق مرتبطة بخطافات  
مختلفة الأحجام. وفي إحدى الزوايا أريكة  
خشبية مغطاة بجلد، وكأنها سرج حصان. وعلى  
الجدار عُلقَت سياط مختلفة الأحجام والأشكال.  
وفي جانب آخر براميل فيها ماء، لكن كما يبدو  
ثمة عفونة تأتي من تلك الجهة، وكأن البراميل  
مليئة بالأوساخ والبول والقذارة.

أجلسوني على كرسي خشبي، وجلس أحدهم  
بالمقابل مني على كرسي حديدي. كان ينظر إليّ  
نظرات متفحصة، ثم بدأ أسأله:

من أنت؟ وماذا كنتِ تفعلين في الساحة؟ أنت

لا تهتفين، ولا تذهبين مع المجاميع السافلة إلى  
الجسر. ماذا كنتِ تفعلين هناك؟

كانت لهجته هادئة ومطمئنة، وكأنها يريد أن  
يهدئ من روعي. وأدركت أنهم لا يعرفوني حقًا،  
فأجبتة:

لا شيء. جئت أرى ما يجري. لستُ سياسية  
ولا أنتمي لأي جهة منظمة.

لو لم تكوني كذلك فلماذا هربتِ؟ وكنيتِ  
تركضين في أزقة البتاوين. لقد صورناك وأنت  
تركضين هاربة.

لقد خفت. مجرد خوف. لم أفعل شيئًا.

إذا كنتِ غير منتمية لجهة أو لا تتعاملين مع  
أية تنسيقية للتضاهرات، فهل أنتِ قحبة جئت  
تسترزقين؟

ثم التفت نحو أحدهم وقال له:

هل صورتها موجودة مع مجموعة العاهرات  
اللاتي تم إرسالهن للساحة؟ أم هي من اللاتي  
يوزعن الحبوب المخدرة؟

شعرتُ بالشلل في فكي. لم أستطع الإجابة.  
تحرك الرجل الآخر وأخذ يقلب ملفًا يبدو فيه  
صور وقوائم لعيونهم ووكالاتهم وجواسيسهم في  
الساحة. التفت الرجل إليه وقال:

صورتها غير موجودة يا حجي .  
نظر الرجل إليّ بإمعان . وقال :  
أنت مثيرة جدًا . شكلك سيكسي ، من يراك  
يرغب في أن ينيكك . إذا أردتِ ألا نمحيك من  
الوجود ونقطّع جسدك إلى أجزاء صغيرة ، بل ولا  
نسلخ جلدك وأنت حية ، فعليك أن تتعاوني معنا ..!  
كنتُ أرتجف خوفًا . لستُ سياسية ، ولا أريد أن  
ألعب دور البطولة ، كل ما أريده الخروج من هنا لا  
أكثر ، وكنتُ مستعدة للموافقة على أي شيء  
يقترحونه ، فقلت :

أنا بريئة . لم أفعل شيئًا سيئًا لأحد . حتى  
شعار نريد وطن هو شعار عادي .  
فأخذ يقهقه ويقول :

من لا يريد وطن؟ لكن أي وطن تريدون؟ هذا  
وطننا وقد سقينا تربته بآلاف الشهداء ، الآن أنتم  
تريدون أن تصادروه وتمنحونوه للدول الاستعمارية ،  
تبيعونه للاستكبار العالمي .

فتمتمتُ بخوف وارتباك :  
لا علاقة لي بأحد . أريد فقط أن أخرج من  
هنا ، وأن يتم معالجة زميلتي .  
زميلتك ماتت .

صُغت حين سمعت ذلك . لم أستطع أن أقول

شيئاً. شعرت بعجزني عن التفكير. كان الرجل يتأملني بشهوة. نظر إلى جسدي وصدري وبطني وركز نظره إلى ما بين فخذي. وقال لي:  
أنت مثيرة. أريد أن أريك الآن. وأريد أن تكوني عيننا في المظاهرات. هل فهمتي. يعني وظيفتج كحبة.

لم أجب. فصرخ بي صرخة مدوية:  
أجيبني.. هل فهمت؟  
نعم..

أريدك أن تتوسليني بأن أريك.. أن تطلبني بنفسك ذلك.. تتوسليني.  
بقيت صامتة لا أنبس بأية كلمة فصرخ بي صرخة شرسة:

قلت لك توسليني..

ارتبكتُ. واستحضرتُ انحطاطي وسقوطي في بيت السيدة الفاضلة القوادة، وانهار محاولاتي من أجل أن أتجاوز ذلك. ووجدت نفسي أردد ما طلبه مني من توسل بأن يضاجعني.

فجأة، طلب من زميله أن يأتي بالكاميرا. توجه الرجل الآخر إلى حقيبة كانت على طاولة قدرة في إحدى الزوايا وجاء يحمل كاميرة فيديو. ومن دون أي كلام أخذني الرجل المحقق من ذراعي

وتوجه بي إلى الأريكة الخشبية المغطاة بالجلد .  
طلب مني أن أكرر ما سيقوله . وقرأ علي كليشة  
المتعة التي سمعتها من الرجل المعمم في بيت  
السيدة الفاضلة القوادة . ثم طلب مني أن أنزع  
بنطالي وسروالي . وبلوزتي . فعلت ذلك بذل  
شديد . طلب مني التمدد على الأريكة الخشبية  
وأنا أفتح ساقي .

جاء الرجل الآخر وصور كل شيء . نزع هو  
حزام بنطاله واقترب مني . كان الآخر يصور كل  
التفاصيل . وصورني معه من دون أن يظهره .  
وصورني في أوضاع مختلفة حسب رغبة الرجل  
المحقق . وأثناء ذلك طلب مني التلطف بكلمة  
جنسية إباحية مبتذلة تكشف عن رغبتني الشديدة  
بذلك . ثم طلب مني بأن أكرر بأنني موافقة على  
أن أكون عينهم على المتظاهرين وأنقل لهم أخبار  
الانتفاضة .

وكررت ما طلبوا . كنت ضائعة . وعرفت أن  
ضياعي هذه المرة لا خلاص لي فيه ، ولا أمل  
يرتجى . ولم ينته ذلك إلا بعد أن قذف في رحمي .  
والغريب ، لحظتها طراً في ذهني احتمال أن  
أحمل منه .

غريب هو الإنسان . كانت مسألة سقوطني

وانحطاطي هي مجرد تكرار لما جرى معي،  
لكني الذي خفته في ذلك الموقف هو الحمل!؟.

حين انتهى مني سحب حاله، وذهب إلى  
جانب من القاعة وغسل قضيبيه بالماء من إبريق  
كان هناك. ثم جلس على كرسيه. وصاح بي بأن  
ألبس ملابسي.

الرجل الآخر همس له:

وأنا حجي..

ارتسمت علائم التفكير على وجه الرجل  
المحقق وقال:

لا.. هذه ستكون لمتعتي أنا. لي فقط.  
اعطيها جهاز هاتف نقال فيه رقم واحد فقط.  
تتصل بي على مدار الساعة لتتقل لي كل شيء  
وكل ما يدور داخل الساحة. بل عليها أن تتغلغل  
داخل التسيقيات لتتقل لنا ماذا يقررون  
ويخططون، ومن هم القادة السريين الذين لا  
يظهرون للعلن.

أمرك حجي.

كنتُ ملوثة بالمنى. ومع ذلك لبست سروالي  
وبنطالي وبلوزتي. لم أكن أعرف ماذا أفعل، فقال  
لي وهو يشير إلى الكرسي الخشبي:  
تعالى اجلسي هنا.

حين جلست قال لي:  
لقد صورناك بكل وضوح. فيه اعترافك  
برغبتك الكبيرة في النيك، واعترافك بأنك  
مستعدة أن تكوني جاسوسة على المتظاهرين،  
لذلك إذا لم تتعاوني معي سأنشر هذا الفيديو  
على اليوتوب والانستغرام وأفضحك. صحيح  
لدينا بعض الذين يتعاونون معنا من داخل الساحة  
لكنك ستكونين في غاية السرية، وعلاقتك  
ستكون معي فقط. هل فهمتي.

سكتُ. لكنه صرخ بي بشكل فظ:

هل فهمتي..

فهمت. تمتمتُ بخوف.

لا أدري إن كانت هيئتي هي ما أنقذني من  
التعذيب الشديد. ربما شهوة هذا المحقق في  
هو ما أنقذني. هل أنا سعيدة بذلك؟ نعم ولا..  
نعم لأنني تجنبنا التعذيب الجسدي والألم. ولا  
لأنني سقطت في بئر الانحطاط التي بلا قاع.

هل فعلت ما طلبوا منك؟ سألتها.

نعم.. وهل أمامي غير ذلك. في بداية الأمر  
كنت أحاول أن أنقل أخباراً عادية وغير مهمة  
ومعروفة، وكنت اتصل بالحجي المحقق الذي  
صار يطلب لقائي، ليأخذني إلى شقة خاصة به،



وهناك يتفجر شبقًا وبذاءة وإباحية معي. حتى اعتدتُ ذلك. وصار يضمن لي خروجي وودخولي الآمن إلى الساحة. لكن الغريب أنه لم يسألني عن عائلتي وأصلي وفصلي. وكأنه وكأنه يعرف كل شيء ويكتمه. والغريب أنه صار بيننا شيء من الألفة. فقد تعودت عليه. وتعودت على مضاجعته لي. وأعجبني حمايته لي واهتمامه بي. هل أحببته؟ كيف لامرأة أن تميل لمغتصبها ومذلها؟ أفي داخلي ثمة عاهرة مخلصنة لقوادها؟.. إلى أن واجهته ذات يوم بأنه يكتم شيئًا، فهل هو يعرفني؟ أجايني بكل هدوء بأنه يعرف كل شيء عني. وأنه فعلاً أراد أن يسيء إليّ، لكنه عرف بأنني إنسانة لا علاقة لي بهؤلاء الذين يريدون تخريب البلاد. فحاججته بأن الأمر ليس كما يعتقد، فأغلب هؤلاء من أبناء العراق المخلصين الذين يحتجون على الفساد الذي صار سرطانًا يهدد البلاد بالموت والفضاء.

في بداية حواراتنا كان يحتج لكنه مع تكرار الحوار أخذ ينصت. ويصمت من دون أن يرد. إلى أن اعترف ذات مرة بأنه عبد مأمور، وإذا لم يفعل ما يفعل فس يقتلونه بلا رحمة. هل أنا أجد تبريرًا للقتلة؟ لا طبعًا، لكني وددت القول كلنا في

الجحيم.

ومع ذلك لم تخبريني كيف أنتِ هنا؟ سألتها.  
ذات يوم أفاق جميع المنتفضين، صدموا حين  
انتبهوا إلى أن جميع تماثيل جدارية التحرير  
الشهيرة قد اختفت. بل أفاق الجميع على مشهد  
لا يخطر إلا في الخيال. فقد كانت السماء التي  
فوق الساحة والجسر ليست خالية أبداً، بل كانت  
ثمة امرأة بالغة الحسن والجمال، ترتدي جلباباً  
أسوداً أنيقاً. وكان وجهها حزيناً جداً. كانت تنظر  
من السماء لحشود المنتفضين في ساحة التحرير  
بمودة وحنان ولطف.

كان وجه المرأة وهيئتها تشكل السماء المرئية.  
وجهها كبير ويمتد على سعة السماء. وتحولت  
الجدارية إلى ما يشبه الشاشة التلفزيونية،  
وعليها ظهرت كتابة تشير: ظهور السيدة بغداد.

كان وجهها حزيناً وهي ترتدي ملابس الحداد  
السود. وكان الناس في هرج وصرخ وهم ينظرون  
إلى أمهم بغداد.

لا أعرف ما الذي جرى معي. أحسستُ بأن  
الإنسان يمكنه أن يتغيّر ويغير، ما دامت إرادة  
الخير لم تخبو في أعماقه، لكن هل في أعماقي  
إرادة والخير وأن في عمق المستتبع النتن..؟

وفجأة أحسست بأنني أستطيع ألا أكون  
جاسوسة على هؤلاء المنتفضين، بل أكون عوناً  
لهم.

هل رأيت بغداد متجسدة في سيدة جميلة  
حزينة تلبس ملابس الحداد؟ سألتها.  
نعم..

وماذا جرى بعد ذلك؟

لا شيء.. كنت حينها أتأمل السيدة بغداد وهي  
تملأ السماء بوجهها الجميل الحزين، وإذا بعبوة  
دخانية تستقر في وسط جبيني بين عيني.  
سقطت في الظلام الفجائي..... صحيح إن مثل  
هذا الموت بشع. فألمه لثوان لا يطاق. نعم لا  
يستغرق سوى ثوان. وتسقط في الظلام.

حين أصابتي العبوة في وسط عيني حضرت  
وجهي وجبيني ومزقت مقلتي. سقطت على  
الأرض كخرقة. كنت بالقرب من حافة الساحة،  
وبالقرب مني تقف الإسعاف على الجانب الآخر  
من الطريق الذي ينحدر من السعدون باتجاه  
ساحة الطيران.

الغريب إنني كنت اسمع كل شيء. فقد اتصل  
أحدهم، الرجل الآخر، المصور، الذي كان مع  
المحقق. ليخبره بأنني أصبت بعبوة دخانية في

جبيني بحيث فقدت كلتا عينيّ.  
و حين أفقتُ وجدت هذه الغمامة الجلدية على  
عينيّ. نائمة في سريري في الشقة التي أرتادها  
مع عشيقتي المحقق، وليس في شقتي بالكرادة.  
كنتُ ميتة، لكنني حية أيضًا. وعلى الرغم من  
فقداني لعينيّ ووجود هذه الغمامة الجلدية  
لتغطي بشاعة المنظر، إلا إنني كنت أرى. كما  
أراك الآن.

وذات ليلة. وفي الهزيع الأخير من الليل. طُرق  
باب الشقة بقوة وبضربات قوية ومتتالية. وقبل  
أن يغادر المحقق السرير ليفتح الباب، اقتحم  
عدد من الملتهمين الشقة بعد أن كسروا الباب  
رفسًا بالأقدام. ومن دون كلام شهبوا اسلحتهم  
بوجه عشيقتي المحقق.

كانوا عددًا كبيرًا من الرجال. ومن خلفهم  
رأيت أخي الصغير، بل والكبير أيضًا. تقدم أخي  
الصغير، الذي كان كما يبدو مسؤولًا كبيرًا عند  
هؤلاء الملتهمين وقال لعشيقتي المحقق: «أنت متهم  
بالتستر على الإرهابيين. ومتهم بسوء استخدامك  
لمكانتك ومنصبك. عرفنا كل شيء. وهذه الشقة  
أكبر دليل على ذلك. خذوه.. وهذه الجاسوسة  
القوا بها في زنازيننا السرية. اتركوها إلى أن

تتعفن هناك. لا تحققوا معها. ولا نريد أن نعرف  
من هي ولا اسمها وأصلها وفصلها. يكفي أنها  
مع هذا الخائن...».. وكما قلت لك إنهم على  
استعداد للتبرؤ مني. وفعلاً تبرأوا مني. أنا الآن  
حواء اللاأحد.

أليس هناك من أمل بأن يطلقوا سراحك؟  
لا.. أنا محكومة بالانتظار الأبدي.

فجأة تعالت أصوات العصي المطاطية وهي  
تضرب على قضبان الزنانات. ولمحت من بعيد  
بعض الملتهمين وهم مقبلون باتجاهنا. فأخذنا أنا  
وآدم الصغير نركض لاسيما وأن نهاية النفق  
لاحت لنا، وان النفق صار يغادر عتمته شيئاً  
فشيئاً. بل وبدا لا سقف يغطيه. وأخيراً وصلنا  
في النفق مفتوح السقف على السماء.

حين وصل آدم الحارس مع الصبي آدم الصغير إلى نهاية النفق المفتوح على السماء، رأى وكأن قد وصل إلى النفق الذي يربط بين شارع الجمهورية وشارع السعدون. ذهل حينما رأى القيامة في ساحة التحرير. كان المشهد العام يشبه يوم الحشر العظيم في التوصيفات الدينية، فالجموع كلها تهتف: «نريد وطن». بينما من جهة جسر الجمهورية كانت سيول القذائف الدخانية تأتي ردًا على الهتافات المدوية.

فكر آدم الحارس حينها مستغربا كيفية ارتباط النفق المظلم الذي كانا فيه، والذي ابتداءً من شارع المتبني بهذا النفق القصير الموجود في الباب الشرقي. وسأل نفسه: «أمن المعقول أنه لا أحد يعرف بوجود النفق المظلم تحت المدينة.

خلال تلك اللحظات من الدهشة والاستغراب سمع دويًا يشبه إيقاع جيش يمشي بشكل رتيب. فقد كانت الأرض تهتز من وقع الأقدام القوية للجنث الهاربة من المشرحة والزاحفة على ساحة

التحرير.

فجأة، بدتّ طلائع مسيرة الجثث الهاربة تظهر للعيان وتصل إلى مشارف الساحة. أقبلتّ جموع الجثث الهاربة من المشرحة من جهات مختلفة. من فرعي شارع الجمهورية اللذين ينشقان من ساحة الخلائي. ومن جهة شارع الرشيد أيضًا، بل وحتى من جهة شارع السعدون وصلت حشود الجثث، علما هو رأى حشود الجثث الهاربة تتطلق من باب المعظم، حيث مشرحة بغداد فقط.

حاصرتّ حشود الجثث الهاربة ساحة التحرير من كل جهاتها. لكن هيمن ما يشبه السكون على الساحة. فقد غطت سماء بغداد آلاف الغربان السود. جاءت الغربان من جهات مختلفة. حجبت زرقاة السماء، وغطت واجهات وأسطح المباني التي تحيط بالساحة وصولا إلى ساحة الطيران. ومع مجيء الغربان أطلقت القاذفات والعبوات الدخانية على الساحة بناسها وخيامها من الجهات كلها. فأشتعلت النار في خيام المنتفضين. ولم يمض إلا القليل من الوقت حتى صارتّ الساحة وكأنها ميدان مخرب بعد انتهاء معركة هائلة خلفت مجزرة وحطاما.

وكما ظهرت الغربان فجأة، اختفت فجأة  
أيضًا.

كانت الساحة والشوارع مكتظة مكتظة بمئات  
الشهداء الذين سقطوا في الساحة وفوق الجسر.  
لكن السماء بدت زرقاء، زرقاء.

وكان وجه السيدة بغداد يغطي مساحة السماء  
كلها. كان وجه السيدة بغداد جميلاً، وحزيناً وهي  
تنظر إلى الساحة وإلى بقايا خيامها المحترقة،  
وكأنها تكلى بفقدانها المئات من شبابها اليافعين.

كانت السيدة بغداد في ثياب الحداد. ومع  
ذلك فهي تنظر للجميع قاتلين ومقتولين، شهداء  
وقتلة بعين حزينة. كان الحداد هو ما يليق  
بالسيدة بغداد.

وكان آدم الحارس والصبي آدم الصغير ينظران  
إلى السماء. إلى وجه السيدة بغداد.

بدأت كتابة الرواية في أربيل بتاريخ

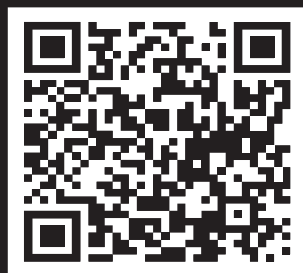
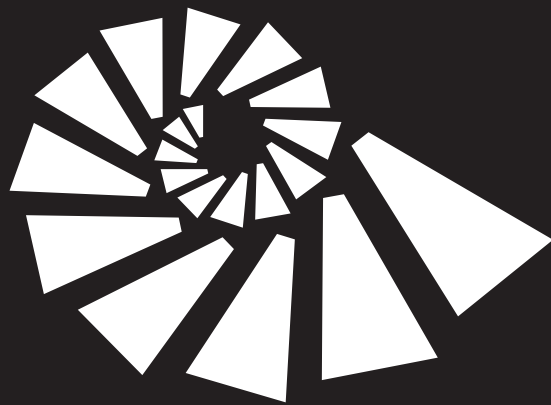
25/4/2012

وأنهيت الكتابة في أربيل بتاريخ

22/10/2021







 cemetery.of.books

